

كتاب الحلال

رجال عرفهم

عباس محمود العقاد

بمعلم



سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطنحجي

العدد ١٥١ - جمادى الاولى ١٣٨٣ - اكتوبر ١٩٦٣

No. 151 - October 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية
العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه
سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا
لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠
مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر
انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنه ،
ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥
نكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الحلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي - Sarmed- Twitter: @sarmed74

قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

رجال عرفتهم

تتم
عباس محمود العقاد

مقوق الطبع محفوظة لدار الازاد



تقديم

فى الصفحات التالية تعليقات متفرقة على سير طائفة من الأعلام الذين كنا نسميهم بالشيوخ أو الأقطاب حين بدأت حياتى الصحفية قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ، ومنهم من لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة ، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفناهم كما عرفنا الأولين ، ووصفنا معرفتنا بهم كما وصفنا معرفتنا بأولئك الشيوخ والأقطاب ، من زاوية خاصة تتيح لنا أن نقول عنهم ما ليس فى التاريخ العام الذى يقال فى كل تعليق أو تقدير

وأكثر هؤلاء الأعلام من الصحفيين أو الذين كانت لهم مشاركة موجهة فى الكتابة الصحفية ، ونسمى كتابتنا عنهم بالتعليقات ولا نسميها بالسير أو التراجم أو التحليلات لأننا لم نكتبها لنستقصى الحوادث أو

نحلل « الشخصيات » من وجهتها العامة ، ولكننا كتبناها لنبدى لهم رسوما قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم فيها ، وتوخينا فى هذه الرسوم أن تكون كصور السياحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخصوس حيثما مرت به فى رحلاته ، فليست هى أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان ، وليست هى شرحا تاريخيا للشخوص والأعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة ، وان لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم

وقد اتفق التقاء هذه الزملة المختارة فى مجموعة واحدة كما يتفق التقاء الصور المتفرقة فى جعبة واحدة من هذه الرحلة أو تلك ، بغير مفاضلة مقصودة بين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم ممن نعرفهم كمعرفتنا بهؤلاء الأعلام والأقطاب ... وربما جمعت المناسبة بين طائفة أخرى كهذه الطائفة فى مكائتها وحق الكتابة عنها ، فلا تحسبها مسألة تقديم وتأخير ولا مسألة موازنة وترجيح ، وانما هى رحلة أخرى من رحلات الحياة الصحفية أو الأدبية أو السياسية ، ولا مفاضلة

بين معالم الرحلات فيما يعرض لها من أسباب التقديم والتأخير

وحسبنا عند أصدقائنا القراء أن تكون هذه المجموعة « حفلة استقبال » اجتماعية ، نعرفهم فيها بأقطابها وأعلامها كما عرفناهم على سنة التحية في مجالس الأصدقاء . وذلك خير ما نبغيه

عباس محمود العقاد

الطبعة الأولى
١٩٥٢



علی یوسف

تجرى المقارنة أحيانا بين الكاتب الصحفي الذى كان يكتب فى صحافتنا العربية قبل سبعين أو ثمانين سنة ، وبين كاتبنا الصحفي الذى يكتب الآن فى صحافتنا ، بعد ان بلغت مع الصحافة العالمية آخر اطوارها ، من وسائل الطباعة والتحرير الى وسائل الادارة والتوزيع

وقد نوجز هذه الفوارق التى يمكن ان تتعدد الى غير نهاية فنقول : ان الفارق هنا هو الفارق بين « روبنسون كروزو » فى جزيرته وبين رحالة من سياح اليوم ترسم له طريقه من رقم الكرسى فى الطائرة الى رقم الحجرة فى الفندق الى اسماء الخطوط الجوية والبحرية فى كل مدينة وكل فندق ، وكل يوم من ايام الرحلة ، منذ « قطع التذكرة » الى تسليم البطاقة عند باب المطار الاخير ، مع سلامة الاياب

وفارق آخر ربما أوجز لنا تلك الفوارق على نحو آخر من المشابهة : وهو الفارق بين طبيب القرن التاسع عشر وطبيب القرن العشرين

ان طبيب القرن العشرين يعرف عمله المطلوب من خلال عشرين كشفا وتحليلا وأداة طبية او كيمياوية بين يديه ، ويستوحى وصفه للدواء من تحليل الدم وتحليل المواد الجسدية على اختلافها ، ومن كشف الاشعة ورسماته

القلب وشهادات للاحوال الخاصة والعامة يرجع اليها في سجلاتها اذا شاء

ولم تكن لطبيب القرن التاسع عشر وسيلة من هذه الوسائل الميسورة اليوم في اكثر العيادات ، فربما أعوزته السماعة فلم يعتمد في جس النبض على وسيلة غير الاصغاء بأذنيه ، وهو بعد ذلك يعالج العلل جميعا فلا يتخصص لعلة واحدة يستعد منذ عهد المدرسة « لتشخيصها » وتدبير علاجها

وكتابنا الصحفيون من اعلام القرن التاسع عشر كثيرون . .

ولكننا اذا نادينا اسماءهم من الذاكرة ، لم يكن منهم من هو اسرع تلبية للنداء العاجل من اسم « على يوسف » صاحب « المؤيد » اخيرا ، وصاحب « الآداب » قبل ذلك ان « على يوسف » كان يصنع « صناعته » الصحفية ليتعلمها الناس منه ، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على اساتذتها في الشرق والغرب ، ولا على ادواتها التي تمليها عليه

لم يكن يعرف لغة للصحافة غير العربية ، ولم يكن يعرف من العربية غير ما اعتمد في معرفته على نفسه ، بل غير ما اعتمد على نفسه قبل ذلك في اختيار استاذه الذي يراجعها عليه

وكان يسمع ، ولاشك ، بالصحافة الاوربية ويعرف منها بالسماع اكبرها وأشهرها ، ولكنه لم يعرف من صحافة الغرب صحيفة واحدة لينهج على منهجها ، ولم يكن من غايته ولا طاقته ان يعرف « التيمس » أو « الطان » ليحكى هذه أو تلك في طبعها وتحريرها ، ولكنه - هو واقرانه من كتاب عصره - كانوا يتدثون في الصحافة

طريقا آخر غير تلك الطريق التى تقدمتهم فيها الصحف
الأوربية : طريقا يستطيعونها وتستدعيهم اليها ، وقد تكون
الطريق لكل صحفى منهم غير الطرق الأخرى التى يستقيم
عليها سائر زملائه

كان « على يوسف » يرتجل صناعته الصحفية فى كل
شئ : فى التقاط الأخبار ، وفى جمع الآراء ، وفى تحرير
المقالات ، وفى سياسة الجمهور وسياسة ولاية الأمور

وظهر من قضية « التلغرافات » التى سيق من أجلها
الى القضاء أنه كان يستطلع أخبار الحملة على السودان
قبل وصولها الى ديوان الوزارة ، لأنه كان على صلة
بموظف المكتب الذى يتلقاها ، ولم يكن أحد يعرف
« الواسطة » التى تحمل النبأ من مكتب البرق الى مكتب
التحرير

وكانت تعبئة الآراء قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة فى
وقت واحد ، بل كانت ادارتها كلها مجهولة يخترعها كل
صاحب صحيفة على سنته فى اختراع هذه الأدوات
المرتجلة

أما « على يوسف » فقد كادت وسيلته لتعبئة الآراء
أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ، ومن يرجع
اليهم فى حياته الخاصة أو يرجعون اليه

فلما اتهم اللورد كرومر هذه الأمة بالتعصب الدينى
وعداوة الأجانب ، جمع الشيخ « على يوسف » نماذج
الآراء التى تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة ترشحه
لابدء الراى فيها ..

فقال الخواجه ميماراكى اليونانى : « أشهد أننى ماشعرت
قط فى معاملتى مع المصريين ، بأننى أعامل أناسا يخالفوننى
فى العقيدة »

وقال الفرنسي وكيل مصرف الكريدى ليونيه الفرنسى :
« أننا لا نشعر بهذا التعصب الذى اتهمت به الامة المصرية
.. اللهم الا اذا كان التعصب موجودا فى غير الدائرة التى
اليها معاملتنا »

وقال شكور باشا الادارى اللبنانى : « اننى افضل أن
أمشى وحدى ليلا فى جهات السيدة زينب والنجاسين ،
على أن أمشى وحدى ليلا فى جهات مونمارتر بضواحي
باريس »

وقال اسكندر عمون المحامى : « ان المصرى أكثر اكراما
للغريب من سائر الشعوب »

وقال باسيلي تادرس باشا : « لا صحة لما يقال من
وجود التعصب الدينى أو الجنسى فى مصر »

وحين سأل الشيخ كلا من السيد عمر مكرم والشيخ
محمد بخيت من رجال الدين الاسلامى لم ينس أن يسأل
رجلا ينكر الاديان جميعا وهو الدكتور شبلى شميل الذى
قال : « ان التعصب غير موجود فى مصر على الاطلاق »

اما المقالة فهى الصحفة المختارة على مائدة الشيخ على
يوسف بغير جدال

وقد تكتب المقالة فى موضوعها بأسلوب أجمل من
أسلوبها ، وعلى نمط من اللفظ والمعنى أبلغ من نمطها فى
لفظها ومعناها ، ولكن مقالة « على يوسف » هى مقالة
على يوسف التى لا يكتبها غيره ولا يؤدى الغاية منها أحد
كما يؤديها بقلمه ورأيه .. فهى من الكلم المفصل على
حسب قياسه جملة جملة وسطرا سطرا من فاتحتها الى
ختامها ، وليست من الكلم « المجهز » على قياسه ولو على
وجه التقريب الذى يحكمها أحكام التفصيل

واذا اردنا أن نجمع لهذه «الشخصية» النادرة مفتاحها في كلمة واحدة ، فهي كلمة « العصامية » حيث تصل العصامية أحيانا الى حدود المفامرة

لقد كان لـ « علي يوسف ومصطفى كامل » طريقتان مختلفتان - بل مختلفتان جدا - في الكتابة الصحفية وفي الخطة السياسية ، وفي الدعوة الوطنية

ولقد فرق النقاد بين الطريقتين ، فكان الفرق بينهما عند أناس أن طريقة مصطفى كامل هي طريقة التطرف والحماسة ، وأن طريقة علي يوسف هي طريقة المحافظة والاعتدال . . وكان الفرق بينهما عند أناس آخرين هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم ، أو هو الفرق بين الشباب والكهولة ، أو الفرق بين السياسة القومية وسياسة انقصر والحاشية الخديوية ، أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيف

لكن الواقع أن الفرق الوحيد الذي يحتوى جميع هذه الفروق هو « شعور العصامية » في نفس الرجل الذي كان مثله الأعلى في الحياة أن يصل باجتهاده وحيئلته الى مكانة السيد الموقر ، ليرعى له السادة الوارثون للسيادة كرامة الرأي وكرامة « الخاطر » كما نقول في عرفنا الماثور وكان من حق العصامية الناجحة عند علي يوسف أن يتكلم مع ذوى « الاعتبار » كما يتكلم ذوو الاعتبار ، ولا يخف به القلم خفة الحديث المتعجل أو الحديث المستثار

واذا قال ، كما كان يقول كثيرا ، أنه لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع . . فليست كلمة الرعاع هنا مقابلة عنده لكلمة النبلاء أو الارستقراطيين « . . وليس انكاره

لـ « مصطفى كامل » انكاراً لانسان دونه في المقام والمكانة الاجتماعية ، لأن « مصطفى كامل » كان له نصيبه من الالقاب التي خلعت على الشيخ على يوسف ، وان لم تغلب عليه

وانما كانت المقابلة عنده مقابلة بين خفة النزق والعجلة ورصانة « العقلاء » من ذوى الراى والحنكة في كل طبقة، ولهذا كان يكثر من تلقيب « مصطفى كامل بالطائش » ، ويكثر من وصف سياسته بالطيش ، ويجذبه عرق الدراسة العتيقة فيقول معتذرا من تكرار كلمة الطائش انها تطابق اسم مصطفى كامل في حساب التنجيم ، لأن مجموع الحروف بحساب الجمل في كلمة طائش وكلمتى مصطفى كامل واحد ... وهو « ٣١٩ »

وهذه القيمة - قيمة العصامي الذي بلغ في المكائنة الاجتماعية مبلغ ذوى الراى - هى التى جعلت لكتابه السياسية صبغة كصبغة اللغة الدبلوماسية بين وزراء الخارجية والسفراء ، وهى التى جعلته يعتزل الصحافة بعد أن أسندت اليه وظيفة « سيد السادات » أو شيخ الطريقة الوفاية الصوفية

وقد كان يكتب عن خصوم القصر الخديوى جميعا ، فيبيع لقلمه من المغامر في الكتابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لامره وايعازه ، ولكنه كان يأبى كل الإباء ان يحمل على رجل ممن أحسنوا اليه في نشأته الاولى ، كمحمد عبده ، وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، لأن هذه المحافظة على سمت الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة المحدثه والمقام المدخول

فاذا جاء بين تضاعيف الاخبار في صحيفة « المؤيد » شىء يمس هؤلاء مرضاة للhashية الخديوية ، فانما كان

يترك كتابته لغيره أو يفرغه في القالب الذي يوافق مظهر الكرامة وينفى عنه شبهات العتب والملام

غير أن المحافظة على المظهر شيء ومطابقة الحيلة والدهاء من وراء الستار شيء آخر . . ففي الوقت الذي كان فيه التشهير الصريح باسم محمد عبده محرما على اقلام المؤيد ، كان وكيل المؤيد بالاستانة يتطوع لمصاحبة الشيخ المفتى الغريب عن المدينة ، فيقحمه من مواطن الفرجة ما يتحاماها امثاله ، ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفجأوا الشيخ والوكيل بين مواطن الريبة . . ثم ينتهي الامر الى « وصمة » شائنة تصيب الشيخ في دار الخلافة الاسلامية ، فلا يشق على الخديو بعد ذلك ان يعزله من مناصبه الدينية برخصة من مقام الخليفة الاعظم ، ويتراجع امامها مجلس الوزراء في مصر ، فلا يعتبر منزل المفتى في هذه الحالة اخلافا بنظام العزل والتوظيف



وقد عمت الصيغة الدبلوماسية كل منحى من مناحى تفكيره وعمله في السياسة وفي علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين ، وظهرت في كل تصرف من تصرفاته العامة حتى في صياغة المبادئ الوطنية التي قررها لحزبه اساسا للمطالبة بحقوق الامة ونظام الحكومة . فقد اوشك ان يجعل هذه المبادئ توريطا دبلوماسيا من كلام المحتالين انفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابا للاحتجاج على ولى الامر او اتهامه بتحريض الصحف والاحزاب عليهم ، اذ كان انتساب الشيخ على يوسف الى القصر الخديوى امرا مفروغا منه مفهوما بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسومية في القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات في هذه البلاد ، وكان وكلاء « المؤيد » يزورون الدواوين

— خارج القطر — كأنهم ملحقون بسفارات القصر ، قبل
ان توجد له سفارات ..

فالمحتلون كانوا يسمون أنفسهم بالمصلحين ، ويقولون
ان اصلاح الاداة الحكومية غرض من اغراضهم الاولى التي
ينجزونها قبل مغادرة البلاد

والشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب الاصلاح ،
فاى اعتراض للدولة البريطانية عليه او على الخديو اذا
اقام قواعد حزبه على المطالبة بالاصلاح ..

والمحتلون كانوا يقولون انهم يدربون المصريين على حكم
انفسهم ويحولون بين الامير والاستئثار بالسلطة في مسائل
الادارة والمال على الخصوص

والشيخ على يوسف يقيد الاصلاح بأنه « اصلاح على
المبادئ الدستورية » ، ولا يذكر الدستور على اطلاقه
لانه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التي لم
تكن في بلادها حكومة نيابية ، وقد يزعج الانجليز اصحاب
السلطان الفعلى كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية
ولما ذكر « الاستقلال » ذكره مشروطا بالمعاهدات التي
ارتبطت بها بريطانيا العظمى ، وقال ان تحقيقه تنفيذ
لوعود هذه الدولة بالجلء ، وقد زادت هذه الوعود على
السبعين

وكل مقالة من مقالات « المؤيد » في السياسة العامة
فهى على هذا النمط ، مذكرة رسمية لا يأبى السفير ان
يوقعها باسمه واسم ولى امره ورئيس حكومته ، فاذا
جاوزت هذا الحد الى شىء من الشدة في التعبير ففاية
خطبها ان تكون بمثابة المقال « الموعز به » الى لسان حال
رسمى من السنة الحكومات التي تسمى احيانا « بالصحف

الشبيهة بالرسمية »

وقد اشتد الشيخ على يوسف غاية شدته في الحملة على لورد كرومر بعد اعتزاله ، أو عزله ، من منصب المعتمد البريطاني في القاهرة ، وكان الشيخ على حريصا على ترويع الظن الذي شاع في البلد عن نجاح الخديو في مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه في مكانه ، ولكنه كان على حذر شديد من اعلان هذه الدعوى مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها الى الاخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها لرجالها وخدام سياستها

فاذا بالشيخ على يوسف يخلص من هذا المأزق على احسن حال من الكياسة والانصاف ، فيتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة في خطاب الوداع ، ويسأل : لماذا كل هذا الحنق والرجل لم يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال ؟..

واذا بالشيخ يعترف للعميد المعزول بكل ماثرة من مآثره المدعاة ، فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر انكارها عليه انكارا على دولته كلها من ورائه

ثم يعتمد الشيخ اللبق الى الخطبة الكرومرية نفسها ، فلا يضيف اليها حرفا من عنده ، بل يأخذها بنصوصها للايقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين او المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم أعوانه ومستشاريه

كان الامير حسين كامل على رأس المدعوين للاشتراك في حفلة التوديع ، فلم يكن تعليق الشيخ على يوسف نقدا للامير - عم الخديو - بل كان ابرازا واضحا لاساءة كرومر

اليه ، مرة بالانحاء على أبيه اسماعيل ومرة بالسكوت عن
الإشارة اليه كأنه من سقط المتاع، وهو حاضر أمام عينيه:
« هذا الأمير الجليل أندي والى جناب اللورد بالصدقة
زمننا طويلا وخصه باحترامه دائما ، وكان له في عهده أعظم
اثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية
الزراعية الخديوية لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء
يوجهها اليه في جنب ما وجه من عبارات الثناء لغيره من
الاحياء والاموات »

ولم يتحدث الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد
كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته ،
بل كان حديثه عنهم جميعا كأنهم ضحايا وضحايا سياسته
وسوء خلقه في حاضره وماضيه

قال كرومر عن رياض باشا انه علق الجرس في عنق
الهر ، فكان ثناء على يوسف على رياض باشا أكبر من ثناء
اللورد عليه ، ولكنه استدرك قائلا ان اللورد :

« لم يقل ان رياض باشا لما أراد في زمنه هو ، ان يعلق
الجرس في عنق الهر قطعت يده وحلف اللورد ألا يعود الى
خدمة الحكومة ما دام هو في البلاد، وزاده عقوبة فرفت
ابنته من وكالة الداخلية في اليوم التالي من استقالة أبيه..
فكان المستبد اسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من
المستبد كرومر »

وأثنى كرومر على بطرس غالى باشا ومدحه بسعة
الحيلة في حل المشكلات فقال الشيخ على :

« نعم .. ولكنها المشكلات التي كان يخلقها اللورد بينه
وبين الجناب العالى ، وبينه وبين قناصل الدول من جهة
أخرى .. »

وتساءل الشيخ على :

« لماذا أعرض اللورد عن ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا
نظارا في الحكومة وليس لهم عمل مطلقا فيها ؟ »

وقد أشاد كرومر بالوفاق الانجليزى الفرنسى الذى
تم على يديه فسر له « الشيخ على » سلسلة من الاساءات
الى الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين ، وانه يفعل
ذلك « حبا في مصلحة مصر » ولكن ليحل محل كل قدم
فرنساوية قدما انجليزية »

ولم يكن كرومر ليعدل عن هذه الخطة مرة الا اذا جاءه
الأمر من رؤسائه في العاصمة البريطانية

والحق ان براعة على يوسف في التعقيب على اقوال
كرومر كانت هي البراعة « الموصوفة » للرد على كل كلمة
فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند انصاره قبل
خصومه والشامتين به وبعده ، وقد قلنا - فيما تقدم
- ان مقالة على يوسف هي مقالة على يوسف التى لا
يكتبها غيره وان كتب ما هو اجمل منها وما هو ابلغ منها
وأوفى ..

فهذه المقالات في توديع كرومر هي بعض الشواهد على
هذه « الخصوصية اليوسفية » .. اذ لم يكتب أحد من
مودعى كرومر نظيرا لها بهذا الأسلوب « الدبلوماسى
العصامى » الفريد ، وان كتبوا على أساليبهم ما هو
جدير بالاعجاب من ناحيته في عبارته وفحواه

ولم يستغرق هذا الأسلوب الدبلوماسى قلم الشيخ
الألمى في كل ما كتب من مقال أو خبر ، فقد كان للكاتب
« الانسان » قلمه الذى يجرى على هذه الطبقة من الفصاحة
وحسن الأداء ، ويجرى كذلك مع العاطفة التى كان يابى
لها ان تقوده في مواقف السياسة والمطالب العامة ، ولكنها

العاطفة في نفس « العصامي » الذاكر لعصاميته ، كيفما
تقلبت به الحال بين الرضا والغضب ، أو بين الفرح والأسى
وله في رثاء ولده الوحيد عمر كلمات كتبها يوم نعيه
ويوم تشييعه ، لم يحتفل لها بعدة من عدد البلاغة غير
الشجن والتجلد والتسليم للواقع الذي بطلت فيه حيلة
اللسنة والاقلام كما بطلت فيه حيلة العقول والقلوب
نعاه بقلمه فقال :

« فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر
امس ولده الوحيد - عمر يوسف - في الحادية عشرة من
عمره ، بعد مرض قليل الايام كثير الآلام . فالى الله مآبك
يا عمر ، والى الله مآبك أيها الزهر الذي قطفه الموت في
أزكى شذاه

« الى الله مآبك أيها الكبد الذي يمشى على الارض ، ثم
هوى الى حفرة ابدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان
في القلب ، بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره : قلب
والده الحزين وقلب أمه الشكلى . . »

وعاد من تشييع جنازته فكتب الخبر بقلمه وهو يمحو
سطوره بدموعه ، وقال بعد كلمات :

« خرجنا به من الدار التي ولد فيها ، فالفها منذ كان
طفلا يحبوا الى ان صار فتى يمشى بها مشية الخلاء : من
الدار التي كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب الى
الشارع والى المنتزهات تحيط به الخدم ان يصيبه اذى ،
الى ذلك اللحد الضيق الذي لا يستطيع ان يعيش فيه
انسان ساعة من الزمان ولكنه - مع ما به من وحشة
ووحدة - أوسع المنازل بعد الموت وآنسها لمن يلقى الله
طاهرا مثل عمر

« خرجنا به ، لا كما يخرج في عربته الى المدرسة يصحبه
خادمه ، بل محمولا على الاعناق مودعا بجماهير المشيعين ،
في سرير كما تزف العروس مغشى بالحريير الابيض مجللا
بالزهور ، ولكنه كان زفافا محزنا يعلوه جلال الموت خطيبا
يصيح : الصبر اجمل . . والناس يصيحون . سار
مشيعوه جميعا مطرقى الرءوس كأن عليها الطير وتخاف أن
يطير . الا رأسين كانا يتلفتان الى النعش بنظرات الملهوف :
رأس والده الحزين في مقدمة الجنازة ، ورأس والدته الثكلى
في مؤخرتها . . فيهما اربع أعين هامية ، ودونهما قلبان
مستعران ومهجتان زافرتان »

ويشاء القدر لهذه العصامية التي لم تفارقه في تشييع
فلذة كبده ، واعز أهله عليه ، ان تلازمه الى آخريات
حياته ، وان تسلبه كثيرا كما وهبت له كثيرا . . فقصد
صحبتها دفعة الثقة بالنفس في مغامراتها ، فغامر في طلب
الحب كما غامر في طلب الكسب ، فلم تكتب له السعادة
في هذا ولا ذاك ، لانه شقى بالحياة الزوجية التي حسبها
غاية الامل نعمة وشرفا

وشقى بالمال الذي اقتناه فضاع كله بين عشرات الجد
وعشرات الطموح والاقدام . .



من المصادفات التى عرضت لى فى حياتى الصحفية ،
أننى جلست على مكتب على يوسف أياما فى أثناء نيابتى عن
الأستاذ أحمد حافظ عوض الذى كان يتولى رئاسة «المؤيد»
فى تلك الأيام ، وقد دعى الأستاذ أحمد حافظ عوض
لمصاحبة الخديو فى رحلته التى طاف فيها بأقاليم الوجهه
البحرى على سبيل المظاهرة أمام الانجليز ، لانه احس
انهم يفكرون فى خلعه وتعديل نظام الخديوية وولاية العهد
فى الأسرة العلوية ، وقد كانت سفرته الأخيرة من مصر
بعد الطواف بالأقاليم وزيارة الوجهاء والنواب فى مساكنهم
واستقبال الشعب فى المنازل والطرق والتهويل على الدولة
المحتلة بمظاهر الولاء التى أراد أن تحف به قبل رحيله من
الديار ، ولكنه خلع فعلا بعد سفره بثلاثة أشهر ، واحتج
الانجليز لخلعه بانضمامه فى العاصمة التركية الى دول
أوربة الوسطى ، متابعة للدولة العثمانية

وقد عهد الى الأستاذ أحمد حافظ عوض ان أتلقى
رسائله ورسائل وكلاء الصحيفة أثناء تلك الرحلة ،
وأفهمنى انه يعد العدة لتأليف كتاب عنها يقدمه الى
الخديو بعد عودته الى الديار ..

وتقدرون فتضحك الاقدار ! ..

فلا الخديو عاد الى الديار ، ولا عاد إليها كتشنر الذى
رسم الخطة قبل سفره من مصر لتغيير نظام الحكم كله

في هذه البلاد . ولا الكتاب « المنتظر » كتب فيه حرف واحد ، لأننى رفضت العمل فيه ، واستقلت من تحرير « المؤيد » أثناء اشتغال الاستاذ حافظ بجمع الصور والتواريخ لتأليفه وتنسيقه

ومن المصادفات أن يتفق لى الجلوس على ذلك الكرسي ، وأن أكتب على ذلك المكتب الذى لم أكد أفرغ من حملاتى على صاحبه وعلى سياسته أثناء حياته وبعد مماته ، ولا أذكر أننى لقيت فيه صاحبه غير مرة واحدة كانت هى المرة الوحيدة التى حييته فيها لكلام كتبه فى السياسة الوطنية

وكان كثير من الشبان المصريين قد تفرقوا بين الأحزاب السياسية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى ، فمال معظمهم الى جانب الحزب الوطنى لأقتراب السن والتعليم بين مصطفى كامل « الحقوقى » وطلاب مدرسة الحقوق الذين كانوا أكثر الطلاب اشتغالا بالسياسة ، ومالت طائفة منهم الى حزب الأمة وهم فى الغالب أبناء الأسر الذين تألف الحزب من آبائهم وذويهم ، ولم يجنح أحد من الشبان الى حزب الشيخ على يوسف وهو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، لأن خطة الحزب كانت الى « الدبلوماسية » أقرب منها الى السياسة أو الى الدعوة الوطنية ، وكان « المؤيد » يتبع فى كتابته أسلوب الصحافة التى تعتبر لسانا شبيها بالرسمى للقصر والحاشية الخديوية ، وليس هذا الأسلوب بالذى يروق الشاب أو يوافق حماسه الفتية ، ولم يكن الاعراض عن « المؤيد » من جانب واحد لانه اعراض متبادل من الطرفين ، وكان على يوسف يابى على الطلاب ان يشغلوا بغير الدراسة فى سنوات التعليم ، وكان مذهبه أن ينتظر رجال الغد الى أن

يأتيهم غدهم الذي هم رجاله . . أما قبل ذلك فكل ما كان يرتضيه الشيخ منهم ان يدينوا بشرعة الولاء لأمير البلاد وكنت من فريق الشبان القلائل الذين نفروا من الأحزاب منذ اللحظة الأولى ، فلم يكن لي حزب أتعصب له وانتمى اليه ، ولم تكن لي صحيفة أتشيع لسياستها ومنهجها في كتابتها ، ولكنني كنت أفضل « الجريدة » في جانب الثقافة ، وأفضل « اللواء » في شدته على الاحتلال والوزارة ، وأقرأ « المؤيد » لمقالاته الشرقية والإسلامية ، واعتقد أن الخطة المثلى هي خطة « مصر للمصريين » تميزا لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية ، وكان بعضهم يترخص في تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم « حزب المفتي » لأن الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله كان اشهر المعروفين بذلك الرأي في تلك الفترة ، ومعه في ذلك سعد زغلول واحمد لطفى السيد . .

على اننى - في المعارك القلمية - كنت أجد نفسي الى جانب مصطفى كامل كلما نشبت الخصومة الحامية بينه وبين على يوسف . . وكنت اكتب الى اللواء منتصرا له كلما دخلت المعركة في دور من ادوار المساجلة الأدبية ، ومن ذاك ان الشيخ على يوسف كان يكثّر من تلقيب مصطفى كامل بالطائش ، ويتخذ لهذا اللقب شفيعا من حساب الجمل لموافقة مجموع الحروف في كلمة طائش واسم مصطفى كامل بذلك الحساب . ! وكنت يومئذ ادرس حساب الحروف والطوالع فيما كنت أحاوله من فضول الاستطلاع ، فلفقت لعل يوسف لقبا مساويا لاسمه بذلك الحساب ، وهو لقب « نورى » بفتح النون أو ضمها على السواء ، ومعنى نورى بالفتح أنه من شذاذ الآفاق المعروفين باسم النور . . وكان هو متهما بالانتساب اليهم كما كان يقال عنه أنه من

« المسلمانية » الدخلاء من ناحية جده الأول . . وواجهه خصومه في قضية الزوجية بهذه الدعوى أمام القضاء الشرعى، ليثبتوا أنه غير كفء للزواج من بنت « السادات » ويؤيدوا بذلك طلب التفرقة بين الزوجين



ثم حدثت المعركة القلمية التى جمعت الراى العام كله على تعدد الوائله واذواقه فى صف واحد مع الشيخ على يوسف ، والتى سمع فيها صاحب المؤيد هتافا بحياته بعد عشر سنوات مضت. من أيام قضيته التى اشتهرت باسم قضية « التلغرافات » وظل فيها الشيخ على « بطل الساعة » فى حومة الصحافة بضعة شهور ، وقد كان الهتاف بسقوط « المؤيد » وحياة « اللواء » يتكرر ويتواتر فى المظاهرات الشعبية حتى اصبح على حد تعبير الظرفاء من اولاد البلد كليشيهات مسموعة ، وحتى اضطر الشيخ الى التسليم بها وعود الى الشعر لتعزية نفسه ومكايده خصومه ، كلما واجهوه بمظاهرة من مظاهراتها ، فنظم هذين البيتين :

يدعون للواء بالحياة

لأنه يعد فى الأموات

ويهتفون يسقط المؤيد

لأنه نحو السماء يصعد

أما المعركة القلمية التى أعادت الهتاف بانحياة والتحية الى مسمع الشيخ ، فهى معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حول توديع الأورد كرومر بعد خطابه الذى ألقاه على ملا من كبار الموظفين واصحاب المقامات « الرسمية » من المصريين والاجانب والشرقيين ، ولعل

الشيخ على يوسف قد « صعد الى سمائه » في هذا الأفق
لأنه أفق الكتابة « الدبلوماسية » ولأنه استطاع بالأسلوب
« الدبلوماسي » أن يعزل اللورد كرومر وحده في ذلك الموقف
بين مختلف اتجاهات السياسة ، أو استطاع ان يكون
دبلوماسيا وحماسيا الى الغاية في دفاعه عن ولي نعمته
« الخديو عباس الثاني » خصم كرومر اللدود

كتب الشيخ على مقاله في السابع من شهر مايو « ١٩٠٧ »
وهو اليوم التالي لالقاء الخطاب ، فاشترك في التهليل له
والاعجاب به قراء الصحف من كل طائفة وطبقة ومن كل
مشرب ونزعة ، وأهدى اليه « جوهري » كبير محبرة من
الفضة المذهبة ، وازدحمت رحبة « المؤيد » بالمتظاهرين
والهاتفين من الطلاب وجمهرة الشباب . . ومنهم ازهيون ،
ودرعميون ، وحقوقيون ، وموظفون . . وتلقى « المؤيد »
رسائل التأييد ممن لم يكن يؤيده أو يطيف به من قريب
أو بعيد ، فأصبح « المؤيد » لفظا ومعنى ، وكان « أولاد
البلد » يأبون عليه ان يكون كذلك الا بالقاف القاهرية . .
لأنه « يقيد » قلمه بقيود الأمير . .

وفي هذه المعركة كتبت للمؤيد كلمة التأييد التي كنت
في المعارك السابقة اكتبها عليه ، وقلت عن تلك المقالة
الطنانة اننا :

« تلوناها كلمة كلمة وسطرا سطرا ، فكنا كلما قرانا
كلمة ازالنا تأثير لمحة من تلك الخطبة ، وكلما تلونا سطرا
انهزم سطر منها ، حتى جئنا على آخرها ما فكأنما حل ثقل
وارتفع ، أو هام جهام وانقشع ، ولا غرو ان كانت مسهبة
طويلة ما فانها تذيب سبابا كالقار اسود لا يصهر الا على
أشد حرارة النار »

لقيت صاحب المؤيد في مكتبه للمرة الاولى والاخيرة

لاسلامه تلك الكلمة ، فاستقبلني مع رهط من الزوار
والمحررين ، ورأيتله يكتب وهو يحمل الورقة في يده ويلتفت
الى محدثيه لحظة ثم يعود الى ورقته. يسطر فيها كأنه لم
ينقطع عنها ، ثم وضع الورقة على المكتب بعد الفراغ منها ،
وسألني : هل انت طالب ؟ ..

ولم اكن يومئذ طالبا ولا موظفا بل كنت بين طالب
وموظف ، لأنني كنت استعد للعمل بمصلحة التلغراف
وألقى دروسا في الكهرباء والكيمياء بمدرسة الصناعة ،
فقلت : بين طالب وموظف !

فابتسم واستفسرني ، وأوجزت له تفسير هذا العمل
الجامع بين طلب العلم والوظيفة ، وقد نبهته ذكرى
« التلغرافات » على ما يظهر فأقبل على التحدث الى وعاد
يسألني : وما الذي أعجبك في المقال ؟ .. فقلت : أعجبني
المقال كله ، وبخاصة موقع الاستشهاد فيه بهذين البيتين،
وهما من شعر ابي العلاء :

ربما اخرج الحزين جوى الحزن
ن الى غير لائق بالسداد
مثما فانت الصلاة سليما

ن ، فأنحى على رقاب الجياد
فقال وهو يقطع الكلمات : اذن انت طالب .. وموظف
.. واديب ، ووعدني بنشر الكلمة فنشرها بهذا التقديم
« من حضرة الفاضل صاحب الامضاء »

وكان الامضاء « ع.م. العقاد » على عادة التوقيع
بأوائل الحروف في المجلات الاوربية التي كنا نقرأها
وتشاء المعارك القلمية - والحرب سجال كما يقال -
ان يقرأ الشيخ بعد ذلك هذا التوقيع تحت مقال عنه بعيد
جدا من مقالات الثناء والتأييد لأنني كنت أوقع به كتابتي

في صحيفة « الدستور » لصاحبها الاستاذ محمد فريد
وجدى ، وفيها كتبت وصفا مجملا للمظاهرة « العدائية »
التي لقيها الشيخ بدار الجريدة بعد سنة من تاريخ خطاب
اللورد كرومر ، ولها قصة نوجزها فيما يلى :

« شرع المحتلون بعد عهد كرومر في تنفيذ سياستهم
الجديدة التي سميت بسياسة الوفاق بينهم وبين الخديو
عباس ، فكف المؤيد عن انتقادهم ومحاسبتهم ، وتجاوز
المجاملة احيانا الى الرضا والتأييد ، وسرت في الامة يومئذ
حركة قومية تطالب الاحزاب جميعا بتعيين موقفها
من السياسة الجديدة ، فأعلن الأستاذ الجليل - احمد
لطفى السيد - عن خطاب شامل يلقيه بدار « الجريدة » في
شارع غيط العدة ، بيانا لموقف حزب الامة من السياسة
المصرية على العموم « مايو سنة ١٩٠٨ » . . واكتظت دار
الجريدة بمئات من المستمعين بينهم كثير من الطلبة
والشبان ، ونجح الأستاذ الجليل في اجتذاب الاسماع اليه ،
ولكننى سمعت الى جانبى هممة متواصلة في اثناء القاء
الخطاب ، ورأيت خمسة او ستة من الشبان يخرجون
ويعودون معهم قراطيس ملأى بالطماطم والبيض ، ومع
اثنين منهم حمائم يخفيانها تحت سترتيهما ، وهما متحفزان
« وكان المقصود بهذه الحركة كلها ابراهيم الهلباوى بك ،
ولكنها تناولت الشيخ على يوسف اتفقا حسين رآه
الحاضرون في الاجتماع ، ولم يكن منظورا ان يشهده لما بين
حزبه وحزب الامة من الخلاف الشديد . . فما هو الا ان
فرغ الأستاذ لطفى السيد من خطابه حتى انطلقت في جو
المكان تلك الحمائم وانطلق معها هتاف كالرعد بسقوط جلاد
دنشواى . . ثم تلاه الهتاف بسقوط المؤيد وصاحبه او
سقوط سياسة النفاق ، ونال الرجل من قذائف الحاضرين

يومئذ اذى غير قليل . . وقد وصفت الحفلة في صحيفة الدستور فقلت ان مظاهره غيظ العدة نسخت مظاهره قضية التلغرافات ، وان الشعب المصرى اذا كان قد حياى صاحب المؤيد عند الحكم ببراءته في تلك القضية فقد سحب تحيته الاولى بهذه الثورة عليه . .

« ولقيت الشيخ على يوسف مرة اخرى في تلك السنة بفندق شبرد على الأرجح ، حيث اقيمت حفلة توديع لوفد من اعيان البلاد اعتزموا السفر الى لندن لاقتناع وزارة الخارجية بتوسيع نصيب مصر من الحياة النيابية ، وكان هذا الوفد مؤلفا من اسماعيل ابازة باشا ومحمد الشريعى باشا ومحمود سالم بك والسيد حسين القصبى وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك والدكتور ابراهيم الشوربجى وبعض المترجمين والمحربين . . وحضرت هذه الحفلة منتدبا من جريدة «الدستور» ولم تكن راضين عن مخاطبة الانجليز في مسألة الدستور . ولكن الصحيفة نديتني لتسجيل ما اراه في تلك الحفلة او الوليمة على الأصح ، لانها كانت مقصورة على من ذكرنا من الاعيان وبعض الصحفيين ومنهم الشيخ على يوسف عن «المؤيد» وفارس نمر باشا عن «المقطم» وآخرون

« وفي تلك الوليمة بدا لى أن صاحب المؤيد لم ينس كلمتى عنه في التعليق على اجتماع دار الجريدة فسألنى: انت عم العقاد ؟ . . قلت : نعم . . قال : هل بينك وبين السيد حسن موسى العقاد قرابة ؟ . . قلت : هى مشابهة اسماء . . فضحك ضحكة غير خالصة وقال : بل لعلها مشابهة في غير الاسماء أيضا . . وهوى عنى - على ما اعتقدت - ثورة السيد حسن موسى وتمرده ، لأنه كان في أكثر

احواله مغضوبا عليه من المؤيد وشيعته السياسية »

ولا اذكر اننى قابلت الشيخ فى مجلس من المجالس الخاصة غير هذه المقابلات اكثر من مرتين ، يحضرنى فى احدهما حديثه عن الرتبة والنياشين بمكتب أحمد زكى باشا السكرتير العام للمجلس النظار

وكنّا مع زملائنا الصحفيين فى طوفتنا اليومية بين « نظارة » الداخلية ومجلس النظار لتسلم نشرات الاخبار الرسمية التى تطبع فى الدواوين وتوزع على مندوبى الصحف فى مواعييدها اليومية ، وقد نشر فى ذلك اليوم خبر الانعام على أحمد زكى باشا برتبة من رتبة التشريف اظنها الباشوية ، فخطر لنا - نحن زمرة الصحفيين - أن نمر به مهنئين باعتباره زميلا كبيرا فى صناعة القلم ، فوجدنا عنده الشيخ على يوسف يهنئه ويحدثه فى مسألة من مسائل المجلس ، وكان معنا الأستاذ جورج طنوس مندوب « الوطن » لصاحبه جندى ابراهيم ، وكان جورج مشهورا بين زملائه وعارفيه باللجاجة وقلقلة الحديث ، فتطوع للنيابة عنا وافتتح التهنئة مخاطبا للسكرتير العام على النعمة التى كانت مألوفة فى ذلك المقام ، فجعل يقول له بصوته الجمهورى كلاما فى هذا المعنى : « ان الرتبة تزدان بك ولا تزينك ، وان الباشوية لقب يفخر به صاحب العزبة وصاحب الثروة من المال والعقار ، واما صاحب القلم فهو يذكر باسمه - أحمد زكى - وكفى ، وبهذا نناديك أيها الكاتب الكبير ولا تزيد .. »

وقاطعه الشيخ على متمللا ، وتوقعنا أن يقول شيئا يرد به على تهنئة الزميل اللجوج لأكثر من سبب .. فان رجلا يعلم الناس انه لسان حال القصر يأبى له « دوره » السياسي ، ان لم تقل شعوره النفساني ، أن يوصف أمامه

انعام الامير بأنه تحصيل حاصل وناقلة من النوافل التي لا يحفل بها اصحاب الأقلام ، واذا سكت على يوسف - لسان حال الأمير - عن هذا الاستخفاف بألقابه ونعمه فمن العسير أن يسكت عنه على يوسف « موزع » الرتب والنياشين . . . اذ كان للرتب والنياشين موزعون معروفون ببيعونها بأسعارها من رتبة الميرمران الرفيعة بألف جنيه الى رتبة البيكوية من الدرجة الالائية بثلاثمائة او الربعمائة جنيه ، لان بخل عباس الثانى كان يأبى عليه أن يسخو بالأعانة من ماله على كبار الاعوان أو يسخو بها على ادارة الصحف الكبرى كلما احتاجت الى المال الكثير ، وكانت لصغار الصحفيين اعاناتهم من « ميزانية المعية السنية » ومن هبات ديوان الأوقاف . .

اما « المشروعات الصحفية الواسعة » فقد كان المعول في سداد نفقاتها على اثمان الرتب والنياشين ، وكان لها موسمها كل عام في مناسبات الاعياد والمهرجانات الخديوية، فكانت الحصة الاولى من هذا المحصول السنوى للشيخ على يوسف واعوانه في الاسكندرية وعواصم الاقاليم ، وكان سكوت الشيخ عن تهوين شأن هذه « السلعة » على مسمع منه غير معقول ولا منتظر ، ولعل صاحبنا جورج طنوس لم يقل كلمته تلك الا وهو يتعمد اثاره الشيخ واستفزازه للرد عليه ، ولم يمهله الشيخ - فعلا - ان يتم كلامه الى نهاية ثرائته التي لم تكن لها نهاية . فاستوقفه متبرما وقال وهو يخاطبه خطاب من يعرفه ولا يجهل عاداته بين زملائه : « مهلا . . مهلا . . يامعلم . . ان الرتبة تقدير من ولى الامر وتقرير لفضل صاحبها بين من يعرفونه ومن يجهلونهم . وهل ترفضها يا معلم جورج ؟ » . .

ثم التفت الى السكرتير العام فأعاد عليه التهنئة وهو يقول : سيهنتك أصحابنا هؤلاء بمزيد من الرتب الى اعلاها وأرفعها ان شاء الله ! »

أما مقابلات الطريق فقد كانت مركبة الشيخ تصادفنا أحيانا في طريقنا مع أصحابنا من العباسية حيث أسكن الى الحى الحسينى حيث نلتقى بأكثر اخواننا الادباء ، أو الى مقهى عابدين الى جوار مدرسة الحقوق القديمة حيث كنا نلتقى بطائفة من الطلاب الحقوقيين وغير الحقوقيين ، وليست هذه المقابلات العرضية وسيلة من وسائل التعريف تفيدنا كثيرا فى كلام نكتبه عن الشيخ كما عرفناه ، ولكن احدي هذه المقابلات ربما عرفتنا بالشيخ فى خليقة من خلائقة التى أثرت عنه طوال حياته . وهى خليقة « المحافظة » على السمات القديم كما نشأ عليه ، وربما عرفتنا مقابلة أخرى بهوى من أهواء نفسه أو أهواء قلبه التى كادت تشغله كما شغلته المحافظة على شارة السمات والوقار

رأيناه مرة فى طريقه الى قصر عابدين فى يوم من ايام التشريفات فرأينا عجبا من الزياء الرتب المدنية ، لأنه حافظ على العمامة مع كسوة التشريفة التى تؤهلها رتبته الرفيعة ، ولم يشأ أن يغير عمامته كما غيرها الكثيرون ممن يلبسون كسوة الباشوية وكان يبدو وهو جالس كأنه يلبس العمامة على « بدلة الافندية » من لابسى السترة والبنطلون ، وهو زى كان يتزى به فى القاهرة أبناء طائفة واحدة هى طائفة عمال شركة النور الذين كانوا يخرجون الى الشوارع فى المساء يستترتهم الملونة وسراويلهم الافرنجية لاشغال مصابيح النور ، وقد سخر اخواننا الشبان بهذه

المفارقة وتنادروا بها غير قليل ، ولكننى فى الواقع أعجبت بالرجل لهذه المحافظة وهو يتحدى العرف والسخرية ، وأحسست فيها عصامية تأبى أن تفصل مظاهر الألقاب بينها وبين ماضيها ..

ومرة أخرى رأيت الشيخ مع السيد توفيق البكرى قادمين فى مركبة واحدة من قصر السيد بالخرنفش الى ناحية باب الحديد ، فاذا هما فى زى واحد من ملابس النزهة الفضفاضة على غاية من الأناقة التى يقصدها القاصد من لابسى هذا الزى التقليدى فى القاهرة الفاطمية! .. وزاد المشابهة فى لون الكساء وتفصيله وهندامه أن الشيخ والسيد كانا نمطا واحدا فى البنية والقامة وصورة الوجه الدقيق والرأس الصغير ، فكأنما كان الشيخان فى تلك « الطلعة » الأنيقة فتيين من فتيان الحسينية الظرفاء يتبادلان المجاملة بهذه المباراة « الودية » فى معرض من معارض الصبوة .. ولكنها صبوة فى حدود « التقاليد » على سنة « المشيخة » من أئمة الطريق .. وكلا الرجلين كان من أبناء « الطريق » فى مقام الرئيس أو مقام المرشح للرئاسة !

ولا ننسى أن « قضية الزوجية » قد عملت عملها المنتظر فى الاندفاع بالشيخ الى هذه الطلعة العاطفية .

ان السيد البكرى كان طراز القدوة المختارة بين أبناء طبقته وزيه فى الوسامة والقسامة ووجاهة المركب والشارة ، وقد طمح الشيخ الى البناء بأكرم الكرائم من بيت السادة الوفائية ، فهل تطيب نفسها أن تراه ، وتراه أترابها معها ، فى طلعة دون طلعة الطراز المرموق من سلالة السادة البكرية ؟ !

على انها فتنة « عاقلة » لم تجاوز حدودها التقليدية فى نطاق المشيخة كما تقدم ، ولم يسلم حافظ ابراهيم من غلو الشعر حين قال فى وصف تلك الصبوة من الشيخ الكهل الله :

اتاه الغرام بسن الشـسيو

خ فجن جنونا بينت النبى

فان الصبوة لم تخرج الرجل قط عن سمته الذى طبع عليه طبعاً وتكلف ما لم يطبع عليه منه تكلفاً طويلاً ، وما كان لمثل تلك الصبوة أن تنسى الرجل كل ما كان يشغله فى بواكير شبابه الى خاتمة حياته : وهو شاغل « المقام » الملحوظ بين ذوى الشرف الموروث من عليّة السادة وذوى القدر والمهابة ، وربما كان تحفظه المتأصل فيه هو الذى ألزمه ، على غير اختيار منه ، ديدن المحافظة الى حد الاحتجاز ، أو الاحتجاز الى حد الانزواء ، أو الانزواء الى حد الاستكانة التى لم تفارقه بعد ارتفاعه بالجد والجهد معا الى حيث أراد من دنياه

كتب الامير شكيب أرسلان فى عدد يناير من المقتطف (١٩٢٧) فى روايته لبعض ذكرياته عن صاحب المؤيد :

« كنا نجتمع دائماً فى مجلس المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد افندى زغلول المحامى الشهير بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الحلقة اسمه الشيخ على يوسف ، يأتى فيجلس فى الآخر ويلبث أكثر المجلس ساكناً مستمعاً ونكاد نرثى له لضعفه ومسكنته .. »

ولا نستغرب أن يرى « على يوسف الشاب » فى إبان

فقره وانقباضه وخفاء ذكره على سمة توصف بالمسكنة
التي يرثي لها من يراه ، لأن الناظر الى صاحب المؤيد بعد
ارتفاع الشأن وذيوع الصيت كان يستطيع أن يصفه
باستكانة تشبه المسكنة اذا نظر اليه وهو صامت ساكن
بين الجلوس والنظر ، لولا ان الاستكانة صفة لا يوصف
بها المرء وهو يملأ الدنيا بما يقوله وما يقال فيه . . !

وانما هو مزاج أصيل فطر عليه هذا العصامي الناجح
وعرفه من ذات نفسه فعرف ما خلق له وما لم يخلق له
من أول مسعاه ، فلم يضيع جهده عبثا في غير ما يستطيع
انه خلق لكل ما يبلغ المرء بالذكاء والحيطة ولباقة القلم
وحضور خاطر وحسن التفاهم مع القلائل المعدودين : من
النافعين والمنتفعين ، ولم يخلق للسيطرة الغالبة في نجلة
الزحام ولا للعظمة المزهوة بالطنين والخيلاء ، فأنتهى الى
غايته وهو يبدو في زاويته كالقابع المستكين ، لولا أنه يقدر
على خطوط لا يقدر عليها القابع المستكين





صطفی کامل

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وكان عمره ثمانى سنوات عندما احتل الجيش الانجليزى القلعة فى الحى الذى نشأ فيه ..

سنوات ثمان تسمى بحق سنوات الثورة ، ولكنها أحق من ذلك أن تسمى سنوات الخطابة ، لان الثورة قد اشتعلت اشتعالها الاكبر قبل ختامها .. أما الخطابة ففقد كانت فى أوجها عند موالد الزعيم ، وبلغت قمة ذلك الاوج عند دخول جيش الاحتلال ..

كان حى الصليبة الذى ولد فيه الزعيم الخطيب احد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة أجيال ، وكان هذا الحى أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحى الآخر الذى كان ينافسه « الفتوة » على مهد الحملة الفرنسية ، لانه حى القلعة التى كانت مسكن الوالى ثم صارت معسكر الجيش المحتل وبقيت الى جوارها ساحة المحافظين القومية من ركب المحمل الى ركب الولاية بعد مبايعة الامير ، الى ركب العروض العسكرية

وكانت مساجد هذا الحى أعمر المساجد بالخطباء الثوريين ، ولم يكن فى القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الازهر فى تلك الفترة ، وهو فى المكان الاوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الأخرى

كان مصطفى كامل فى الخامسة أو السادسة يوم كان

« عبده الحامولى » يسأل : أين نسمعك هذه الليلة ؟
فكان يجيب مازحا : أنا الليلة سهران مع عبد الله نديم فى
فرح آل فلان ..

ولم يكن « عبد الله نديم » وحده خطيب هذه الحفلات ،
بل كان معه عشرات الخطباء المعتمدين والمطربشين يتداوون
مناير المساجد والاعراس ، ممن لم يشتهروا شهرة عبد الله
نديم .. وكان يصحب أستاذهم الأكبر تلميذه الناشئ
« مصطفى ماهر » فى سن تكبر سن مصطفى كامل ببضع
سنوات : وهو التلميذ الذى قال عنه النديم مرة انه أخطب
من « غلادستون » ، لانه تكلم فى أربعة موضوعات
ونغلادستون لا يحسن أن يتكلم فى أكثر من موضوع !

وانقضت سنوات الصدمة الاولى بعد الاحتلال فى
ركود من حركة الخطابة ، وفى ركود من كل حركة سياسية
أو اجتماعية ، ولكنها كانت بمثابة فترة الانتقال بين اختفاء
الخطباء الاول وظهور الخطباء اللاحقين ، لان مهمة الخطيب
فى عالم السياسة لم تلبث أن تجددت على أشدها وأوسعها
بعد ذهاب الدهشة من قيام الجيش المحتل فى عاصمة
البلاد

وجاء فى هذه الفترة زمن كانت الخطابة فيه أهم من
الكتابة ، وكان الصحفى الذى يحسن أن يتكلم كما يحسن
أن يكتب أقرب الى الميدان من زميل يحسن عمل الصحافة
ولا يحسن عمل المنبر ، ولو كان زميله هذا أقدر على
البيان وأوفر حظا من الفكر والدراية

ويكفى أن نذكر أربعة من أصحاب الصحف اليومية ،
بعد انقضاء عشرين سنة على دخول المحتلين ، كانوا من
الخطباء الكتاب : وهم مصطفى كامل فى « اللواء » ،
وفارس نمر فى « المقطم » ، وجنبدى إبراهيم فى « الوطن » ،

ومحمد أبو شادي في «الظاهر» ، ولم يكن تادرس شنودة
المنقبادي صاحب صحيفة « مصر » خطيباً في طبقة هؤلاء ،
ولكن رئيس تحريره توفيق عزوز كان أقدر المتكلمين على
المنابر بين أبناء الطائفة القبطية مع زميله اخنوخ فانوس
وجندى إبراهيم . وكان على يوسف صاحب « المؤيد »
لا يخطب مرتجلاً ولكن كتاب صحيفته الخطباء لم يكونوا
قليلاً ، وفي مقدمتهم « إبراهيم الهلباوي » كاتب مقالات :
« الى أين نحن مسوقون » . بل لا ننسى أن « احمد
لطفى السيد » رئيس تحرير « الجريدة » - وقد غلبت
عليه شهرة الفلسفة والكتابة - كان من المحامين وكان قبل
ذلك من وكلاء النيابة المبيينين

وتتشابه الاسباب التي أبرزت مهمة الخطابة في البلاد
الشرقية غير مقصورة على الديار المصرية ، ولكننا نذكر
الاسباب التي حفظت للخطابة أهميتها بعد الثورة العربية
في هذه الديار : وأولها قيام المحاكم القصرية ، واشتداد
الحاجة دفعة واحدة الى المحامين ولو لم يدرسوا القانون
بمدارس الحقوق . . ومنها افتتاح الكنائس الانجيلية
وانتداب الخطباء المفوهين من القسوس للوعظ على منابرها
.. وقد عني المسيحيون القبط بمنافسة هؤلاء الخطباء
كما عني المسلمون المعمون والمطربشون ، وأذكر أنني
حضرت أياماً في « قنا » كان « الانبا لوكاش » يعظ فيها
على منبر الكنيسة القبطية ، والقس اسحاق يعظ على
منبر الكنيسة الانجيلية ، والشيوخ الادباء يخطبون في
المساجد ومعهم أشهر المحامين والقضاة الشرعيين ،
وأشهرهم محمد نور أستاذ مكرم عبيد في الخطابة

ولد مصطفى كامل في هذا العصر عصر الخطابة ، وشهد
خطباء حي الصليبة في الخامسة والسادسة . وهي سن

التقليد والمحاكاة ، واستفاد من حى « الصليبية » أول
نفحة من نفحات « الوطنية المحلية » التى كانت مدار
التنافس على بطولة القساهرة بين « فتوة » الحسينية
وفتوة الصليبية ، وربما تعثر بين الحيو والعدو فى احدى
تلك الوقعات التى كانت تنتقل من ساحة الازهر احيانا
الى جوار شيخون أو جوار قيسون . . لانه لم ينس هذه
الحمية « المحلية » بعد أن وصل فى تعليمه الى المدارس
التوجيهية ، وكانت دعوته الاولى أنه دعا الى تأليف جمعية
« الصليبية » فانتظم فيها نحو سبعة من المواطنين
المحليين ، قبل أن يدعو الى تأليف الحزب الوطنى بعدة
سنين . .



رأيت مصطفى كامل لأول مرة وأنا فى الخامسة عشرة ،
أى فى مثل سنه يوم تصدى لقيادة « الوطنية المحلية »
بحى الصليبية . .

كنت ببلدتى اسوان اشتغل مع زملائى باحدى الدعوات
المحلية ، وهى دعوة التطوع للتعليم بالمدارس الاهلية . .
وقد تقدمنا فى هذه الدعوة زميل لنا فى مدرسة اسوان
الاميرلة تخرج قبلنا وانتظم فى وظيفة عسكرية بمصلحة
خفر السواحل : وهو اللواء محمد صالح حرب رئيس
جماعة الشبان المسلمين ، وكان يساعد المدرسة الاهلية
التى تبعتها فى التعليم بها ويتبرع لها بالمال من مرتبه ،
بعد أن حيل بينه وبين التطوع للتدريس فيها . .

وقدم مصطفى كامل الى اسوان فى موسم الشتاء ،
ومعه الأمير جيدر ومدام جوليت آدم وكاتبة انجليزية
من الاحرار تسمى مسز يونج - على ما اذكر - وهم

جميعا في رحلة نيلية ..

وخرج مصطفى كامل ذات صباح يتمشى على شاطئ النيل ومعه الكاتبتان الفرنسية والانجليزية ، فوقفوا عند باب المدرسة الاميرية وسألوا البواب عن « حضرة الناظر » فغاب هنيهة ، وعاد يقول لهم : انه غير موجود !

وذكر مصطفى كامل أن صاحب المدرسة الاهلية - وقد كان يرأس اللواء - قد ادعاه الى زيارتها فقال لصاحبه : مدرسة بمدرسة .. فلنذهب الى المدرسة التي « ناظرها موجود » ..

ودخل غرفة السنة الرابعة وفيها درس اللغة العربية، فجلس مكان التلميذ الذي كان يكتب على اللوحة ، وأملى عليه هذا البيت لأبي العلاء ليعرِّبه ويشرح معناه :

والمرء ما لم تفسد نفعا أقامته

غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجم مصطفى كامل هذا البيت الى اللغة الفرنسية في طلاقة وثقة ، وناقش التلميذ في شرح معناه ، فتلعثم التلميذ ولم يجب بطائل ، فأسعفته معتذرا له بأن الغيم الذي لا يمطر في اسوان ولا يسر نعمة محبوبة ، وان الغيم الممطر وغير الممطر عندنا قليل !

ولاح لي أن « الباشا » لم يسترح لهذا التعقيب ، ولم يتقبل منه الإشارة الى خطئه في اختياره ! وان لم يكن في الامر غير فكاهة تتلاقى فيها التخطئة والتصويب

صورة مصطفى كامل التي بقيت في خلدي مدى الحياة هي الصورة التي انطبعت فيه من أثر هذه الرؤية الاولى .. حركاته كلها كانت تنم على احساسه بدقة تكوينه ،

يبدو ذلك من شموخه وزهوه كما يبدو من طول طربوشه
وارتفاع كعبه ، ومن سترة « البنجور » التى كانت لاتلائم
سنه وهو دون الثلاثين . .

وهذا البيت من قصيدة ابى العلاء - ليس فيه تعريض
بالاجسام التى تسد عين الشمس فتحجب الضياء ولا تجود
بقطرة من الماء ؟

وربما شغلته دقة تكوينه بسمت الوقار ، فلم تسمح
له بمجازاة روح الفكاهة ولا سيما الفكاهة على حسابه ،
والفكاهة التى فيها تخطئة لاختياره

وقد كان من شأن المواقف الاخرى التى اقتربت فيها
من شخص مصطفى كامل أن تؤكد هذه الصورة ولا تمحو
عندى ظلا من ظلالها . .

كنت أحرر صحيفة « الدستور » مع صاحبها الاستاذ
محمد فريد وجدى ، وكان الاستاذ وجدى أحد الاعضاء
الذين دعوا الى تأسيس الحزب الوطنى قبل وفاة مصطفى
كامل ببضعة أشهر ، فلما انتهى رئيس الحزب من عرض
برنامجہ اقترح ارسال تبليغ بالبرق الى وزارة الخارجية
البريطانية لاعلانها بتأليف الحزب الوطنى ومطالبتها بالجلء
فاقره الاعضاء جميعا على اقتراحه ما عدا الاستاذ
« وجدى » الذى كان من رأيه أن يعمم ارسال التبليغ الى
جميع الدول ، دفعا لشبهة « المركز الخاص » الذى تدعيه
بريطانيا العظمى باحتلالها هذه البلاد ، فأبى مصطفى تعديل
اقتراحه وأصر على طلب قبوله بصيغته التى عرضه بها
على الاعضاء ، وكاد ان يقاطع صاحب « الدستور » فلم
يتبادلا الزيارة بعد ذلك . . الى أن توفي مصطفى فخرج
صاحب « الدستور » من قطيعته ورثاه بمقال حزين جعل
عنوانه : « مال اكبر رأس فى مصر . انا لله وانا اليه

وأجعون « . . فلم تزل كلمة « أكبر رأس » تعلق بذاكرتى منذ ذلك اليوم الى أن ذكرتها فى كلمتى عن « الملك أحمد فؤاد » بمجلس النواب : أكبر رأس تحطم الدستور . .

كنت أحرز صحيفة الدستور مع صاحبها كما تقدم ، وكان صاحبها عضواً فى الحزب الوطنى . . والصحيفة لسان من السنة هذا الحزب القليلة فى ذلك الحين بين الصحف اليومية والاسبوعية . . كانت « الدستور » لسان الحزب الثانى و « اللواء » لسانه الاول ، ولكنى لم أشارك فى الحزب بعد اعلان تأليفه كما اشترك فيه زملاؤنا الصحفيون . . ولا يخطر لى الآن ، ولم يخطر لى قبل الآن أن تلك الصورة التى ارتسمت فى ذهنى من لقاء مصطفى كامل للمرة الاولى هى التى أخرجتني عن طالب الاشتراك فى حزبه ، فلم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين الينا فى حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية المصرية يومذاك ، وكنت اتشيع له اذا تشيت المعركة بينه وبين خصومه كما تقدم فى الكلام على الشيخ على يوسف - صاحب « المؤيد » - وبعد أن عرفت من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسى ما لم اكن اعرف أستطيع أن أقول ان اختلاف الطبيعة البعيد قد رسم امامى مثالا للامامة المذهبية غير هذا المثال ، فان مصطفى كامل كان من اصحاب الطبيعة الخطابية الشعورية وكانت الطبيعة الادبية والفكرية أقرب الى وارى بالاتباع ، فضلا عن نفور أصيل عندى من التقيد بالحزبية فى الراى ايا كان مقصدها فى السياسة او الادب او الثقافة على الاجمال

واختلاف الطبيعة هو الذى جعل لى سبيلا فى المسائل القومية غير السبيل التى كان يختارها مصطفى كامل فى

كثير من مواقف العامة ..

فلم يعجبني موقف المصري المتوسل أمام تمثال فرنسا
يناجيها ويناديها :

يا فرنسا يا من رفعت البسلايا
عن شعوب تهتزها ذكراك
انقضى مصر أن مصر بسوء
وارفعى النيل من مهاوى الهلاك

ولم يكن أدب فرنسا ، ولا ما اطلعنا عليه من تاريخ
ثورتها ، داعيا عندنا للثقة بنجدتها واستعدادها لانقاذ
مصر أو سواها ، ولم تكن طبيعتى التى تأبى طلب المعونة
من القادرين عليها كما تأبى طلبها من العاجزين عنها مما
يقنعنى بإمكان التعويل فى قضية الاستقلال على معونة
دولة قط ، من الدول الكبار أو الصغار

ولهذا أيضا لم يعجبني تعليق الاستقلال المصري بالسيادة
العثمانية ، لأننا على عطفنا الدائم على الدولة العثمانية فى
مكافحتها للتعصب الاوروبى لم نكن نفهم أن هذا العطف
ينتهى بجهادنا الى الرضا باستقلال تشرف عليه سيادة
دولة أخرى ، وقد كان مصطفى كامل يمزج كثيرا بين
المصرية والعثمانية حتى فى أحاديثه الخاصة .. كما قال
فى جوابه لسؤال الجنرال « بارنج » شقيق لورد كرومر :
هل أنت مصرى أو عثمانى ؟ فكان جوابه : مصرى عثمانى
وعجب الجنرال بارنج فعاد يسأله : وكيف تجتمع
الجنسيتان ؟

قال مصطفى : ليس فى الامر جنسيتان ، بل فى الحقيقة
جنسية واحدة ، لأن مصر بلد تابع للدولة العلية ، والتابع
لا يختلف عن المتبوع فى شئ من أحكامه

ولقد اوشكت ثورة مصطفى كامل أن تنحصر في الثورة على الاحتلال ، ولا تنظر الى تبديل شيء من النظم السياسية او الاجتماعية . . فلم يكن في نزعات نفسه ، ولو قيس ضعيف من الثورة على المساويء الخديوية ، ولم يختلف في كثير ولا قليل عن أبناء عصره في تعظيم الالقاب الرسمية واعتبارها «انعامات» مشرفة لمن يتلقاها، بل كان على صلة بالقصر الخديوي في التوسط بين طلابها وبين الامير لتوزيعها على من يتطلع اليها ، ولا شك أنه كان انظف الساسة الذين كانوا يومئذ يتوسطون مثل هذه الوساطة ، لأنه كان ينفق منافعها على خدمة الدعوة الوطنية لحاجته الى المال في هذه الدعوة وبخل الخديو بالمال، الكثير أو القليل بغير هذه الوسيلة ، ولكن ايمان مصطفى كامل بشرف هذه الرتب والالقاب ربما كان ادعى الى النقد من وساطته في توزيعها ، فقد بلغ من ايمانه بها أنه لم يصدر « اللواء » يوم جاءه خبر الانعام عليه بالباشوية من دار الخلافة الا بعد تغير « الكلشيه » الذي كان اسمه فيه متبوعا بلقب الباشوية

جاء في الجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا وهو أحد رؤساء الحاشية الخديوية :

« ان الرتب أصبحت كالسلع السهلة ، وكان لهذه التجارة وسطاء كثيرون ، منهم الشيخ على يوسف ، وحسين بك زكى ، وأحمد بك العريس ، وأبراهيم بك المويلحى وهو مقيم بالآستانة يأتى كل شتاء لأخذ بضاعته من مصر ، وأحمد شوقى بك الشاعر ومصطفى كامل الذى كان ينفق ما يأخذه في الدعاية لقضية مصر »

ولا شك فيما قاله صاحب المذكرات من تخصيص مصطفى كامل بين سماسة الرتب والنياشين بالانفاق من

منافعها على الدعاية الوطنية ، ولا سيما الدعاية في العواصم
الاوروبية ، ولكن حرص « الباشا » على الواجهة التي
لا تقل عن وجهة الامراء ربما كلفته هناك أضعاف نفقة
الدعاية

ولم تخف دخائل هذه الاحوال اعلى طائفة الصحفيين ،
والمشتغلين بالسياسة الوطنية ، ولكنها لم تغض من قدر
الزعيم الشاب ، ولم تشكك أحدا في اخلاصه لدعوته
وغيرته على قضية بلاده ، وبلوغه بالشعور الوطنى مبلغ
الهوى الذى يملك على العاشق لبه ويجرد هواه للاوطان
من تقدير الوطن بحساب المبدىء والواجبات أو حساب
المطالب والآمال ، فقد كان مصطفى كامل من أكثر المجاهدين
شفيعا الى قلوب أنصاره وخصومه ، لنزاهة أخطائه جميعا
من شائبة الغرض المتوى والنفاق الذميم



ان الزعامة السياسية لا تخلو من أخطاء في الحياة
العامة أو الحياة الخاصة ، وربما كانت زعامة مصطفى
كامل أقل الزعامات خطأ في أوائل دعوتها ، ولست أذكر
أننى تبينت هذه الأخطاء أو تبينت غيرها من الأخطاء
السياسية بحثا وتفكيرا وامعانا في تحقيق المطالب الوطنية
وتحقيق أساليب العمل لها والوصول اليها .. فان هذا
البحث جهد لا يطيقه عقل صبى فى الخامسة عشرة أو
شباب فيما دون العشرين وهى سننى يوم عملت فى الصحافة
اليومية ، فلا أذكر - اذن - أننى أحجمت عن الاشتراك
فى حزب مصطفى كامل بعد البحث المفصل والموازنة الواعية
بين مقاصد الزعامات السياسية وطرائق الزعماء فى ذلك
الحين ، ولكن الذى أذكره جيدا اننى كنت أقرأ مقالات
مصطفى كامل واسمع خطبه فأحمد له غيرته وأعجب

بصدقه في جهاده ، ولكنني اراني امام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذي اتلقى منه رسالة الفكر والعاطفة وتستجيب اليه بديهتي المتطلعة الى الوعي والمعرفة ، فان ذلك الاسلوب « الخطابي الشعوري » الذي كان له ابلغ الاثر في جمهور مصطفى كامل لم يكن هو ذلك الاسلوب المختار الذي عهدته فيما اطلعت اليه من كلام مقروء أو كلام مسموع

ولعل أشهر الامثلة للاسلوب « الخطابي الشعوري » الذي كان ذريعة التأثير الكبرى في خطب مصطفى كامل قوله في خطبة زيزينيا الكبرى وهي أقوى خطبة وأجرها قبل وفاته اذ يقول :

« بلادى .. بلادى .. لك حبي وقوادى ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ، فانت انت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر .. »
فان هذا الاطناب وما شابهه لا يعطيني ما اتطلبه من الاقناع ولا من العبارة الادبية غن العواطف ، وانما هو أشبه بدقات النفير تتكرر على وتيرة واحدة لتختفظ بأعضاء السامعين في طبقة مشدودة من الانفعال والتنبيه ، سواء كان هذا الانفعال للوطنية أو لغيرها من العقائد الشعبية

واحسب ان قدرة مصطفى كامل على هذا النوع من التأثير كانت تطفئ على كل قدرة خطابية فيه ، ومنها القدرة على الاقناع .. فلم تبلغ قدرته على الاقناع في كلام قرأته له أو سمعته عنه مباحثا يسوقه الى الاعراب عنه أو اعطائه نصيبا من اسباب التأثير الى جانب الحركة الخطابية الشعبية ، واسميتها « الحركة » لأنها في الواقع أقرب الى بواعث الحركة « الارادية » من مجامع الامصاب

ولا يظهر ذلك في الخطب كما يظهر في الاحاديث الخاصة
والمساجلات الشفوية ، فلم يكن مصطفى كامل المتحدث
مقنعا للجنرال « بارنج » حين سألته هذا هل هو مصرى
أو عثمانى ؟ فقال له انه مصرى وعثمانى معا لان التسابع
يشبه المتبوع في أحكامه . . فماذا لو قال له الجنرال :
ولكن التابع لا يحسن به ان يشتهى التبعية وان « يتحمس »
لها ويصر على البقاء . . وقد يحمى من المتبوع ان يستبقى
علاقته بتابعه ولا يحمى من التابع ان يستبقى تلك العلاقة
برضاه . . !

وانه لمن ضعف الاقناع أن يفوت الزعيم الوطنى المتحدث
ان يجيب « بارنج » سائلا : هل أنت انجليزى أو بريطانى ؟
. . فكل جواب لهذا السؤال محرج للمجيب موافق
للمصرى العثمانى من وجهة نظره فى مناقشات السياسة
مع البريطانيين الانجليز

وخلاصة ما بقى فى نفسى من أثر لهذا الزعيم المجاهد
- كما عرفته - أنه كان نعم الزعيم على منهجه وسجيته ،
ولكن زعامته كانت تتسع فى عصره - وبعد عصره - لزعماء
آخرين على مناهجهم وسجاياهم ، لان الوطنية المصرية
كانت تشمل مصطفى كامل بكل ما احتواه من غيرة وحماسة ،
ولكنه رحمه الله لم يكن يستغرق الوطنية المصرية بكل
ما تحتويه أو ينبغى أن تحتويه





محمد فريد

محمد فريد من أكبر أعلام الوطنية المصرية ، بل من
خيرة شهدائها الذين يستحقون التمجيد والتخليد في
صفحاتها الباقية ..

عرفته في أسوان قبل أن ألقاه في القاهرة بسنوات
عديدة ..

عرفته من قضية « المؤيد » التي اشتهرت بقضية
التلغرافات ..

وعرفته من مؤلفاته التاريخية ، لأن كتابه في تاريخ
الدولة العثمانية كان أول كتاب قرأته في تاريخ هذه
الدولة ..

وقد كان في هذا الكتاب مؤرخا واسع المصادر حريصا
على التحقيق ، مع عطف واضح على الدولة وكراهة لاعدائها
وقد كان شأنه في ذلك شأن جميع الشرقيين أو جميع
المسلمين خاصة ، لأن الدولة العثمانية كانت إحدى الدول
القلائل التي بقي لها استقلالها في الشرق ، وكانت إلى
جانب هذا دولة الخلافة الإسلامية ، فكان لها نصيب كبير
من عطف الشرقيين الطامحين إلى استقلالهم ، ومن عطف
المسلمين الذين بايعوا آل عثمان بالخلافة ، بعد زوال
الخلافة العباسية

وهنا موضع ايضاح لا غنى عنه في سياق هذه الفصول
فقد تقدم غير مرة أننا كنا ننكر السيادة العثمانية ونكره
أن يكون الاعتراف بها مبدأ من مبادئ الوطنية المصرية .
فمن الواجب أن نلفت الانظار هنا الى الفارق بين كراهة
الدولة العثمانية وكراهة سيادتها ، وانما كان استقلال
مصر مطلوباً عندنا كاستقلال الدولة العثمانية ، بل كان
استقلال مصر مقدماً بالطلب عندنا على استقلال الدولة
اذا وجبت المقارنة بين المطالبين . .

وأذكر في هذا السياق اننى كنت أعتقد ان تشيبت
الدولة العثمانية بسيادتها على الامم الاخرى يضيع عليها
جهودها في غير طائل ، ويعرضها للمتاعب على غير جدوى
ومن المصادفات العجيبة أن الرأي الذى اخذ به
« مصطفى كمال » زعيم الترك العظيم بعد الحرب العالمية
الاولى في سنة ١٩٢٠ ، كان هو الرأي الذى دعوت اليه
قبل ذلك بثمانى سنوات ، وهو اعتماد الدولة على بلادها
الاسيوية ، واعفاء نفسها من المشكلات والجهود التى
يسوقها اليها الاحتفاظ بالسيادة على امم البلقان . فكتبت
في مجلة « البيان » - سنة ١٩١٢ - مقالا بعنوان « مستقبل
الدولة العثمانية » قلت فيه : « كذلك زلزلت الصدمة
قلوب العثمانيين فيسؤوا من الدنيا ، كأن أوربا هى كل
الدنيا . ولو كانت الدولة العثمانية شجرة لا تنبت الا في
أوربا لحق لهم الا يرجوا منها بعد الآن ثمرا . ولكنها
شرقية المنبت ، وهذه أرومتها لا تزال في الشرق ، وما هذه
الولايات الاوربية الا فروع منها لا يميته انفصالها منها .
وقد كان يمكن أن يدور التاريخ دورة غير التى دارها فلا
تتحول أنظار محمد الفاتح البتة الى القسطنطينية . . »

وهذا رأينا القديم في مسألة السيادة العثمانية على
الامم الاجنبية ، فأحرى به ان يكون هو رأينا الاقدم في
مسألة السيادة على هذه البلاد

لقد كتبت اومن بهذه العقيدة وانا أشد ما اكون غيرة
على الدولة العثمانية واهتماما بماضيها وحاضرها
ومستقبلها ، ومن أجل ذلك شغلت نفسي بقراءة مئات
الصفحات في ذلك التاريخ وأنا لا أعدوالرابعة عشرة ، ومن
أجله كتبت ما كتبت عن مستقبلها لأنه - على ما اعتقدت
- هو المستقبل الوطيد الذي تستقر فيه على السلاسل المنعة
والتقدم والسلام

وجئت الى القاهرة وأنا أسمع اسم « محمد فريد »
الوطني المخلص ، ولا أنسى اسم « محمد فريد » العالم
المؤرخ !

ولقيته مرات في المجتمعات الكبيرة والمجتمعات الصغيرة،
ولكنى لم أتحدث اليه في مجلس خاص غير مرة واحدة
وكان ذلك في مكتب صحيفة « الدستور » ..

كان هذا المكتب في منزل بدرب الجماميز الى جوار
ديوان المعارف العمومية

وكان الدور الارضى منه مخصصا للمطبعة ، والدور
الثانى على قسمين : أحدهما مسكن الاستاذالجيل محمد
فريد وجدى بك صاحبالدستور ، والآخر مكتبالتحرير
والادارة ..

وكان الاستاذ وجدى بك يؤثرالكتابة في مسكنه ، وقلما
يجلس في مكتبه الا لاستقبال زائر أو مراجعة عمل من
الاعمال الصحفية . واذا ب «محمد فريدبك» يحضرالى الدار
ذات يوم على غير موعد ، فجلست معه أتحدث اليه ريثما

يرتدى الاستاذ وجدى بك ويحضر للقائه . .

ولست أذكر تاريخ اليوم على التحقيق ، ولكنى أذكر
أنه كان بعد أوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ لأن حديثى مع
« سعد » رحمه الله كان مدار الكلام فى تلك الفترة ، وقد
جرى حديثى مع « سعد » حوالى ذلك التاريخ ، وكان أول
حديث لصحفى مصرى مع أحد الوزراء المصريين

إقال « فريد بك » رحمه الله بعد أن عرفنى ! « أنك
لتحفظ لجارك فى درب الجماميز حق الجوار »
ففهمت ما أراد ، وقلت : « وهو حقيق بحفظ الجوار »

ثم انتقل الكلام الى تعليم اللغة العربية ، فقلت : ان
تحويل التعليم من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية فى
جميع مراحل التعليم لا يتأتى فى شهر واحد ولا فى سنة
واحدة ، لانه خطوة لابد أن تسبقها خطوة أخرى من تخريج
المعلمين وتأليف الكتب أو ترجمتها

ووافق ما قلت أن سعدا قد أمر فى تلك السنة نفسها
بتعيين المتخرجين من مدرسة المعلمين للتدريس فى المدارس
الثانوية ، والابتداء بالتعليم باللغة العربية فى السنة الأولى
من تلك المدارس ، ثم فى السنة الثانية .

ولاح لى أن « فريد بك » لا يصبر كثيراً على قوله فى هذا
الموضوع ، ويحيل فيه الى ما يذكره الشيخ عبد العزيز
جاویش

ثم حضر الاستاذ وجدى واستأذنت فى الذهاب الى
مكتبى ، وانصرف فريد بك بعد قليل

تلاحقت الضربات على ذلك الزعيم الكريم وذهب
الاضطهاد الظالم بشروته العريضة ، وهى تقدر يومئذ
بمئات الالوف

وغادر الرجل القطر ليستطيع العمل فى حرية وطلاقة ،
واستقر به المطاف فى عاصمة الدولة العثمانية
وهنا تتجلى بطولة « فريد » ..

لقد كان « فريد » يناصر الدولة العثمانية وهو فى غنى
عنها ، ولعلها هى التى كانت فى حاجة الى مناصرته ...
وكان رأيه فى علاقة مصر بالدولة العثمانية ذلك الرأى
الذى أعلنه حزبه فى تقريره عن حوادث سنة ١٩٠٧ ، وهو
أولا « استقلال مصر كما قرره معاهدة لوندرة فى عام ١٨٤٠
وضمنته الفرمانات السلطانية ، ذلك الاستقلال الضامن
عرش مصر لعائلة محمد على ، والضامن للاستقلال
الداخلى للبلاد »

وهو أخيرا « بذل الجهد لتقوية علاقة المحبة والارتباط
والتعلق التام بين مصر والدولة العلية »

ولقد غادر « فريد » وطنه والعداء بينه وبين الخديو
عباس على أشد ما يكون العداء . وقد علم وهو فى الآستانة
أن العسكرين من رجال الدولة يقصدون بالحملة على
مصر فى اثناء الحرب العالمية الأولى أن يغيروا نظام الحكم
فى البلاد المصرية ويتعرضوا لحقوقها وحقوق عرشها ..
علم هذا وهو فى قبضة أيديهم ، ولعله فى حاجة ماسة الى
كل معونة منهم ، ولا ملاذ له من غضبهم فى مصر لانها
موصدة أمامه ، ولا فى أوربا لانها تضطرب بأحوال الحرب
فى كل بقعة من بقاعها ، فلم يحفل بشيء مما يصيبه من
جراغ غضبهم ، وراح يعلنهم باستنكاره لخطتهم واحتجاجه
عليهم ، وعلق فى عروة كسائه شعار « مصر للمصريين »
وقد كان أبغض شعار الى القائمين بالامر فى الآستانة
يومذاك !

حدثنى صديقى الفاضل الدكتور حسين همت بك - وهو

ممن شهد تلك الايام فى الآستانة - ان طلعت باشا أخطر
رجال الدولة التركية فى عهده - كان يمتعض كلما لمح ذلك
الشعار الذى يحملة فريد وصحبه ، وكان يعجب لانهم
ينكرون على الترك حكم مصر ، وانهم ليتكلمون التركية خيرا
مما يتكلمها أهل الآستانة !

ومع هذا ظل فريد وصحبه يحملون شعارهم ، ويعلنون
استنكارهم حتى تعذر عليه البقاء فى العاصمة التركية ،
فهجروها الى أوربا ليتنقل بين ربوعها على غير هدى ، ويشقى
بتلك المعيشة الضنك فى ظلمات تلك الغاشية العالمية ، بغير
أمل وبغير عزاء ..

نعم المثل للوطنية الصادقة ذلك الشهيد الكريم ..
رحمه الله ، وخلص ذكره ..





مصطفى لطفي المنفلوطي

في فترة من تاريخ ثقافتنا ، وفي أيام لا تتجاوز أيام الحرب العالمية الأولى ، كان السائل يسأل : من أكتب الكتاب في لغتنا العربية ؟ فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة : انهما اثنان : الشيخ علي يوسف والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى !.

وربما حرص المجيب على تقديم لقب الشيخ على الاسم ، خلافا للعادة في تداول أسماء المشهورين ..

وكانت عصبية لا شك فيها ، قد نسميها بالعصبية الأخوية ، أو العصبية المحلية ، أو العصبية الفخرية ، ولكنها - بأى الأوصاف وصفناها - وزنة لازمة لتصحيح التقدير في موازين الأدب والأدباء ، فلا تصح هذه الموازين ولا تعرف الحقائق التى كمنت زمنا وراء أسباب الاقبال والأعراض على مدارس الكتابة عندنا بغير الوقوف على معنى تلك العصبية

ونسأل : ما معناها ؟

فلا نستطيع أن نقول انها عصبية بين المعممين والمطربشين ، لأن السيد توفيق البكرى والشيخ عبد العزيز جاويز والشيخ حفى ناصف قبل ذلك كانوا من المعممين ، ولكنهم لم يحسبوا فى عداد الزهرة التى تجنح اليها تلك العصبية وتخصها بالتنويه والتفضيل

كذلك لا نستطيع ان نقول انها عصبية السابق الى موضوع الكتابة المختارة ، فان المويلحى الكبير والمويلحى الصغير قد سبقا معا الى الكتابة فى موضوع المقالة الانشائية

والمقامة الادبية ، وكتب كلاهما فى الصحف السياسية كما كتب على يوسف دائما وكما كتب المنفلوطى أحيانا، ولكنهما لم يحسبا فى عداد تلك الزمرة ، ولم يسمع لكتاب « عيسى ابن هشام ذكر بين نماذج الانشاء التى اختارها للتلاميذ مدرسو اللغة العربية كما اختاروا مقالات « النظرات » و « العبرات » و « المختارات » و « مجدولين » و « فى سبيل التاج » ، وكل كتاب ألفه المنفلوطى أو ترجمه بمعونة غيره

ولم تكن العصبية عصبية المعهد الذى انتمى اليه على يوسف والمنفلوطى، لأنهما أزهران لم يتما التعليم الأزهرى والمدرسون الذين يزكونهما فى دروس الانشاء أو يتشيعون لهما فى « الحزبية الادبية » أكثرهم من خريجى دار العلوم، وبينهم وبين اخوانهم الأزهريين منافسة لا تخفى

انما كانت تلك العصبية فى حقيقتها عصبية المعرفة باللغة الاجنبية والجهل بها ، فهى لا تشمل المطلع على لغة أجنبية ولو كان من أصلاء المعممين كالسيد توفيق البكرى ، وهى لا تستثنى أحدا يجهلها ولو كان من غير المعهد الذى ينتمى اليه المعجبون . . . وقد لحق بالكاتبين المعممين كاتب مطربش كان له سهمه فى هذه العصبية لأنه لم يحصل من اللغات قسطا يعتمد عليه فى المطالعة والكتابة ، وهو مصطفى صادق الرافعى خريج المدرسة الابتدائية وربيب الأسرة « المشيخية »

وقد كانت « العصبية اللغوية » لا تخلو من ناحيتها الفكاهية كما هو الشأن فى كل عصبية من قبيلها ، ولكن اصحابها لم ينفردوا بهذه الناحية الفكاهية ، لانهم كانوا يقابلون من الطرف الآخر بثأحية تضارعها أو تزيد عليها فى نزعتها المضحكة ، اذ كان « المتفرنجون » يومئذ يزهون

برطانتهم المستعارة زهو الحديث النعمة أو زهو الغنى
الذى نسميه « غنى الحرب » وأن كان غناه من غيرها ،
وقد كان بعض هؤلاء المتفرنجين ينسى لغته - لغة الأم
كما يقال - فى عرض الخطاب فيلوى لسانه بالكلام الدارج
فى الانجليزية او الفرنسية ، كأنه يجهل ما يقابله باللغة
العربية الفصيحة أو العامية

وكان المعنيون بالادب منهم يبالغون فى اشتراطهم تعلم
اللغات لتكوين ملكة الكتابة حتى خلطوا بين القدرة على
الكتابة وبين القدرة على توسيع موضوعاتها وتصحيح
معلوماتها واختيار مناسباتها العصرية بعد مناسباتها
التقليدية ، وما زالت العصبيتان على انفراج بعيد فى الزاوية
الى ما قبل الحرب العالمية الثانية بقليل ، ثم أخذت هذه
الفرجة شيئاً فشيئاً فى الاقتراب حتى التقى الخطان أو
كادا قبيل هذه الأيام ، لأن دارسى العربية عرفوا اللغات
الأجنبية وتعلموها واطلعوا على ثقافتها وعلى المترجم من
روائعها ، ودرس « المتفرنجون » آداب شعرائنا وكتابنا
الذين سبقوا أيام الحضارة الفرنجية وتقدموها ، فكفكفوا
من غلوائهم الأولى وعلموا أن ملكة الكتابة قد توجد على
احسنها وأبلغها عند اديب لا يعرف كلمة من اللغات
الأوربية



وذاث يوم من أيام الحرب العالمية الأولى ، والزاوية
المنفرجة آخذة فى التلاقى والاقتراب، شاعت أزمة الصحافة
المعطلة اوالمقيدة أن اشتغل بالتعليم، ناظرا للمدرسة المؤاساة
الاسلامية ومدرسا للادب والترجمة ، ثم مدرسا بالمدرسة
الاعدادية الثانوية فمدرسة وادى النيل الثانوية
وعلى صفحات كراسة الانشاء التقيت بالاسلوب

المنفلوطى لأول مرة ، وعنيت بنقده لأول مرة فى دروس
التعليم ، قبل عنايتى بنقده فى مجال الثقافة الواسع بوضع
سنوات

كانت الوصية الأولى لطالب « الانشاء » عند أساتذة
اللغة العربية باجماع الآراء : اقرا كتب المنفلوطى واكتب
على منواله

وكانت موضوعات الانشاء كلها تنتهى بالبكاء على بطل
من الأبطال المألوفين فى النظرات والعبرات ، وهم كلهم أناس
يكون ويبكى عليهم لأنهم مخذولون منكسرون أو مضيعون فى ذمم
اللثام وقرناء السوء ، وقل منهم من هو مسئول عن خيبته
أو قادر على انصاف نفسه والاقتصاص لها ممن يجنى عليه ،
وكان من ديدن التلاميذ اذا كان الموضوع فى غير هذه
الأغراض أن ينحرفوا به الى عبارة محفوظة يستطردون
بعدها الى مناسبة للبكاء والشكوى يسردونها أحيانا
بكلماتها المسطورة فى القصة أو المقال

فى ذلك العهد كنت أناهز الخامسة والعشرين ، وكانت
قراءتى المفضلة فى فلسفة الحياة موزعة بين فكرتين تجتمع
حولهما جملة الأفكار عن المثل الأعلى للشباب الناظر الى
مكانه من الدنيا ومن الناس : وهما فكرة « السوبرمان »
للفيلسوف الالماني فردريك نيتشه ، وفكرة البطولة أو
عبادة البطولة لتوماس كارليل فيلسوف البريطان الأيقوسيين
الذى كان بعض أبناء وطنه يلقبونه بالأيقوسى « المتجر من »
لأن كتابته عن الأدب الالماني كانت أكثر وأقرب الى الإعجاب
من كتابته عن أدب بلاده

وقد كتبت عن نيتشه مقالا فى مجلة « البيان » قبل
الحرب العالمية لعله كان أحد المقالات الثلاث أو الأربع
الأولى التى كتبت عنه باللغة العربية وتحدثنا كثيرا مع

الشيخ البرقوقي صاحب « البيان » عن كتاب « الأبطال » فلم يهدأ حتى عهد إلى زميلنا الكبير « محمد السباعي » بترجمته والابتداء به قبل سائر الكتب المختارة للترجمة والتلخيص في برنامج المجلة

ونشبت الحرب العالمية الأولى بعد قليل ، فلم يكن لقراء الأدب الغربي يومئذ حديث في غير فلسفة « نيتشه » داعية القوة والعظمة عند الألمان ومحرك القوم في رأى بعض النقاد إلى الحرب والمغامرة في سبيل السيادة على العالمين ولم أكن قط مؤمنا بفلسفة نيتشه ، ولا معجبا بسوبرمانه على صفته المترددة بين أشتات أقواله ودعواته ، فقد كان مثال القوة المحبوبة عندي ذلك البطل القوى الذي يعطى الضعفاء من قوته ولا يأخذ من ضعفهم لنفسه ، مجتمعين كانوا أو متفرقين

ولم يكن بطل كارليل كذلك مثلى الأعلى في تقدير العظماء وإنما كان النفور من استكانة الضعف عندي أقوى من الإعجاب بسطوة البطولة ، ما لم تكن بطولة فداء وزجر للطغاة من الأبطال ، وقد حفزني التفكير اللاعج في هذه المسألة - أثناء السنة الأولى من سنوات الحرب - إلى تأليف رسالتي عن « مجمع الأحياء » للموازنة بين فلسفة القوة وفلسفة السوبرمان وفلسفة المثل الأخلاقية العليا ، وجعلت ذلك على السنة الحيوان من الثعلب والقرد والحمامة والأسد وابن آدم وبنت حواء إلى ختام الرسالة بخطاب الطبيعة ، وفي خطاب القسرد أقول عن الخير أمام القوة :

وبحسب الخير أنه منذ اهتدى إليه الناس تراجعت القسوة وتمردت النفوس على شريعتها ، فأصبح أقوى الأقوياء لا يجروا على الاعتداء والجور باسم القوة العمياء ، إلا أن يتمحل لها المماذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل ، فبطل القول القديم : اعمل ما تستطيع .

وخلفه القول الجديد : اعمل ما يحق لك عمله ، وعامل الناس بماتحب
 أن يعاملوك به . . . ولست أعنى أن القوة العمياء قد خضعت للحق
 كل الخضوع ودانت له في الصفائر والكبائر فهذا مالا يدعيه الحق
 وما ينبغي للحق أن يدعى ماليس له ، ولكن عنيت أن الناس لا يسلّمون
 اليوم بظلمها وإن اضطروا إلى الخضوع لها ، ولا تقتنع ضمايرهم
 بشريعتها وإن لم تكن لهم حيلة في تبديلها ، وباضیعة المسالم أن
 سلّموا ، وبأسوء المنقلب أن اقتنعوا . . . إذ ليس وراء ذلك إلا أن
 يسترخى الأقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء ، وينزل الضعفاء عن الحياة
 بنزولهم عن الرجاء ، فتتعدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء
 وينهار سلم النشوء والارتقاء ، إلى حضيض الموت والفناء ، فاذكروا
 يا قوم - أقوياءكم وضعفاءكم - أن التسليم للقوة الفاشمة يفسد
 القوى منكم والضعيف ، وأنه لأشء يشرف التسليم له الأقوياء كما
 يشرف الضعفاء غير الحق ، فاتخذوه لكم قبلة واماماً ، واجعلوه لكم
 صاحباً ولزماً ، واذكروا أن العالم لم يسلك طريق هذه الآداب وله
 ندحة عن سلوكها ، ولم يلجأ إليها وفي وسعه الاستغناء عنها ، لأن
 الطبيعة لا تملك الخيار بين طريقين . . . »

ولقد بلغ بى الأشمئزاز من الاستكانة للضعف مبلغ
 النفور الحسى مما لا يطاق النظر إليه بالاعين أو لا يطاق
 شمه بالانوف ، وبعض ذلك ظاهر من القصيدة التى
 نظمته خلال الحرب العالمية وقلت فيها أوجه الخطاب إلى
 الشباب الضعفاء :

نحسوا وجوهكم عنى فقد سئمت
 نفسى المقابر فى أسلاخ أحياء
 فى كل دار شباب ينهضون بها
 إلى العلاء بين جيران وأعمداء
 لا يحفلون أماشوا وهى ناجية
 أم أصبحوا طى أرماس وأحناء
 يعلو بهم ذكر من بادوا ومن لحقوا
 وأنتم عار آباء وأبناء
 أنسكم بشر ؟ أنى برئت اذن
 من آدم حين يدمونى وحسواء

ويتصور القارىء « معلم انشاء » يعالج فى طويته كل

هذا النفور الشائر على أعراض الاستكانة والخور ، ثم يرى أمامه - عند جمعه لأول محصول من محاصيل الكراسات الانشائية - تلا من تلك الكراسات لا تخلو أحداها من ميزاب دمع أو مأثم شجوا وإنين ؟

لقد كانت « مظاهرة » ضعف لم أجد ما أقابلها به غير مظاهرة سخرية تصلح لها، أوجاها إلى منظر حجرة المطبخ التي تطل عليها الفرقة المدرسية وفيها خزين اللوازم المدخرة لأعداد الطعام من البصل والثوم والأرز والدقيق وما إليها، وكانت المدرسة الأعدادية التي اشتغلت بالتعليم فيها مع صديقي المازني مدرسة « نصف داخلية » . أتى أنها تقدم طعام الغداء للطلبة ولمن يشاء من المدرسين مع خصم ثمن الوجبات آخر الشهر من المرتب وعليه الزيادة من حساب القهوة أو الشاي أو الأشربة الصيفية واستدعيت الطباخ إلى الغرفة ، وسألته سؤال العارف كما يقال : أعندك بصل صعيدى حار ؟

قال الرجل مستغربا : كل البصل الذى عندنا من الصعيد ، ومن الصنف الجيد ، والغالب عليه أنه حار شديد الحرارة !.

قلت : حسن . . هذا ما نريد ، فإذا جاءك أحد من تلاميذ هذه الفرقة فاعطه ما يطلب من هذا الصنف ، ولا تتركه يفارقك حتى تذيقه الكفاية منه لسيل الدموع . . مقدار منديل أو منديلين ، وقدم الحساب - باسمي - إلى ضابط المدرسة السيد عبدالحميد . .

وكان السيد عبدالحميد هذا من أطرف الضباط الذين عرفناهم في المدارس الثانوية ، وهو الذى كنا نسأله عند الحضور صباحا : هل دق الجرس الثانى ؟ فيجيب وهو جاد لا يتسهم : من زمان يا استاذ . . قبل الأول ! . .

وانصرف الرجل وهو لا يصدق اذنيه ، حتى واجهته بالضابط الظريف وافهمت هذا سر « المظاهرة » فتممها من فنونه المعهودة ، ومنها ان البصل لازم للعمل فى حصة الانشاء . . ومنها ان المطبخ قد أصبح ملحقا بالعمل فى دروس هذا الأستاذ . . الى آخر ما اخترعته بديهته التى لم تكن تخذله فى مثل هذا المقام

والتفت الى الطلبة قائلا : من كان منكم يخزن فى عينيه فائضا من الدمع فالبصل اولى بمهمة تصريفه من كراسة الانشاء ! .



ولا يحسبني القارئ العصرى الحديث اننى بالفت فى شعورى بافراط المنفلوطى فى البكاء او بافراط فئة من شباب تلك الآونة فى البعومة والفتور ، فاننى لم اقل عن دموع المنفلوطى الا بعض ما رثاه به شوقي وهو يقول من أبيات كثيرة :

من شوه الدنيا اليك فلم تجد
فى الملك غير معذبين جياع
ابكل عين فية ، او وجهه، ترى
لمحات دمع او رسوم دماغ ؟

أما الشباب الناعم فقد كان موضوعا مألوفاً مطروقا بين موضوعات التمثيل الفكاهى والاحاديث المسرحية « المنولوجات » . . وكان أشهر الممثلين المغنين سلامة حجازى يخصصهم بغير قليل من نغماته ، واحداها قصيدة الدكتور شادوى التى نظمها بعنوان : « فتى العصر » وقال فى مطلعها :

بالله قل لى يا فتى العصر ماذا تركت لربة الخدر

فلم تكن سورة « السوبرمانية » ولا البطولة المعبودة هي التي كانت تحضرني حين رأيت الكراسات أمامي تفيض بكلمات « النظرات » و « العبرات » ، وبعضها منقول بحروفه من مقالات هذا الكتاب أو ذاك

وقد عرفت أسلوب المنفلوطي في الصحف قبل التقائي بأسلوبه المنقول في كراسات الانشاء ، ولكنني كنت أتناوله من جانب المطالعة الأدبية العامة ولم أنظر الى الجانب « التربوي » ولا شعرت بالاتصال بينه وبين غاشية الضعف عند ناشئتنا قبل أن أشهد هذا الأثر في أكبر معاهد التعليم « الأهلبي » في تلك الآونة



وسرعان ما وصلت قصة الدموع والبصل الى السيد المنفلوطي من طريق المطبخ أو طريق الفرقة أو طريق الضابط الظريف . . فقد أشار اليها في أول لقاء بيننا بعد ذلك بالمكتبة التجارية ، ولم اكن القاه كثيرا في المجالس الخاصة ولا اذكر انني لقيتة في مجلس خاص غير مرة أو مرتين ببنت الامة ، ولكنني كنت اشترى اكثر كتب العربية من المكتبة التجارية فألقاه هناك بين حين وآخر ، ويجري بيننا الحديث كثيرا في المسائل العامة وقليل في المسائل الادبية والثقافية . . وفي هذه المرة لقيتة يوقع على بعض الأوراق ، فقال لي بلباقته « البلدية » التي اشتهرت عنه: بسم الله . . أو « بسم اللا » باللهجة الدارجة ، وهي كما يعلم القراء دعوة الى الطعام

فقلت له سائلا : « بسم اللا » في التوقيع فقط أو في قبض الفلوس ؟!

فعاد يقول بتلك اللهجة البلدية ايضا : الحكاية لا تستحق

« مش قد المقام » .. انها أرخص من « البصل ! »
قلت مجاريا له في سياقه : ولعله أحلى من العسل على
حد نداء الإخوان في منفلوط ..

ولاح لى في المناقشة الوجيزة التى جرت بينى وبينه ،
على أثر ذلك ، أننى لم أنفذ منه الى موضع اقناع فى كل
ما ذكرته عن ادب الشكاية أو ادب البكاء ، وايقنت أنه غير
قابل للتحويل عن الشعور التقليدى بأن العاطفة هى الرقة
وان الرقة هى البكاء ، وكل ما سمعته منه حول هذا المعنى
يتلخص فى أنه يسأل الله أن يلهمه اعطاء الرحمة حقها
واعطاء البأس حقه ، ولعله عنى بذلك تصويره للعاشق
المبارز فى قصة « ماجدولين » وتصويره للبطل المغامر فى
قصة « فى سبيل التاج » ، ووصاياه الحصنة فيما كتب عن
القضية الوطنية ، وهو غير قليل بتوقيع منه أحيانا وبغير
توقيع

وكانت أيام الاعياد مجتمعا الادباء بمجلس الزعيم الكبير
سعد زغلول ، فلقيت المنفلوطى مرة من هذه المرات ومعنا
جعفر ولى باشا - وزير الحربية يومئذ - وهو كثير الاطلاع
على منظوم العرب ومنثورها ، وأساتذة لاعرفهم ، فجرى
الحديث عن أساليب بعض الكتاب فقال سعد : اننى
أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فاذا هى جمل
مفهومة لا بأس بها فى الصياغة ، ولكنى اتبع هذه الجمل
الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ولا أعرف مكان
أحداها مما تقدمها او لحق بها .. فلعل هؤلاء الكتاب
يبيعون بالمفرق « بالقطاعى » ولا يبيعون بالجملة !

قال الشيخ المنفلوطى : يغلب يا باشا ان يشيع هذا

الأسلوب بين الصحفيين الذين يكلفون ملء الفراغ ، ولا
تيسر لهم المادة في كل موضوع

فابتسم الباشا وقال للشيخ : « انك يا أستاذ تتكلم عن
الصحفيين وهنا واحد منهم ! » ثم التفت الى وقال : « ما
رأيك يا فلان ؟ »

قلت : « هو ما يقول الشيخ المنفلوطي مع استدراك
طفيف .. »

قال : « ما هو ؟ »

قلت : ان هذا الأسلوب هو أسلوب كل من تصدى لملء
فراغ لا يستطيع ملؤه سواء كتب في الصحافة أو في غير
الصحافة

وعاد الشيخ المنفلوطي فقال : « ان العقاد لا يحسب
من الصحفيين لأنه من الأدباء »

قال الباشا : « أو كذلك ؟ »

ثم تفضل بوصف موجز لكاتب هذه السطور ليس من
حقنا ان نروييه

ولسنا نريد أن نخصر الأدب المنفلوطي كله في تلك
الزاوية التي تلاقينا لديها على كراسيات الانشاء ، فهكذا
عرفناه ويعرفه غيرنا اذا لقينه من هنا وعلى يمينه « سيوبرمان »
نيتشه و « بطل » كارليل ، وعلى يساره قضية تربوية في
ابان أزمته

ولكن المنفلوطي في غير هذه الزاوية ، يعرف إمكاناته
الادبية العامة .. فلا يعرف له نظير بين اعلام الأدباء
الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده الى ما بعد
وفاته ، فليس بين أدبائنا النثرين من استطاع ان يقرب
بين أسلوب الانشاء واسلوب الكتابة كما استطاع صاحب

«المنظرات» و «العبرات» ، فربما ذهب القصد في الكتابة
بجمال الانشاء في اساليب الناثريين المجيدين ، وربما ذهب
الاسلوب «الانشائي» الجميل بالمعنى المقصود في كتابة أدباء
الفكر والتعبير ، ولكن المنفلوطي - قبل غيره - هو الذي
قارب بين الجمال والصحة على نسقته الفصيح في سهولة
لفظ ووضوح معنى وسلاسة نغم ، وهو لا يبلغ مبالغ
التبرج بالصقل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك
المتقشف في مسبوح النساء ، وليس لدروس الانشاء
نموذج اصلي من هذا النموذج من وجهته الفنية ، وعن أدبه
هذا اقول في بعض فصول «المراجعات» :

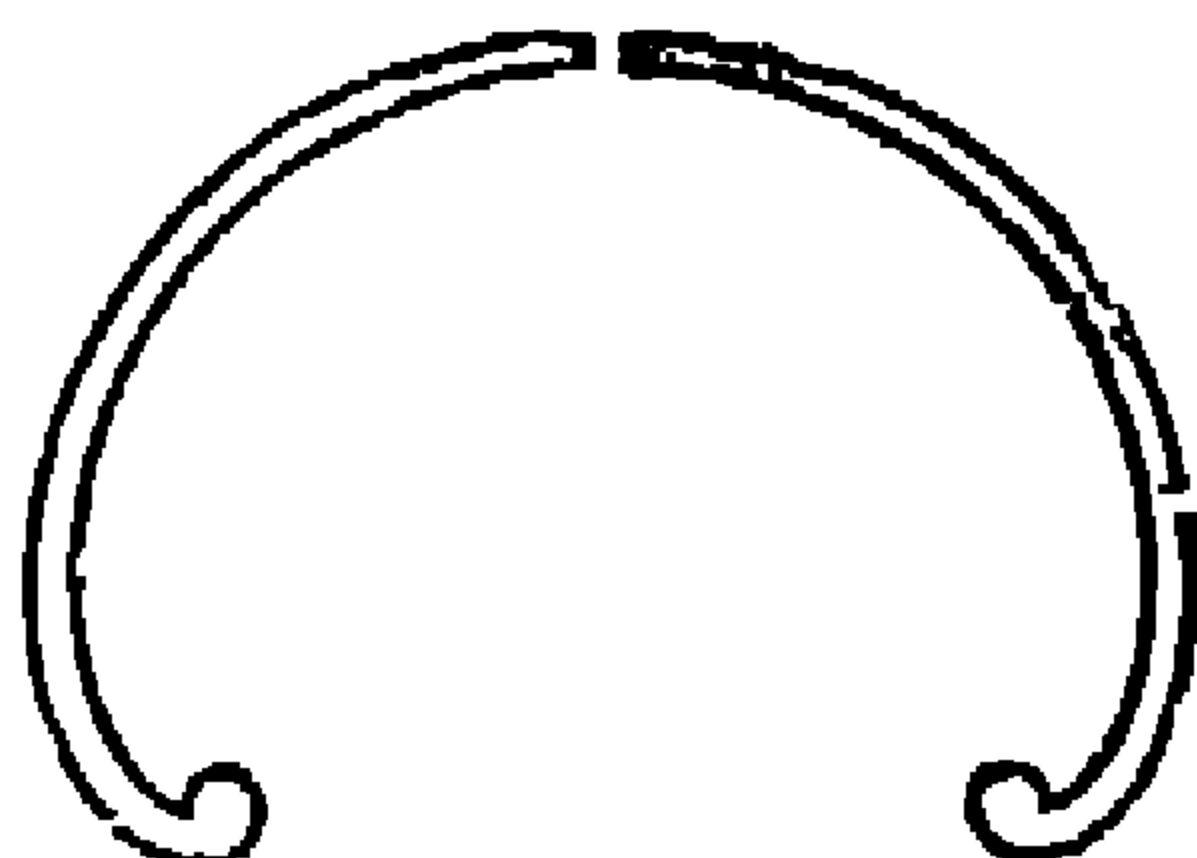
« انه احد الذين ادخلوا المعنى والقصد في الانشاء العربي ، بعد
ان ذهب منه كل معنى وضل به الكتابون عن كل قصد .. وكانت
الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل في كل رسالة .. وكانت
اغراض الكتابة كخطيب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة
القائها ..

وقد اطلعت على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطي للفن وما كتب
بغير كلفة ، فكان لكتابته على كلا النمطين المتباعدين طابع الرائد
المجاهد في امثال هذه الرسالة : رسالة التقريب بين حفاوة الانشاء
ورخصة الخطاب واضراح الكلفة .

ويتمثل طابع الرائد في تباعد الشقة بين موضع الحفاوة وموضع
الرخصة مما يكتب للفن وما يكتب الخاصة امره .. فكان المنفلوطي
« يدبج » مقالاته الفنية فلا يفوته موضع العناية بكل كلمة وكل
فاصلة ، وكان يكتب رسائله لصحبه - ومنهم المتعلمون بل المعلمون -
فلا يبالي ان ترد فيها امثال هذه التعبيرات الدارجة : « فيدوني
تلفرافيا » او « مرسول لحضرتكم » او « تأملوا الاسطوانات حتى
لا تكون مستعملة ثم ارسلوها في البوسطة .. » او « فهموها ان ترسل
شهادة المدرسة المتخرجة فيها » .. او « اهديك سلامي » او
« تلامذك بخير يسلمن عليك وارجو تبليغ سلامي لحضرات الافاضل
اخوانك المعلمين .. »

وكلها من شواهد النظر الى الكتابة الفنية كأنما هي كتابة «الاستعداد
والحفاوة» وما عدا ذلك من كتابة الاغراض الخاصة قرخصة العرف
فيها أولى من كلفة الاستعداد ، أو كلفة « السمعة والحشمة ! »

وتعيد الينا قدرة المنفلوطى على تبسيط الأسلوب
الجميل كلمة « أناتول فرانس » التى يقول فيها : « أن
البساطة الجميلة هى القدرة على اخفاء الجهد والكلفة ،
وأن النور الابيض بسيط فى النظر ولكنه أوفر الألوان
تركيبا لأنه « توليفة من جميع الألوان »





محمد الموحی

كانت للحياة الادبية فى القرن الماضى مؤامراتها ودراساتها
التي تشبه المؤامرات والدسائس فى حياة القصور الملكية ،
والضوابط ان مؤامرات الادب ودراساته كانت فى باطن
أمرها فرعا من فروع المؤامرات المعهودة فى كل بحاشية
ملكية ، لان الادباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية
الامير ، وكان للقصر اشياء ودعاة بين اصحاب الاقلام كما
كانت له خصوصاته معهم على حسب الظروف والعلاقات
التي تتغير بينهم جميعا من حين الى حين ، وربما كان
حامل قلم عونا على حامل قلم آخر مرضاة للسياسة او
مرضاة للمنافسة المعهودة بين ابناء الصناعة

وكان لمحمد المويلحي صاحب « عيسى بن هشام »
نصيب واف من مؤامرات القصور ، ولعله استحقها بقدم
الصلة بين أسرته ، وبين الاسرة الخديوية من عهد
مؤسسها محمد على الكبير ، وقد عاش أبوه ابراهيم فى
معمان سياسة القصور بين عابدين بالقاهرة وبلدز
بالأستانة ، وكان صاحب القلم الوحيد الذى اضطجبه
الخديو اسماعيل الى منفاه ، سفيراً له فى علاقاته بعد
المنفى بالسلطان عبد الحميد

ولم يسلم المويلحيان معا من مؤامرات عابدين ، ولم
يسلم عابدين ولا بلدز معا من مؤامرات المويلحي الكبير
على الخصوص ، وكان حامل القلم الذى اختارته حاشية
عابدين للنكايه بالمويلحين صحفيا من اقرب الناس اليهما
واشدهم اعجابا بهما ومحاكاة لهما فى أسلوبه ، وهبوا
صاحب « الصاعقة » احمد فؤاد ، وما كان يرجو لصاعقته

حظا في ميدان الصحافة أعظم من مقارنة « مصباح الشرق »
صحيفة المويلحيين في هذا الميدان

وقد كانت وقبيلة « أحمد فؤاد » بالمويلحي الكبير أوانا
لا تحصى من الشائعات والاراجيف و « القفشات » التي
كان ينشرها على الاندية والقهوات ، وكانت وقبيلته الكبرى
بالمويلحي الصغير أنه كان يجرده من ملكة الكتابة الادبية
ويزعم ان « عيسى بن هشام » من قلم ابيه ، وأنه كان
يرى مسودات المقالات بخطه في مطبعة المصباح ! . وكانت
وقبيلته بأبيه أنه طامع في امارة الشعر بقصر الامير

اما المويلحي ابراهيم ، فكان اكثر من تد « لأحمد فؤاد »
في ألوان الوقيلة ، اذ كان يفل الحديد بالحديد . . ويكيل
لتلميذه المتمرد بالكيل الذي يكيل به ذلك التلميذ ، ويزيد
وقد سكت عنه حتى أوهمه « الصلح والرضا » ثم أوفده
برسالة الى الاستانة من تلك الرسائل التي كانت تغدق
الهيل والهيلمان على حاملها بين عابدين ويلدز وبين يلدز
وعابدين ، ثم بادر فأبلغ الخبر الى مدير « الشحنة »
بالاستانة فتلقى هذا صاحبنا أحمد فؤاد على « اسكلة
الميتاء » وانتزع منه أوراقه انتزاعا ، فإذا هي سبيله الى
السجن بدلا من دار الضيافة ! .

واما المويلحي محمد ، فقد كان على مشابهته لإبيه في
كثير من خصاله أقرب الى عزلة التصوف وترفع الوجاهة
والامارة ، فلم يكن يعنيه من أحاديث أحمد فؤاد وأمثاله
الا أن يعقب عليها بنكتة لاذعة أو سنخرية واسعة ، ونسبها
بالسنخرية الواسعة لأنها كانت تتسبع حتى تشمل السنخرية
بالشبهة الادبية نفسها . . فماذا لو لم يكن المويلحي الصغير
كاتب عيسى بن هشام او كاتباً على الاطلاق ؟ ذلك خطب
هين كما كان المويلحي الصغير يقول ، ولم يكن في الواقع

يبالغ في تكلف السخرية بالشهرة الادبية ، لانه كان يرتضى
لنفسه منزلة أحب اليه وأرفع عنده من منزلة الأديب
الصحفى المشهور ، وهى منزلة الوجيه الحكيم العزوف
عن الدنيا والناس

ولقد شاعت وقية أحمد فؤاد فى حينها ، فلم نكد
نسمع احدا يتكلم عن « حديث عيسى » الا وهو يتقبلها
أو يتساءل متشككا : أحقا كتبه المويلحى الصغير ولم يكتبه
له أبوه ؟

وكنا نحن نعلم من اخبار « محمد المويلحى » أنه أوفر
اطلاعا من أبيه . . . وندرك الفارق البعيد بين ملكته الادبية
الناقدة وملكة أبيه المرتجلة ، ونعرف خلال سطور مدي
اطلاعه على كتب اليونان وكتب الأوربيين المتأخرين ، مما
توفر عليه ولم يتوفر عليه أبوه من قبله . . . ولا بعد اشتراكه
معه فى حياته الادبية ، فكنا نعجب لشيوع تلك الوقية
ولا نستطيع أن نفسره بغير هوى النفوس لاستماع الوشائيات
والاغترار فى تفرقتهم بين ملكة الاب وملكة الابن بالتفرقة
بين اسم المويلحى الكبير ، والمويلحى الصغير .

ولكننا لقينا صاحب « عيسى بن هشام » بعد العلم
به من طريق المطالعة وطريق السماع ، فعرفنا سببا
أدعى من ذلك السبب لرواج الوقية التى اذاعها صاحب
« الصاعقة » ، فقد كان « محمد المويلحى » أصدق مثل
رأيناه لقول القائل : « سماعك بالمعبدى خير من أن تراه »
.. حتى كنا نروى المثل بعد ذلك : « سماعك بالمويلحى خير
من أن تراه » وقد نزيد عليه المويلحى الصغير توكيدا
لنسخة الجديدة من ذلك المثل القديم !

كان صديقنا المازنى يقول عن مشهور من مشاهير الشرق
الحديث بغير حق : انك لا تحتاج الى أكثر من خمس دقائق

في محادثته لتنزل به الى مكانه من الاحتقار

والمويلحي الصغير تراه خمس دقائق ، فلا تحتقره ولا تشعر من سمته ورصانته أنه قابل للاحتقار . . ولكنك تقدر له ماشئت من الصناعات الموقرة غير صناعة القلم او صناعة الكتابة الفنية ، فاذا تكلم زادك ايمانا بأنه من ابعد خلق الله عن الكتابة ، ولا سيما كتابة اللباقة الفكاهية، لانه يتعثر في كلامه وتعرضه فأفأة قد تطول حتى تضطره الى اختتام الكلام والاشاحة بوجهه علامة الضجر من الحديث أو الرغبة في السكوت ، وانما هو استحياء من تلك العشرات التي تعرضه احيانا خلال الحديث

رأيته أول مرة - كما رأيته آخر مرة - بكساء « البونجور » الذي لا يغيره في الشتاء ولا في الصيف ، وان غيره من لون الى لون ومن نسيج الى نسيج . .

ورأيته بعد المقابلة الاولى أسابيع متوالية لم أكن أسمع منه خلالها غير الكلمات التي يفوه بها رئيس العمل وهو يوقع الاوراق الرسمية أو يعيدها للمراجعة والاستيفاء ، ولكنني كنت في كل مقابلة من تلك المقابلات القصار أخرج من مكتبه وقد ازددت علما بسرعة خاطره وسداد ملاحظته وقدرته على ايجاز القول والكتابة بما يفيد على البديهة ، بغير كلفة ولا اطالة روية

لقيت « محمد المويلحي » لأول مرة في ديوان الاوقاف وهو يومئذ مدير قسم الادارة ، ويتبعه تحرير مجلس الديوان الاعلى ومجلسه الآخر الذي كان يسمى بمجلس الادارة أو المجلس الاداري ، ومن أقلامه قلم « السكرتارية » وهو يومئذ ندوة المنشئين والمترجمين والادباء والمحربين ، يعملون « رسميا » في اعداد المذكرات التي ترفع الى

المجلستين وتهذيب أسلوبها وتصحيح لغتها ، ولا يفرغ منهم لهذا العمل في الواقع غير اثنين أو ثلاثة ، مع الاستعانة - قليلا أو كثيرا - بمعارف الأدباء اللغوية ، إذا التبس عليهم الأمر في ضحة كلمة أو سلامة أسلوب ، وقد كان في قلم السكرتارية من المنشئين والشعراء والمترجمين والمستغلين بالأدب والتحرير رهط منظور إليه في الديوان كله من طراز عبد العزيز البشري ، وعبد الحلیم المصري ، وأحمد الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن الدرس ، وأمين الدولة ، ومحمد فكري ، وغيرهم فئة قليلة من الكتاب الديوانيين غير معروفين بين أكثر الموظفين ، وغير هؤلاء رهط آخر في الديوان ولكن في غير قلم السكرتارية ، نذكر منهم صديقنا الشاعرين المجيدين على شوقى ومحمود عماد

وكانت كتابتي الأدبية - السياسية - طريقى إلى وظائف الديوان ، والفضل في ذلك لخصلة من خصال الفضول المحمود عند صديقنا الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة « البيان » طيب الله ثراه . . . كان من دأبه أن يطمئن إلى تحرير مجلته بإهدائها إلى شيوخ الأدب والصحافة وسؤالهم عن موضوعاتها كلما زارهم أو زاروه في مكتب المجلة ، وكان ممن يسألهم في ذلك حافظ عوض ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد المولى ، وهو قليل الزيارة ، لا زار فى غدير مكتبه بالديوان . . فلاحظ حافظ عوض أن اسم الكتاب الذى أترجم بعض فصوله لا يطابق أضلة باللغة الانجليزية وهو « الأكاذيب المتفق عليها ، فى مدينتنا » والمجلة تذكره باسم « الأكاذيب المقررة فى مدينتنا الحاضرة »

فزاد انتقاده من ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ، لا تبنى ترجمت العنوان كما ذكره الأستاذ حافظ ، ولكنه هو

اقترح تسجيل العنوان لانه اجمل بعناوين الكتب ، فلما جاءه النقد من بعيد - وهو على عادته سريع التصديق - قال لي انه لن يرفض رأيا لي مطاوعة لرأى السجعة بعد الآن .. !

وكنت أسمع من البرقوقي غير مرة انه يحفل برأى مصطفى صادق الرافعي في البلاغة العربية ، ولكنه لا يحفل به ، بل يرفضه ، في أذواق الادب الحديث ومباحثه الفكرية ، وقد أنحى الرافعي على « ماكس نوردو » صاحب الكتاب وعلى كاتب هذه السطور مترجم فصوله فكانت هذه الشهادة المعكوسة خيرا من الثناء في تقدير الشيخ

ثم سأل المويلحي - وهو يعلم عنه كثرة الاطلاع على امثال هذه المؤلفات باللغات الاوربية - فعاد المويلحي يسأله : بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شيء !

قال : اتراه يعيش على شيء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ اننى لا أنتمى الى السيد حسن موسى العقاد المشهور ، واننى اعيش بالقليل مما يردنى من اهلى وبالقليل من أجور المقالات او فصول الكتب المترجمة ، فقال المويلحي مبتسما : انه اولى بالوظيفة من أكثر « التنابلة » عندنا ، فشجعنى ماسمعت على طلب الوظيفة في الديوان ، فطلبتها فأجيب طلبى لساعته ، بغير امتحان وبدأت العمل فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية وهى وظيفة من اخطر وظائف الديوان فى تلك الفترة ، قبيل تحويل الديوان الى وزارة ذات « ميزانية » ملحقه بميزانية الدولة

وتتابعت المناسبات التى كانت تدعونى الى مراجعة

« المدير » في بعض الأوراق ، فلا اذكر اننى سمعت منه حديثا غير الذى يصدر من « مدير الادارة » وهو يملئ توقعياته ويوجه مراءوسيه ، الا مرة واحدة كان الحديث فيها دائرا بينه وبين بعض زواره حول مسألة تتصل بالسياسة وطلب الدستور ، فجرى ذكر الفيلسوف « هربرت سبنسر » وعلمت من اشارته الوجيزة اليه انه كان على المام بكتابته عن « الانسان والدولة »

على أن الاحاديث اتى تتعاقب عن مسائل فنية تتعلق بتحرير المذكرات واملاء التوقعيات لاتخلو بطبيعتها من دلالة على مبلغ اقتدار الرئيس الادارى في فن الكتابة الادبيية ، وكل ما استحضره اليوم من اشارات المدير المجملية ، وتصحيحاته العاجلة ، وتوقعياته المبرمة ، أنها من ايحاء « معلم » في صناعة القلم على هيئة وفي غير كلفة ولا مشقة . . فكان على اناته في الحديث يملئ التوقيع المصحح للعبارة الرسمية فلا يتوقف في الاملاء ، ولا ينسى ضرورة التوفيق بين العرف الديوانى وبين العبارة العربية الفصيحة ولا يبدو عليه انه ينتقل من الارتجال الى الروية وهو يمضى في املائه على من حوله . . وقد يتعدد هذا الاملاء في وقت واحد

ومما روجع فيه حكمه الفنى - والديوانى معا - كلمة طال عليها الخلاف بين انصار العرف الديوانى وانصار الابتكار والتجديد في اساليب الموظفين . . فقد كان المألوف بعد اقرار المذكرة أن تذييل بكلمات قليلة لاتتغير لتوقيع المدير عليها ، وهى : « محول على مجلس الادارة » ، أو « محول على المجلس الاعلى ! » . .

وخطر لاديب من ادباء السكرتارية ان يخرج على هذه الوتيرة حبا للتصرف الذى يليق بأمثاله وانفة من « التقليد » الذى يلتزمه الموظف العتيق ! فذيل المذكرات المعروضة

على الجلسة كلها بكلمة « محال على المجلس » ولم يذكر صفته اكتفاء بعنوان الديباجة . . واحتكم المختلفون الى المدير ، فكانت احدى الفتاوى التى ظهر فيها صاحب « عيسى بن هشام » من وراء صاحب العزة البيك المدير قال المولى الحى : الحق اننى لا ارى صيغة « التحويل » الا ذكرت محطة باب الحديد ، وذكرت « محولجى » الرصيف !

ولا بأس بصيغة « محال » بدلا من صيغة « التحويل » فهي صحيحة مليحة . . ولكن يخشى اذا قيل « محال على المجلس » ان يفهم المجلس انها مستحيلة عليه . . وتبتعد هذه الشبهة اذا قيل « محال اليه » .
ثم سأل : ولماذا لا يذكر اسم المجلس الذى تحال اليه ؟

فقال صاحب التعديل : لانه معروف من ديباجة العنوان

فحكمت « النكتة » حكمها على صاحب « عيسى بن هشام » وقال للاديب المتحذلق : وهل تكتب على ظرف الجواب « ملحق بما تقدم » بدلا من العنوان السابق فيما تقدم من الجوابات ؟ . . ان الوثائق الرسمية لا تعرف الملل من التكرار ، فاكتبوا اسم المجلس كاملا فى ذيل كل مذكرة ولا « تدوشونا » بمشكلة « محلول ومحال » فى جلسة اخرى فلا خرج من تكرار صحيح فى امثال هذه الاوراق !

وربما لمحنا صاحب « عيسى بن هشام » قبل صاحب العزة المدير فى هذه الملاحظة الديوانية ، فمنها نلمح ذوقه فى اجتناب ما يتحرى اجتنابه من الكلمات المطروقة ،

وتلك على الأكثر كلمات اللغة الفصحى التى تسرى الى اللهجة العامية فتجرى على السنة الناس مجرى العبارات التى يختلط فيها الابتذال بالافصح ، ثم تتلبس - مع تداعى الخواطر - بكلمات معلقة بأحاديث السوق أو احاديث اصناعة اليومية ، واطهرها هنا مادة التحول الفصحى التى « تحولت » مع الاستخدام الحديث الى تحويلة الرصيف والى اقافية « المحوألجى » على حد التفسير الدارج بين « شخصيات » عيسى بن هشام

وانك لترجع الى كتابات محمد المويلحى ، فلا تلبث أن تلاحظ اذا التفت الى هذه العادة القلمية عنده انه اقل كتاب عصره اساعة للكلمات المطروقة من هذا القبيل الا على سبيل التكتة والدعابة .. وقد كانت هذه الكلمات المطروقة تتخلل المقالات فى عصره بالعشرات والمئات ، ولكنك تحسبها فى كتابات المويلحى فلا تراها تزيد على أصابع اليدين .. وقد تعمدت أن اراجعها فى كتابه « علاج النفس » ، وهو فى أكثر من مائتى صفحة ، فوجدت منها قوله : « انصرفهم بكليتهم نحو المستقبل » ، او قوله : « فترى الواحد منا اذا اضطجع فوق فراشه » ، او قوله : « ان الفضل فيها بينهم ليس للشخص » الى عبارات كهذه لا يخطر للقارئ أنها من قبيل اللفظ الدارج المطروق الا اذا علم انها قد سلكت سبيلها الى الشارع والسوق

وربما كان الابتذال ابغض شئ الى الرجل فى كل خصلة من خصاله ، وفى كل شاغل من شواغل حياته ، فمن مراقبتى لمسلكه المطبوع قرابة سنتين استطيع أن أفهم انه كان - كما تقدم - يرتضى لنفسه سمًا واحدا لا يعلوه عنده سميت يظهر به الانسان بين الناس ، وذلك هو سميت السرى الحكيم الغزوف عن مواطن الزحام ،

فهو عنده أعز وأكرم من سمت الرئيس الملقب والاديب المشهور ، وهو في طبيعته وراثته قد زادها تمكنا منه انه لم يرث من أبيه طلاقة اللسان التي كانت تحبب اليه غشيان المجلس او مناوشة المجلساء بالكلام كما كان يناوشهم بالقلم على صفحات الاوراق

وروى عن أبيه انه مر بـدكان تاجر كبير - وهو راكب- فحياه فلم ينهض لرد تحيته ودعوته الى النزول لديه ، فمضى قليلا ثم عاد الى التاجر يسأله عما عنده من فناجين القهوة حتى عرض عليه التاجر فنجانا ثمنه عشرة مليمات فألقاه من يده على الارض فانكسر ، وناول التاجر قرشا وهو يقول ويهم بالانصراف : ان من يقيمه ويقعده قرش لا يحق له ان يترفع عن رد التحية على كائن من كان

وقد كان عزوف محمد اشد من عزوف أبيه ، وكان يلزم داره شهورا لا يفارقها اذا صفرت يده من المال الذي يجارى به أقرانه في مجال الانفاق خارج الدار ، واستقال من وظيفته بديوان الاوقاف بعد اعلان الحرب العالمية الاولى - وهو لا يستغنى عن مرتب وظيفته - لانه احس أن أعوان السلطان الجديد يغضون من قدره ولا يعاملونه بما هو أهله ، وعكف على داره بقية حياته لا يبرحها الا لرياضة أو عمل يلجئه الى الخروج

وفي اعتقادنا ان هذه الانفة انما كانت وليدة اعتزازه بنسبه وعقله قبل اعتزازه بأدبه وعلمه ، وأن مواجهة أقرانه بهذه الانفة قد أصبحت عذته الكبرى لحفظ مكانته بالكرامة الملحوظة ، بعد أن زالت ثروة البيت التي كانت تغنيه - لو بقيت - عن احضار هذه المناظرة في ذهنه ، بين أناس من ذوى البيوتات اقدر منه على مظهر البذخ والجاه

وأشد ما تكون هذه المناظرة حين يتنافس أبناء
« الذوات » من الطبقتين المتقاربتين في ذلك العهد : طبقة
« الذوات » أبناء العرب ، وطبقة الذوات « أبناء الترك »
أو طبقة الوجاهة « البلدية » وطبقة الوجاهة « ألا تركة »
.. فانك لا تقلب صفحتين من حديث « عيسى بن هشام »
الا لمست فيها هواه من أبناء البلد وسخريته - بل
استجهاله واستحماقه - لنفخة الذوات من الطبقة الاخرى،
وهو لا يعفى أبناء البلد من دعابته وغمزه ، ولكنه يداعبهم
ويغمزهم كما يفعل أبناء الاسرة الواحدة في مناوشات
الدار بغير زراية ولا تقمة ، وعلى غير هذا النحو كان منحاه
إذا كتب عن الآخرين

بل نحسب انه لم يكن يألف موضوعا للكتابة الا ما
يخصب من موضوعات الناقد المترفع أو المشرف المتبسط
في ساعات فراغه ، فكل ما كتبه في « حديث عيسى بن
هشام » فهو نظرات الى الدنيا والناس من هذه الشرفة
المطلّة عليها واعليهم ، وكل ما اتخذه من أدوار هذا النقد
الاجتماعي ، فانما هو دور « فرجة » لا دور صناعة
قلمية ، مهما يبلغ من شأنها فما بلغ في عرف مناظريه من
ذوات « ألا تركة » أن تقارن منزلة الوجاهة والرئاسة

وهذه العصبية بين « ذوات » البلد وذوات « ألا تركة »
هي التي ضمته مع أسرته جميعا الى معسكر الشوار
وابعدته عن معسكر « الخديو » وأعوانه من الجراكسة
وخدام الدولة ، وقد كان بيت المويلحي أقرب الى بيت
محمد علي منذ قيامه في الحكم من أكثر البيوتات الوطنية
ولما فرغ من نشر « عيسى بن هشام » لم يعمد الى
اتمامه و « تقفيله » كما يقال في اصطلاح التأليف ..
ولكنه عمدا الى موضوع آخر من موضوعات الحكمة

والتهذيب تليق بتلك الشرفه التي يستوى عليها الناقد الاجتماعي . . فآلف كتابه « علاج النفس » الذي طبع بعد وفاته ، وساقه مساق الواعظ الحكيم للمتأدب المستمع ، وان كان قد تطف في تقديمه فقال انه ليس « في منزلة أوامر الطبيب للمريض بل في منزلة دواء مجرب من مريض الى مريض ومن عاجز مستزيد الى طالب مستفيد »

ولا نرى أن الامر في لياذه بتلك « الشرفه » كان امر وجاهة وسمعة وكفى ، فانه كان في لبابه اقرب الى قداسة الدين لما فيه من حفظ امانة الانتساب الى خاتم النبيين وسيد المرسلين ، اذ كان بيت المويلىحى ينتسب الى الحسين رضى الله عنه ، وكانت له بهذا النسب سيادة مرعية في بلاد العرب ، وولاية على محلة «المويلىح» لا ينساها خلفاؤه الأدباء في عهد المناظرة والمنازعة بين سلالة العرب الاقدمين ، وسلالة الترك المحدثين

ان المويلىحى الصغير قد أصبح اكبر المويلىحيين في العصر الحاضر ، وانما يذكر « بحديث عيسى » وقلما يذكر بكتابه الاخر عن « علاج النفس » ، وهو على هذا طبقة في بابها لا تقصر على طبقة عيسى بن هشام في بابها ، ولكن مزية هذا أنه فاتحة منفردة في الادب العربى الحديث تذكر بها حقبة كاملة سجلها فأبدع في صدق تسجيله وحسن تمثيله ، وكان فيها الكفاية لذكر كاتبها بين الرعيل الاول من رواد عصره وما بعد عصره من عصور الآداب العربية المقبلة ، وسيظل هذا الكتاب نموذجا يقتدى به من يطلب التجديد ، ويتعلم الابتداء به على نهجه القويم . فهو مثال من النقد الاجتماعى يضارع ابلغ المثل في الآداب الاوربية المعاصرة ، ولكن المؤلف لم يقطعه مبتورا من جذوره بموطنه ليفرسه

غريباً بين مواطن الضاد على غير منبته . . بل تناول جلدور
المقامة العربية فأقامه عليها وأحسن تناولها وأقامتها لفظاً
ومعنى ، فهو مقامة يرتضيها « بديع الزمان » ومنهج من
النقد العصري يرتضيه « سويفت » و « لى هنت »
و « هاينى » و « أناتول فرانس »





في حديثنا عن محمد المويلحي صاحب عيسى بن هشام ،
أشرنا الى دسائس الادب ، بل ودسائس القصر ، في عصره
... وقلنا :

« أن مؤامرات الادب ودسائسه كانت في باطن امرها
فرعا من فروع المؤامرات المعهودة في كل حاشية ملكية ،
لان الادباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية
الامير »

واتفق أن نشرت احدى المجلات الادبية قبل كتابة
الحديث - في باب « الفكر والأدب قبل ستين سنة »
- نبذتين منقولتين عن صحيفة « مصباح الشرق »
وصحيفة « الصاعقة » لهما اتصال وثيق بتلك المؤامرات ،
وفيهما دلالة على محور المؤامرات التي كانت تدبر في
القصر وتتصل بالكتاب والادباء ممن تحدثنا عنهم ، وهم
على يوسف ، ومصطفى كامل ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ،
والبكرى ، ومحمد المويلحي ، ولا يستطيع ناقد خالى
الذهن مما وراء تراجمهم من خفايا القصور أن يفهم
طبيعة الحملات الادبية والمناوشات القلمية ، فضلا عن
حملات السياسة ومناوشاتها التي يشتركون فيها ، ومن
هنا وجب أن نكشف النقاب عما وراء تاريخ الادب من
تاريخ القصر في تلك الفترة

جاء في النبذة التي نقلت عن « مصباح الشرق » بعنوان

حادثة دراكتوس :

« اشتغل صاحب المؤيد طول الاسبوع بالكتابة عن حادثة دراكتوس فكتب ما يلي : « ساءنا أن أحد أبناء الذوات المشهورين بالذكاء والنباهة قد استعمل الشدة والقسوة مع محرر إحدى الجرائد الاسبوعية المشهورة بحسن الكتابة والتوقيع ، والنسبايع في الانتقادات الشخصية ، فضربه على خده وصفعه على قفصاه .. ولا صحة لما قيل من أنه جره بيده من اذنه بلا جريرة ولا ذنب سوى أن المضروب رحب بالضارب عند دخوله حانة دراكتوس قائلا مازحا : أهلا بالفتان او الفتان » ثم عقب محرر « المصباح » على ذلك قائلا :

« ثم كتب - المؤيد - غير ذلك في عدد ٥ نوفمبر ما يضيق المقام عن نقله لطوله .. وقد حدثت لنا حادثة كنا نظنها من الأمور الخاصة . أنا محمد المويلحي أقر وأعترف بأنني كنت في دكان دراكتوس عشية يوم السبت ٢٥ من شهر أكتوبر مع جماعة من الاصحاب ، وبينما أنا جالس اذ دخل محمد بك نشأت وقال لي : بونسوار مويلحي ! فأجبتته كهادتي معه مازحا : أهلا بالفتنى ! وهى تعريب الكلمة التى يطلقها عليه أصحابه بالفرنسية Petit interegant فما كان منه إلا أن ضربني بكفسه على وجهي فلم أتحرك من مكاني ولم تتغير جلستى ، وقلت له : ما زدت أن فعلت ما يمكن لاي حمار في الطريق أن يفعله مع أكبر كبير » الخ الخ

فهذه القصة إحدى قصص ثلاث لها سلسلة من العناوين المتقاربة : عام الكف ، وعام الكفاء ، وعام الكفر ، محورها هم : محمد المويلحي ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل ، وبواعثها من دسائس القصر رغبة الحاشية في

الاستيلاء على مناصب الرئاسة الدينية في البلاد ، ولا سيما الرئاسة التي لها اشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ، وتقترن بها منافسة اصحاب الاقلام على مركز شاعر الامير ، وكاتب الصحيفة السيارة التي تعتبر لسان حال الامير

ولقد كان محمد المويلحي مرشحا للعمل الصحفي الذي يمثل سياسة الامير ، ويقوم مقام لسان الحال بالنسبة اليه . . . وكان يعين اياه على طموحه الى مركز شاعر الامير ، فكان كلاهما منافسا خطيرا للشيخ على يوسف في عالم الكتابة السياسية والمناذمة الشخصية للامير في مجالسه الخاصة ، وهما اكتب من الشيخ على من الوجهة الادبية وأوسع ثقافة في اللغة العربية واللفات الاجنبية ، وا قدم عهدا بالاتصال الوثيق بالاسرة الخديوية التي صاحبته اسرة المويلحي منذ عهد مؤسسها ، ورفع شأنها عند هذه الاسرة انتساب المويلحيين لآل البيت النبوي نسبة اثبت من تلك التي ادعاها صاحب المؤيد بعد ذلك عندما اراد الخديو عباس ترشيحه لمشيخة السادات الوفائية ، ومهدوا لذلك بمصاهرة الشيخ على يوسف لهذا البيت على الرغم من عميده السيد عبد الخالق ، مما انتهى به الامر الى قضية الزوجية المشهورة وعزل الخديو للشيخ احمد ابي خطوة قاضي المحكمة الشرعية التي حكمت بالغاء الزواج ، وتعيين الشيخ الرافعي الذي كان ياوي السيدة صفية في بيته بعد صدور القرار بالفصل بين الزوجين خلفا للاستاذ الامام

فما هو الا ان سمع الشيخ على يوسف بخبر اللطمة التي أصابت محمد المويلحي حتى فتح لآخبارها وتفصيلاتها صدر صحيفته ، وحرص على تسمية المكان الذي وقع فيه الحادث باسم « الحانة » وتحريف الكلمة التي قالها

المويلحي لتظهر للسامعين بها كأنها من لغة المفاصلة ، وفي
كلا الأمرين ما يعطل المويلحي عن الترشيح لمقام لسان الحال
ومقام المشيخة الصوفية ، ولم يحفل المويلحي بالرد على
« المؤيد » إلا ليقول ان الحادث وقع في « دكان » لا في
حانة ، وان الكلمة التي فاه بها هي كلمة « الفتنى » لا كلمة
الفتان ..

وسمى المؤيد العام كله باسم عام الكف ، وألح على
ذكر الحان في المنظومات الشعرية التي كانت تنشر تحت
هذا العنوان ، ومنها :

يا صريع الاكف صددك امسى
خلقا مثل طيلسان بن حرب
انت في الحان في امان وسلم
وهو في معمعان حرب وضرب

ومنها :

لا تدخل الحان والصناعات
حتى تقنم حوالبك المتاريس
والح الشيخ كذلك على ذكر شهر الصيام في ابان
المعمعة ، فكتب بعض شعراء هذه المقطوعات يقول :

ان شهر الصوم قد حل ففز
فيه بالاجر وشكر الشاكرين
وختم المقطوعات بأبيات تشير الى شهر رمضان يقول
ناظمها :

ان هذا الشهر شهر يجتنى
فيه امثالك صقع الصافعين
قد محونا آية الكف وهما
نحن نتلو اليوم آي الراحمين

وكان المشاع يومئذ ان المقطوعات جميعا من نظم الشاعر
اسماعيل صبرى لان المويلحى كان يلقيه فى مجالسه
باللقب . . ! ولكن المعلوم ان شعراء آخرين قد اشتركوا
فى نظمها ، ماعدا حافظ ابراهيم صديق المويلحين

وجاء دور الشيخ على يوسف فى تشهيرات هذه
العناوين المتسلسلة فظهر عام الكفاء بعد عام الكف . .
اذ كان السيد عبد الخالق قد طلب تطليق ابنته من صاحب
المؤيد لانه غير كفء للزواج من الشريفات وجده مشكوك
فى اسلامه ، واستعان المويلحى باطلاعه الواسع على الادب
العربى القديم فاستخرج من قصة الشاعر الاحوص مع
مطر زوج أخت امراته التى كان يهواها بيتين من أبيات
الاحوص كأنما نظما لهذه المناسبة ، وأبيات الاحوص هى :
كان المالكين نكاح سلمى

غداة نكاحها مطرا نيام

فلا غفر الله لنكحيها

ذنوبهم ، وان صلوا وصاموا

فلو لم ينكحوا الا كفيثا

لكان كفيثها الملك الهمام

وان يكن النكاح احل شيئا

فان نكاحها مطرا حرام

سلام الله يا مطر عليها

وليس عليك يا مطر السلام

فطلقها فلسبت لهننا بكفاء

والا يعزل مفرقك الحسام

وكأنما الإشارة هنا الى ان الامير نفسه هو الكفاء لبنت

السادات ، وليس الشيخ على الذى اذن له الامير فى
زواجها

ولم يكن مع الموياحي أحد من كبار الشعراء في عام
الكفاء غير حافظ إبراهيم ، وقد كان « يرد الجميل » في
وقت واحد للشيخ على يوسف بعد حملات المؤيد على
المفتي ، وللشاعر أحمد شوقي منافسه على الشهرة وعلى
مطمع آخر ستأتى الإشارة إليه ، فنظم حافظ لهذه المناسبة
قصيدته البائية بعد طول صمته ، وقال فيها :

حطمت السراع فلا تعجبي
وعفت البيان فلا تعتبي
فلا تعذلينى لهذا السكو

ت فقد ضاق بى منك ماضق بى
الى ان قال عن قضية الزوجية ، ولم ينس الناحية
الدينية فيها :
وقالوا « المؤيد » فى غمسة

رماه بها الطمع الاشعبى
دعاه الفرام بسن الكهـ
ل فجن جنونا ببنت النـ
فضج لها العرش والحاملوه
وضج لها التبر فى يشرب
وقالوا لصيق بيت الرسـ

ل اغار على النسب الانجب
والطمع الاشعبى فى البيت يشير الى ضياع ثروة
الشيخ على فى مضاربات « البورصة » وهى من المقامرة
التي لا تحمد من أحد ، فضلا عن شيخ الطريق

ولقد كان لحافظ إبراهيم نصيبه المهم من هذه
الدسائس التي كانت تحاك لترشيحه لوظيفة شاعر
الخلافة فى البلاد العربية الاسلامية ، منافسة لشاعر
الامير أحمد شوقي ، فما زال به الخبثاء حتى زينوا له

نظم ابيات في انشأب « شكيب » معشوق ابي الهدى
الصيادى صاحب النفوذ الاكبر في حاشية السلطان عبد
الحميد ، فقال على لسان الشيخ ابي الهدى :

وأفـض الـاذكار حتى يـفـيـسـا

أخـرق الدف ان رأيت شكيبا

فاسألوا سـبـحتى فهل كان تسبيحـه

ى فيها ألا شكيبا شكيبا

فذهبت مساعى من رشحوه لذلك اللقب الفخم بعد

اقترابها من النجاح

اما عام « الكفر » فلم يكن له شأن هذين العامين من
أقلام الادباء ، ولم يهتم به صاحب « المؤيد » كثيرا لانه
آثر ان ينتظر للخلاص من مزاحمة مصطفى كامل مناسبة
أخرى ، وتلك هى مناسبة اغلاق الصحف التى كان
مصطفى كامل يصدرها باللغات الاجنبية ، وهى التى كان
على يوسف يخشى أن تجعل مصطفى كامل لسان حال للأمير
فى الصحافة الاجنبية ، ولم يكن يخشى مزاحمته فى
الصحافة العربية لان مصطفى كامل نفسه كان ينوى ان
يقطع صلته الصحفية بالقصر ، حتى كتب خطابه الصريح
الى الخديو عباس يبلغه فيه انه سيبتعد عن كل صلة
بالحاشية الخديوية صيانة لمقام الامير من تهديد المحتلين اياه
من جراء تلك الصلة ، وهذه هى الفعلة التى استكثرها
بعض المتملقين على صحفى يخاطب أميره ، فحملوا عليها
بعنوان « عام الكفر » وأسست لها الناصحون بايعاز من
الامير

على ان صحيفة المويلحين لم تصبح لسانا سياسيا
للقصر ، ولكنها أصبحت لسانا للحركة الادبية مسموع
القول فى نقد الكتابة والشعر وفى الموازنة بين الكتاب

والشعراء ، وكان قولها في ذلك منتظرا مرموقا في أندية
الادب والثقافة ، ومنها أندية القصر نفسه وأندية المعارضين
لسياسته ومؤامراته . وكانت خطتها العامة - فيما عدا
فترات القلق الزئبقى التى اشتهر بها المويلحى الكبير على
الخصوص - ان ترجح كفة حافظ ابراهيم على منافسيه ،
فلم يكن من اليسير ان تساق الى خطة الزراية به وتهوين
شأنه ونكران فضله ، ولكن « مصباح الشرق » كانت
تنافسها ، وتحاكىها صحيفة اخرى على اسلوبها هى
صحيفة « الصاعقة » الاسبوعية ، وصاحبها احمد فؤاد
تلميذ المويلحى ، يواليه يوما ويكيد له اياما على حسب الطلب
والجزاء ، وفى الصاعقة كانت تنشر الحملات التى ياباها
« مصباح الشرق » ، ويترفع عن قبولها أو مجساة
طلابها .. ولا سيما الحملة على حافظ ، ومحاولة الايقاع
بينه وبين نصيره الاكبر الاستاذ الامام ، وقد املى على
صاحبها ان ينكر على حافظ قدرته على الشعر والنثر
مما ولو كان من النثر المترجم .. فلا يصلح بطبيعة الحال
لولاية الديوان العربى ومعه ديوان الترجمة ، فجاء فى
مقال نشرته بعد صدور الجزء الاول من ترجمته
« للبؤساء » :

« .. انا لنبدأ بأولهم ذلك المعجب بنفسه الذى عرضه
الغرور للاستهزاء به ، وهو حافظ ابراهيم .. ولما كان
معدوما من مزية تمييز الصحيح من الفاسد والخطأ من
الصواب والجيد من الرديء ، وكان مجبولا على الاعجاب
بنفسه .. ظن فاسده صحيحا وخطاه صوابا ورديته جيدا
فيما جمعه فى البؤساء من خليط كلام الفابرين .. »

الى قول الكاتب :

ولقائل ان يقول : لو ان الكتاب كذلك لما قرظه المفتى ،

فنجيب المعترض بأن فضيلة المفتى من العلماء الاعلام ،
واعنده من الاشتغال بأمور الاسلام ما يشغله عن قراءة
مثل هذه الترهات ، ولكن جبرا لكسره وتخلصا من
الحاح جافظ وفرارا من تحمل غصص رؤيته والاجتماع
به . . قال ماقال ، وعلم الله ان فضيلة الاستاذ تأذى كثيرا
من تقرّظ البؤساء »

ويقول المطلعون على احوال القصر ان المويلحين أوشكا
في وقت من الاوقات ان يبلغا مطلبهما من الأمير وهو مركز
شاعر الأمير للمويلحي الكبير ومهمة الدفاع عن سياسته
للمويلحي الصغير

وربما كان ابراهيم المويلحي أصلح أبناء عصره لوظيفة
الشاعر في قصر الامارة كما كانت تفهم في تلك الحقبة ،
لأنها كانت وظيفة تجمع بين نظم الشعر لمناسباته ومواسمه ،
وبين مناداة الأمير في مجالسه وسهراته وساعات طربة
وخلوته لسماع المغنين والمفنيات ، ولم يكن ابراهيم
المويلحي دون على الليثي ومحمود ابى النصر في فن النظم
ولا في المناداة ، بل كان أعرف منهما بأدب العرب والافرنج
وأقدر منهما على الحديث في مختلف شجونه ، وقدرته
على نظم التواريخ بعدد الحروف المعروفة بتواريخ «الجمال»
لم يكن يدانيها أحد من معاصريه ، وقد كانت هوى الملوك
والأمراء من شعر المديح لتسجيل أوقاته ومواعيده ، فلم
ينظم شاعر من هذا الفن قصيدة تضارع قصيدة المويلحي
الكبير التي استقبل بها عباسا الثاني « سنة ١٩٠٢ »
وكل شطر منها تاريخ للسنة الهجرية « سنة ١٢٢٠ »
يوافق معانى الكلمات في غير تكلف ظاهر يقتضيه التوفيق
بين النظم ومجموع الارقام ، وهذه أبيات منها :

وافى الخديو فحسب النيل أفراحا
واستبشر الناس لنا نجمة لاحا

والمجد ينصره ، والقطر يشكره
والملك يذكره ، بالعدل ان ساسا



وقد كان الخديو عباس يأنس لابراهيم المويلحي في
مجالسه ، ويعلم ولع جده اسماعيل بمسامرته ومنادته ،
فضلا عن الاعتماد على لباقتة للسفارة بينه وبين ولاية
الامر في الدولة العثمانية ، ويعلم ان جده قد بلغ من ولعه
به انه اصطحبه دون غيره من أصحابه وندمائه عند مفارقة
القطر الى منفاه ، ولعله كان موضع اختياره شاعرا له
لولا اعتراض المحتلين على تقرير هذه الوظيفة في الميزانية ،
لان النظام المالي في حكومات العصر الحديث لا يعرف عملا
يسمى عمل الشاعر أو النديم الخاص بمجالس الملوك
والامراء ، ومن أجل هذا سميت وظيفة « أحمد شوقي »
باسم رئيس الديوان العربي ولم تعرف « رسميا » باسم
شاعر الأمير

وربما كان طموح الوالد الى هذه الوظيفة سببا من
اسباب نقد ابنه لشعر شوقي وقوله - على الخصوص -
انه لم يكن يحسن الحديث عن الملوك والامراء ، ولولا
ذلك لما تحدث عن اسماعيل وهو يقول اعنه انه « الخديو
المشار اليه » . . . ولا تحدث عن توفيق فقال « ثم مد الى
العزير يده فقبلتها وأجما . . » ، ولا ذكر انه كان يركب
حمارا أبيض وهو يذهب للقاء الأمير ، ولا أكثر في مقدمته
من الزهو والسهو والحشو كما قال ، ولا شبه العزيز
بعمر بن الخطاب فقال وهو يصف حفلة البال :

فهو بينهم غمر والوفود تنتدب

وانما عمر بن ابي ربيعة هو الاجدر « بمجلس الطرب
والعزف ، والرقص والقصف ، والقردود والخدود ،

والصدور والنهود ، والنحور والعقود . . »

فقد كان هذا النقد - كما هو ظاهر - أقرب الى نقد « لياقة النديم » منه الى نقد بلاغة الشاعر ، وعند لياقة النديم تنتهى منافسة المنافسين للاديب الظريف والسمير الممتع ابيه ابراهيم !

الا ان المويلحيين كانا - ولا ريب - وفاق الشروط جميعا - بمقياس الامير قبل كل شئ - لوظيفة شاعر القصر ولسان حاله ، لولا قصورهما عن شرط واحد كان عند الامير اهم وألزم من جميع هذه الشروط ، وهو شرط الاستقرار والكتمان الذى لابد منه لكل من يعمل فى حواشى الامراء ، فقد كان كلاهما - ولا سيما الاب - من أصحاب المزاج الزئبقى الذى لا يطول قراره ، ولم تكن لهما حالة فى السياسة ولا فى العلاقات الحميمة يطول الاطمئنان اليهما ، فلم يفلحا حيث أفلح شوقي الصامت الحصيف ، وعلى يوسف الناطق الامين بلسان الحال



وفى « الصاعقة » التى كانت تخدم الحاشية الخديوية كما تقدم ، نشرت أعنف قصيدة من قصائد الهجاء للخديو عباس ولجميع الامراء فى أسرة محمد على من قبله ومن بعده ، وتلك هى قصيدة الاستقبال التى اتهم البكرى والمنفلوطى بنظمها ، وهى فيما نرجحه من نظم البكرى كلها ما عدا بيتا أو بيتين اشترك فيهما المنفلوطى أو أضافهما اليها بموافقة السيد توفيق

وقد كان موقف العميد « الصوفى » الكبير من بيت محمد على كموقف المويلحيين بين الاقبال والاعراض ، وبين المودة والجفوة ، وبين المعونة والمكيدة ، ولكن عميد السادة البكرين كان له موقفه الخاص بين رواد القصر

وهو موقف بيت البكرى من بيت الاسرة العلوية ، فكان على حذر دائم من الخديو عباس لانه - في ذكائه واطلاعه على ما وراء الستار ومصاحبته لعباس منذ ايام الدراسة - لا يجهل سياسة البيت العلوى من جميع البيوتات التى اشتركت قديما وحديثا فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة ، وأولها : بيت البكرى العريق . . وسياسة عباس لم يكن بها خفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فانه كان يحاول جهده ان يحل فيها اشياعه ومريديه وينحى عنها الاقوياء من ابنائها ذوى « الشخصيات » الملحوظة فى الدوائر العليا ، واحذر ما كان يحذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الاجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكونوا أقرب الى هذه الاوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الاجنبية ونشوئه نشأة الامراء فى المعاهد الاوربية . ومن يدري ؟ . . ان أعيان القاهرة وقناصلها كان لهم الشأن الاول فى تنصيب الولاة حتى بعد قيام الاسرة العلوية الى أيام اسماعيل ، فاذا حدثت بين زعازع السياسة التركية والاوربية حادثة تدعو الى تغيير الاسرة الحاكمة ، فهل من البعيد ان يرشح للحكم الجديد سليل بيت عريق فى البلاد له من سمته وتربيته وعلاقته بالآستانة ووكالات الدول ما يلفت الانظار اليه عند البحث عن الخلف المطلوب ؟

والذى لا نشك فيه ان القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطى فى بعض أبياتها ، لان المناظرة بالآباء والاجداد والمقابلة بين الدخيل « القولى » والاصيل « البكرى » تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى على انتمائه لآل البيت النبوى بغير تلك الوجاهة الملحوظة فى تاريخ الولاية ، ولقد كانت اخر كلمة وجهها

السيد توفيق الى الخديو عباس حين وبخه هذا وقال
له على مسمع من الملاء في حفلة المحفل : أنت قليل الادب :
« كلا .. لست انا القليل الادب .. انا وزير مثلك ،
وآبائي وأجدادي لهم الفضل على آبائك وأجدادك .. »
لاجرم يكون قائل هذه الكلمة هو ناظم تلك الابيات
التي يقول فيها :

يذكرنا مراك أيام أنزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا
سهام بلاء وقعهن شديد
فلما توليتم طغيتن وهكذا
إذا أصبح « القولى » وهو عميد
عباس ترجو ان تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتننا

تكون بطن الارض حين تسود
ونحن ننقل الابيات هنا كما سمعناها بالرواية
مخالفة للقصيدة المنشورة في « الصاعقة » بعض المخالفة
وكل ما فيها من ذكر القصور والنعمة المحدثه والاسرة
الطارئة كلام من له نشأة راسخة في القصور والنعمة
التالدة والحسب العريق

ولم يكن عباس - وهو الذي سماه كرومر أستاذا في
فن الدسائس - قاصرا عن « رد الجميل » من نوعه
في هذه الحملة ، فانه أراد أن يستخرج من مادة الشعر
وثيقة على البكرى بخط يده تسقطه في بيئة الدوائر
الاجنبية العليا : وأهمها عنده دوائر الوكالة البريطانية
.. فأوعز الى ولى من أولياء القصر بين رجال الادب ان
يستدرج السيد الى كتابة قصيدة ينظمها في موضوع

من موضوعات الغزل المحظور ، وكان حفى ناصف اقرب هؤلاء الادباء صلة بالسيد البكرى ينشده ويستمع اليه .. فلما ذهب يزور السيد وأقبل هذا ينشده من جديد نظمه تعمد حفى ان يستثيره وقال له : أيها السيد ! انك ممن لاينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! .. وحمى غضب السيد فتجداه ان يجاريه فى نظمه ان استطاع ، وقبل حفى التحدى على شريطة ان يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار من ناظم آخر فى باب من الغزل المحظور ، فكتب البكرى ابياتا فى المعنى المقترح بخطه وكتب حفى ابياتا فى معناها ثم أخذ ابيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب ! وذهب الى النافسذة يوهم السيد انه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ، ولكنه مزق ورقته وأبقى الورقة الاخرى فى جيبه ، ثم أسرع بها الى القصر ليسلمها الى الخديو فأسلمها الخديو الى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما ، وقيل انها كانت آخر العهد بدعوة السيد الى حفلات الوكالة البريطانية وآخر العهد بزيارة العلية من رجال الدول لقصر الخرنفش ، حيث كانت لهم زيارات متكررة فى المواسم والاعياد



نقرأ لـ « حفى ناصف » - رحمه الله - رسالة من ابلغ رسائل العتاب على الاسلوب السلفى كتبها الى توفيق البكرى يقول فيها ، وكان قد زاره فتخطاه السيد الى جاره ولم يقرئه السلام :

« .. وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينما بكما له ، فمر يتعرف وجسوه

القوم حتى حازاني ، وكبر على عينيه أن تراني .. »
الى أن يقول :

« فان حسن عند السيد أن يفضى عن بعض الاجناس ،
فلا يحسن أن يفضى عن جميع الناس . والا فلماذا
يطوف على بعض الضعيف ، ويحييهم بصنوف من
المعروف ، ويتخطى الرقاب الى صروف ، ويخترق لاجله
الصفوف ؟ فان زعم السيد أنه أعلم بتصريف الاقلام
فليس بأقدم هجرة في الاسلام ، وان رأى أنه أقدر منى
على اطرائه ، فليس بالممكن أن يتخذه من اوليائه .. »

والمقصود بصروف كما هو معلوم صاحب «المقتطف»
الدكتور يعقوب صروف ، ولم يؤثره السيد لأنه أقدر
على اطرائه ، فان الدكتور يعقوب لم يكن من أصحاب
أقلام الاطراء ، ولكنه أثره لأنه ربما كان أقدر في الدوائر
العليا على محو المسبة التي جاءت من ناحية الحاشية
الخدوية

* * *

ونحن لانجاوز في مقالنا هذه بعض الامثلة على مؤامرة
الادب التي لاتفهم دون العلم بما وراءها من مناورات
القصور ، ولم نزد فيها هنا على ما يحيط منها بالأعلام
الذين كتبنا عنهم في هذا الكتاب



في مقالاتنا بعنوان « حياة قلم » عرضت مناسبة لعلاقة « ابراهيم المويلحي » بمؤامرات القصور في القاهرة والآستانة ذكرنا فيها بعض حوادثها ملخصة في القصة التالية :

« .. حدث أن حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد بالاستانة - وهي حركة تركيا الفتاة - وأن رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين !

« وكانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال .. ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه على شارع محمد علي بالقاهرة ، واتفق يوما أن المويلحي الكبير - صاحب مصباح الشرق دخل مكتب « المؤيد » ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة : قادر انت يارب أن تسقط هذا السقف اعلى من تحته ، فيستريح عبد الحميد ! قال محمد عبده - وكان من زوار الحجرة - نعم .. لو تقدمت انت خطوتين ! »

ذكرنا طرفا من أخبار المؤامرات وقصرنا الكلام فيها على اعلام الادب الذين تقدمت الكتابة عنهم ، وهم على يوسف ، ومصطفى كامل ، والمنفلوطي ، والمويلحي

صاحب عيسى بن هشام ، ولكنهم طائفة معبودة من
الذين اتصلوا بالقصور واجتذبتهم حبائلها أو اشتملت
عليهم شباكهها ، وغيرهم كثيرون من أبناء عصرهم وأبناء
العصر الذى يليه تعرضوا لمثل ما تعرض له زملاؤهم من
قبل ، وامتزجت حياتهم العامة والخاصة كما امتزجت
حركاتهم الادبية والفكرية بأسرار تلك المؤامرات ، فلا
سبيل الى تقديرهم وتقدير بواعث أعمالهم بغير الاطلاع
على تلك الاسرار .

ومن أشهر الاخبار عن العلاقات المتصلة بين القصور
ودوائر الادب ، ذلك الخبر الذى لم يكتب فى حينه ،
ولكنه ورد فى مذكرات أحمد شفيق باشا التى نشرها
بعد خلع السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثانى ،
وذلك هو خبر الاستاذ الامام محمد عبده مع شبكة
الجاسوسية الصحفية فى القاهرة والاسكندرية ، وكان
الخديو عباس شديد النعمة على الاستاذ لمعارضته اياه
فى سياسة الازهر وديوان الاوقاف ، ولكنه لم يكن
يستطيع عزله لغير سبب يمكن تقريره والاستناد اليه ،
ولم يكن نظام مجلس الوزراء يسمح له بالتصرف فى
المناصب الكبرى بوجى من أهوائه الشخصية ، فأراد
أن يتمسح بحقوق الخليفة الأكبر - عبد الحميد - فى
المسائل الدينية ، وأنتهز فرصة السياحة الصيفية
وسفر الاستاذ الى الاسكندرية لتوريطه فى موقف مربى
يؤدى بالاتفاق مع جواسيس « المابين » الى اعتقاله
« متلبسا » بحالة من الحالات الشائنة التى لا تجعل
بمفتى الديار . . فلا يصعب على الخديو بعد ذلك أن
يأمر بإخراجه من المناصب الدينية ومن وظيفة التعليم
بالجامع الازهر ، ولا يستطيع المنشئون الذين

يشهدون مجلس الوزراء أن يعارضوه باسم القانون
المالى ونظام تأديب الموظفين

وقد تولى هذه المهمة مكاتب « المؤيد » بالاستانة
فقدم نفسه الى الاستاذ ، وعرض عليه خدمته لتمكينه
من الفرجة على مناظر البلد التى يجهلها السائح الغريب
ولا يهتدى اليها بغير دليل ، ولولا يقظة الشيخ محمد
عبده وانتباه بعض المصريين فى الاستانة الى خبيثة هذه
الدسيسة لاعتقل الشيخ فى جهة من جهات اللهو المنكر
يراقبها الشرطة ، ويستطيعون على الاقل أن يخرجوا
من البلد من يصطدم فيها بالمشاغبين الغريباء .. فيحقق
القول على الامام « المتهتك » وتكون هى القساضية على
سمعته وعلى جهوده ومشروعاته فى سبيل الإصلاح

وأمثال هذه « المؤامرات » بين سماسرة القصور
وحملة الاقلام أكثر من أن تحصى ، كنا نسمع ببعضها
فى حينه .. ولكنها لاتنشر فى الصحف للسياسة الا
بأسلوب التورية والتلميح ، أو تنشر عنها الكتب التى
تصاغ بأسلوب « القصة » الخيالية وابطالها جميعا
معروفون

ولم تنقطع هذه المؤامرات كل الانتقال الى زمن
فاروق ، ولكنها ذهبت شيئا فشيئا على مراحل متعاقبة ،
ترتبط كل الارتباط بتواريخ القصور « ذات الشأن »
كما يقال فى التعبيرات الحديثة ، وهى مراحل العلاقة بين
قصر يلدز وقصر عابدين ، ثم مراحل العلاقة بين قصر
عابدين وقصر الدوبارة ، وهو عنوان دار الوكالة البريطانية
المشهور

ولهذا كانت الناحية الدينية غالبية على هذه المؤامرات
فى مرحلتها الاولى ، وكان محورها الاكبر مسألة الخلافة

ومسألة السمعة الدينية أو الدعاية التى لها علاقة
بالدين وبالأخلاق

كان السلطان العثمانى يتهم الخديويين بالسعى الى
تحويل الخلافة من الترك الى البلاد العربية ، وكان
الخديويون يحذرون من سلطان الخليفة لانه السلطان
الذى كان من حقوقه أن يخلع أمير مصر أو يبدل نظام
الوراثة أو يساوم الدول الأوروبية على حساب الخديوية
المصرية ، كلما كانت له فى ذلك مصلحة من مصالح
السياسة الدولية

ومن هنا جاءت تلك القضايا التى ترتبط بمناصب
الافتاء ومشيخة الطرق الصوفية ومنازعات الزوجية
والكفاءة لها من وجهة النسب والوجاهة الاجتماعية ،
كما جاءت تلك الاقاويل التى تدور على اتهام كبار الرجال
العاملين فى نهضة هذه الامة ، لانهم ينازعون الخليفة أو
الامير ، ولا يسهل التغلب عليهم بغير التشهير وتدبير
المواقف التى تنفر الناس منهم باسم النخوة الدينية
على الخصوص

وقد ذهب عهد عبد الحميد ، وبقيت لمسألة الخلافة
ذيولها التى شهد المعاصرون آثارها فى حياتنا الفكرية ..
فان الثورة الفكرية التى اشتبكت فيها أقلام العلماء
والادباء شهورا فى هذا البلد بعد ظهور كتاب « الاسلام
وأصول الحكم » لم تكن لتشتعل هذا الاشتعال لولا
طموح أحمد فؤاد الى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانه
عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الامبراطورية
الهندية ، ولو بلغ من شأن الخلاف أن يشغل أقلام
العلماء والادباء كما شغلهم يومذاك لما بلغ من شأنه أن
يستفحل حتى يؤدى الى سقوط الوزارة واثارة المشكلة
الدستورية على وضع جديد

واللناقد الادبى - اذن - أن يجعل شعاره « فتش عن
القصر » أو « فتش عن قضية الخلافة » ليفهم حقيقة
لاغنى عنها في تقدير مدارسنا الادبية في الجيل الماضى
وتقدير اسباب التجمع والتفرق بين حملة الاقلام في كل
مدرسة منها ، وبغير هذا « الشعار » يتعذر عليه كل
التعذر أن يدرك الاسباب الكامنة وراء تكوين تلك
المدارس من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها
المعروفة ..

ولنضرب لذلك - مثلاً - قصيدة الاستقبال التى
قيل فى مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد

وقيل فى ختامها :

أعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود

فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الارض حين تسود

فدسياسة القصيدة - على حد قولنا دسياسة الرواية
- هى قضية الخلافة واتهام الخديو عباس الثانى
بالطموح اليها

والاطراف المعنيون فى القصيدة - كما ظهروا للناس -
هم السيد توفيق البكرى ، والسيد مصطفى لطفى
المنفلوطى ، والشيخ حمزة فتح الله ، واحمد فؤاد
صاحب « الصاعقة » ومن وراء الستار السيد ابراهيم
المويلحى والسيد محمد المويلحى ، والسيد على يوسف ،
وأدباء الحاشية الخديوية

فالسيد توفيق البكرى شيخ الطرق الصوفية ،
والسادة البكرية ركن مهم من أركان قضية الخلافة
بما كان له من المكانة الدينية وما كان له في الآستانة من
« الصفة الرسمية » التى خولته منزلة من الرئاسة
تقارب منزلة الخديويين ، وهذه هى الصفة التى عنها
حين أهانه الخديو عباس فقال فى جوابه :

« أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على
آبائك وأجدادك »

والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى كان فى تلك الآونة
طالبا فقيرا من طلاب الجامعة الازهرية ، ولكن انتسابه
الى الشرف النبوى هو الذى قرب به من شيخ الطرق
الصوفية وزج به فى منازعات الخلافة ومناوراتها

والشيخ حمزة فتح الله هو أحد علماء اللغة من
المغاربة الذين كان القصر الخديوى معنيا بضيافتهم مع
أمثالهم من علماء البلاد العربية ، لاكتساب الصفة
الاسلامية .. ودوره فى قضية القصيدة أنه شطرها
ليرد هجاءها الى ناظمها ، ويعنيه عناية خاصة من ناحية
النسب وعراقة البيت ، وفى هذا التشطير يقول :

قدوم ولكن لا اقول سميع

على فاجر هجسو الملوك يريد

لئام لهم « بيت » من اللؤم عامر

وملك وان طال المدى سيبيد

واحمد قواد هو صاحب صحيفة « الصاعقة » التى
انشئت لتكون صحيفة « الهجاء الاجتماعى » الاخرى
امام السידين المنتسبين الى الامام الحسين ، وقد كان
يومئذ الى جانب الآستانة ، فى ترده الطويل بين
القصرين : قصر يلدز وقصر عابدين

والمويلحيان ، وعلى يوسف - كلهم ينتسب إلى الشرف ، وكلهم يخوض معركة الكفاية الزوجية باسم الانتماء إلى السادات ، ومنظومات عام الكف وعام الكفاء بعض ثمرات هذه المناوشات

ومن وراء ذلك حاشية الأدباء في قصر عابدين ودورهم في القضية مستور ، ولكنهم يقومون به من وراء الحملات التي تشن على أدباء القضية من وراء ستار

* * *

وفي المرحلة الثانية من مراحل المؤامرات بين القصور وحملة الأقلام ، تأتي مؤامرات النزاع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة مقر العميد البريطاني الذي كان يلقب بقيصر قصر الدوبارة ، وإليه يوجه حافظ إبراهيم قصيدته حين يقول :

قصر الدوبارة هل أذاك حديثنا
فالشرق ريع له وضج المغرب
وعنه يتحدث حين قال :
وما دام في قصر الدبارة ربه

فسعد ودنلوب لعمرك واحد
وعلاقته البعيدة بمدارس الشعر تظهر في منظومات
أناس بلغ من قحة أحدهم أن يسمى قصائده بالكرومريات
معارضاً بها « الشوقيات »

* * *

ولولا أن عاملاً جديداً ظهر في الوسط - وهو عامل الحركة الوطنية - لكان مجال المؤامرات القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر ، بلا

استثناء ، لمجاله الاكبر بين يلدز وعابدين ، ولكن ظهور هذه الحركة تحول بأصحاب الاقلام الى معركتها الصريحة في الصحف وعلى منابر الخطابة ، ولم يترك للشسئون الديوانية من الجانبين غير « اجراء ادارى » فى يد الانجليز لصرف الاقلام عن الكتابة السياسية ، واجراء ادارى آخر فى يد الخديو لصرفها عن الصحافة « المشاغبة » عموما الى ديوان الاوقاف ، فكان نفوذ المستشارين وراء تشجيع المجلات العلمية والادبية باشتراك الوزارات فى مئات النسخ من أعدادها الشهرية أو نصف الشهرية ، وكان نفوذ الخديو وراء تعيينات الادباء الكبار والناشئين بديوان الاوقاف ، ومنهم محمد المويلحى كاتب « مصباح الشرق » و « عيسى بن هشام » وأحمد الازهرى صاحب مجلة « الازهر » وعبد العزيز البشرى ابن شيخ الاسلام ، ومعهم ادباء آخرون لم يكن للخديو يد مباشرة فى تعيينهم بالديوان ، ولكن تعيينهم هناك شغلهم بالشعر عن الكتابة الصحفية وجعل من بعضهم شعراء يتسابقون الى نظم المدائح الخديوية فى مناسبات المواسم والاعياد



وانتهت بانتهاء العلاقة بين مصر والدولة العثمانية مدرسة الكتاب والادباء الذين كانوا يضعون قدما فى هذا البلاط أو ذاك وقدما أخرى فى بلاط صاحبة الجلالة ، ونشأ الجيل الجديد من الكتاب والشعراء فى الهواء الطلق ، أو فى جو الحركة الوطنية بما اشتمل عليه من نواح واطراف . . تارة الى القصور وتارة عليها فى صف المعسكر الجديد ، وهو معسكر الامة بنواحيه واطرافه التى اشرنا اليها

انتهت تلك المدرسة من أصحاب الاقلام ، ولم تنته مؤامرات القصر « القلمية » من طرف واحد او من كلا الطرفين . . وقد كانت المصروفات السرية بعض وسائل القصر الخديوى لاصطناع الانصار ومحاربة الخصوم ، ولم تكن كلها تصرف في خدمة السياسة الخديوية او مطامع الخديو الشخصية ، ولكنها كانت كلها تصرف فيما يرضى الموكلين بتوزيعها على محررى الصحف والمشتغلين بالادب المنظوم والمنثور ، وبعضهم كان من كبار موظفى القصر ، وغيرهم كانوا من سمسرة الرتب والنياشين غير الموظفين ، وربما استعين بأموال الخاصة لهذا الغرض اذا خيف انكشاف الامر لديوان الرقابة على الميزانية

والى عهد غير بعيد كان لاموال الخاصة - مع المصروفات السرية - عملها فى اصطناع المحررين والمؤلفين لتعبئة المعسكر « القلمى » حول دعوة الخلافة تارة ، وحول الخصومات الادبية التى تعنى القصر تارة أخرى فكانت الخاصة فى عهد أحمد فؤاد تتولى الانفاق على أبناء بعض الكتاب فى المدارس المصرية والاجنبية . .

وكانت هذه الخاصة - مع مكتب المصروفات السرية - تنفق على انشاء المطابع والمجلات لمحاربة الادباء المخالفين لسياسة القصر والمناصرين لدعوة غير دعوته الخفية او العلنية

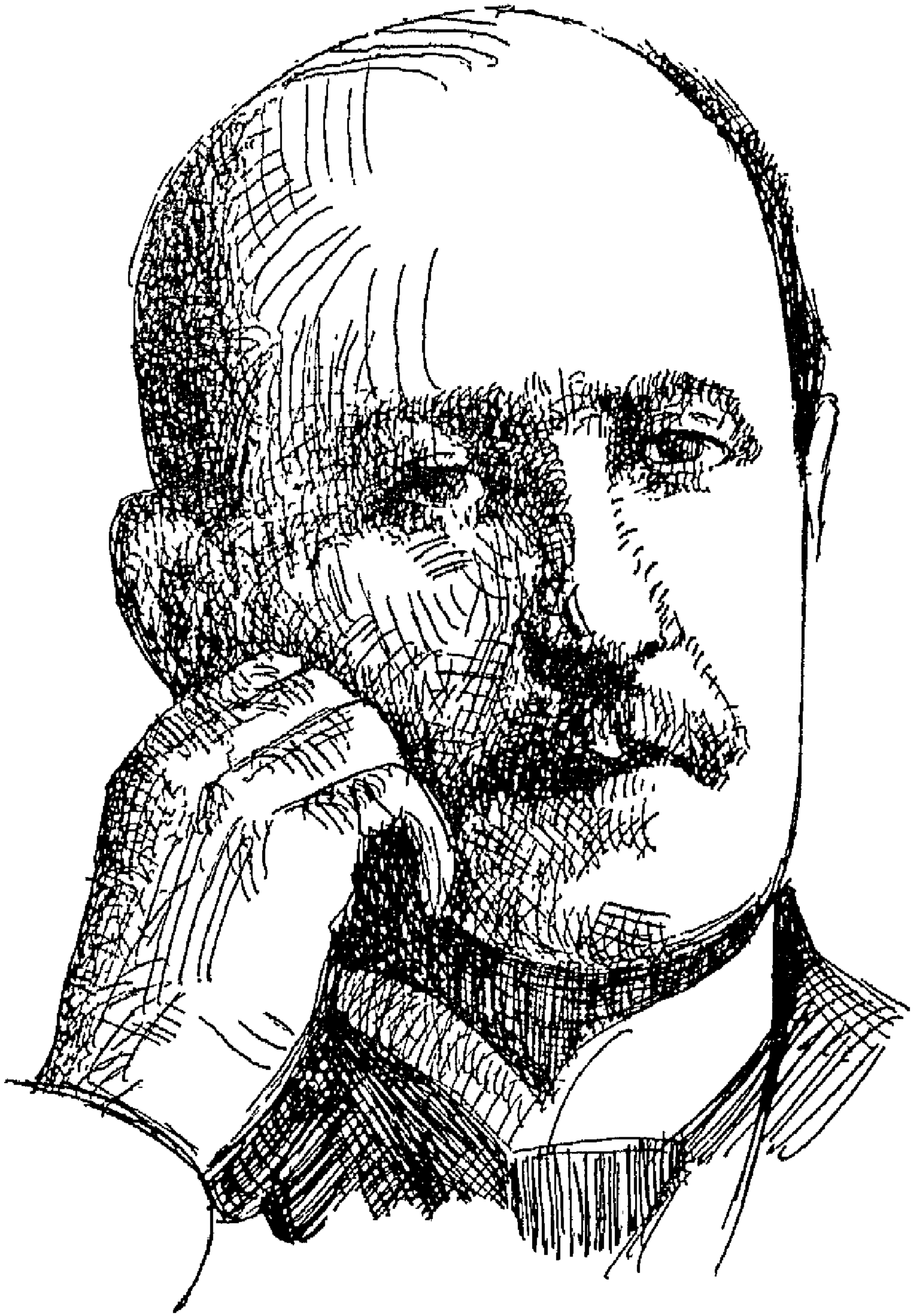
فى هذه الفترة نشأت المدرسة الادبية التى ينتمى اليها كاتب هذه السطور ، وفى هذه الفترة تعرضت هذه المدرسة للتشهير والتنديد فى الصحف الاسبوعية التى تخصصت للهجاء الاجتماعى والمناورات الادبية والسياسية . . وكلها صحف يعرف من عرفوها أنها

تقصد بحملاتها من يبدلون المال في سبيل اتقائها ، ولا
يعنيها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، إلا أن يكون
مصدر الحملة من ورائها ، لا من بين يديها ! ..

وتقدير الحملات الأدبية ، والمدارس الفكرية أيضا ،
في هذه الفترة المتأخرة يعود بالناقد المحقق - لامحالة -
إلى ما وراءها في سراديب القصر وحواشيه ، فلاحيلة
له في اجتناب هذه الناحية الخفية لتصحيح الحكم على
طبيعة كل حملة أدبية ولباب كل خصومة عامة أو
خاصة بين القائمين بها ، وأن لم يكن كله لازما في أمر
المدارس المتأخرة لزومه في أمر المدارس على عهد الأدباء
الأسبقين

ونظرة واحدة إلى ما وراء الستار قد تغني عن بحوث
مستفيضة يجتهد لها الباحثون لوزن الدعوة أو وزن
الحملة بميزانها الصحيح ، فلن يدرك الباحث حق
الاسلوب من الرفق أو الشدة ، ومن الاعتدال أو
الاندفاع ، إذا كان نظره قاصرا عما يستدعيه ويدفع
بصاحب القلم إليه ، فإن الاسلوب الذي يستدعيه نقد
فكرة غير الاسلوب الذي يستدعيه أحباط مكيدة من
وراء الستار ، يمالئها سلاح السلطان كما يمالئها سلاح
الدرهم والدينار





الكتور يعقوب صرف

كنت في زيارة للقاهرة حين لقيت الدكتور يعقوب صروف صاحب «المقتطف» حوالى سنة ١٩٠٥ .. وكانت زيارات القاهرة فرصة للبحث عن الكتب الخاصة التى لا تصل الى الاقاليم مع الباعة المتجولين ، وقد يتطلب البحث عنها زيارة حى « الكتبية » الى جوار الأزهر ، أو زيارة حى الفجالة حيث تباع المطبوعات العصرية ، لأن قوائم المكتبات لم تكن يومئذ شيئاً معروفاً فى بيئات النشر والمطالعة ، وكان المعروف المتداول منها لا يغنى عن البحث فى المطبعة التى طبعت الكتاب والمكتبة التى تبيعه .. وقلما يباع فى سواها ..

أما الكتاب الذى قصدت الى دار المقتطف فى مدخل شارع عبدالعزیز للبحث عنه ، فهو كتاب «الكائنات» للشاعر الباحث العراقى جميل صدقى الزهاوى ، وكانت مجلة المقتطف هى التى تولت طبعه فى القاهرة لأنه يبحث فى موضوع من موضوعات « فلسفة ما وراء الطبيعة » .. وهى تلك الموضوعات التى كانت تثير الريبة فى الاقطار الشرقية الى ما بعد أوائل القرن العشرين

ولقد كان لقاء الدكتور يعقوب صروف - فيلسوف العصر عند المحدثين - هو الغرض الاول من زيارة الدار، اذ كان فى وسعى ان اسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان فى وسع عامل المخزن ان يتولى اخراج الاذن ببيعه من رئيسه فى ادارة المقطم أو ادارة المقتطف، ولكننى قدمت الى القاهرة من مدينة « قنا » حيث كنت اعمل تلميذاً بالقسم المالى فى انتظار التثبيت وأنا خارج من احدى «المعاصم» الادبية أو الفكرية ، التى كان « يعقوب

صروف « محورا من اهم محاورها الكثيرة طوال ايام الحرب الروسية اليابانية ..

ولابد من ذكر الحرب الروسية اليابانية في هذا المقام، لانها كانت في الواقع محور المحاور في ميادين العصبية السياسية والوطنية ، والصحفية والادبية يومذاك ... بل كانت محور المحاور في كل عصبية يثور لها الشبّاب الذي يعنى بشأن غير شئونه الخاصة كيفما كان ..

وكان النزاع حول الطرفين - روسيا واليابان - يشمل ضروبا من النزاع حول كل موضوع عام يشغل أذهان الناشئة على الخصوص ..

فكان النزاع الوطنى يميل بالاكثرين من الشبان المصريين الى جانب الدولة الشرقية الناهضة ، او دولة « الشمس المشرقة » التى ألف فيها مصطفى كامل كتابه بهذا الاسم، كأنها المثال الاول للامم الشرقية المجاهدة في قضايا الحرية والنهضة والاستقلال ، وفيها يقول حافظ ابراهيم :

هكذا الميكاد قد علمنا

أن نرى الأوطان أما وأبا

وكان التنافس بين خريجي المدارس الانجيلية والمدارس المحلية الارثوذكسية اعلى أشده وأوسع في عواصم الصعيد، ولا سيما في أسيوط ١٠ فكانت روسيا رمزا لعصبية المدارس الارثوذكسية ، وكانت اليابان رمزا للعصبية الاخرى لانها صديقة الدول الانجيلية التى تعادى روسيا في قضايا السياسة العالمية ، وفي مقدمتها إنجلترا والولايات المتحدة ..

وكانت العداوة بين دولة القياصرة ودولة الخلافة الاسلامية سببا لعصبية اخرى ، جمعت أنصار دولة الخلافة

الى صف واحد يناصر اليابان ، في سبيل الوطنية وفي
سبيل الدين . .

وكان أصحاب المقطم والمقتطف للمرة الاولى في صف
واحد مع انصار الوطنية وانصار الدولة العثمانية ، مع
ما هو معروف من موقفهم حيال تركيا وحيال بريطانيا
أما عصبية الثقافة ، فقد ابرزت امام الخريجين من
المدارس الانجيلية اسمى «يعقوب صروف» و « فارس
نمر » صاحبي المقتطف والمقطم ، لانهما كانا في عالم الكتابة
انبغ من اشتهر من كتاب العلم والسياسة في عالم الصحافة
الشرقية . وكانت هذه العصبية تبلغ مبلغ الهزل على
السنة المتشيعين لهذين الكاتبين حين يجعلونها موضوعا
من موضوعات النظم شعرا وزجلا ، وهم لا يحسنون هذا
ولا ذاك باللغة الفصحى ولا باللغة العامية . . ومما يحضرني
من ابيات «الزجل» في الثناء على «فارس نمر» قول احدهم:
فارس نمر تعلملى وتهذبلى

وفي فنون العصر نابغلى

نابغلى فى علوم العصرى

وكان ساكنلى فى بلاد الشاملى

واسمع له فى الخطابة وتعال قل لى

واقرا لله فى المقطم والمقتطف يا خلى

واذا بلغ بالحماسة «الادبية» ان تنطق من لا ينطق بهذا
«النشيد» فقد يتصور القارئ العصرى كيف كانت
حماسة المتشيعين لكاتب المقتطف وكاتب المقطم عن فهم
وادراك صحيح

أما نحن - من غير ناشئة المدارس الانجيلية - فقد
كان تشيعنا لليابانيين لا يبلغ عندنا ان يشفع لـ « فارس
نمر » او يقربه الينا ، كاتباً او سياسياً ، او عالماً كما اشتهر

في أوائل عهده بالصحافة ، ولكننا كنا نمحض يعقوب
صروف من اعجابنا الادبي كل ما كنا نأباه على زميله، وكان
اعتزال صروف للدعاية السياسية يخرجهم من ميدان
الخصومة ويكسبه من كرامة العلم ولاء مشتركاً نتفق عليه
مع زملائنا الخريجين من المدارس الانجيلية

وقد اذكر الى اليوم كيف لقيني رهط منهم بعد عودتي
الى قنا ومعنى نسخة من كتاب «الكائنات» عليها كلمة بخط
العالم الكبير

ولقد كانوا يستمعون لى كأنهم يستمعون الى حديث
رؤيا غير قابلة للتصديق ، وكانوا يسألون : كيف حييته؟
وكيف رد عليك التحية ؟ وماذا قال لك حين أسلمك
الكتاب ؟ وهل فاتحك في بحث من بحوثه ؟ . وماذا قلت له
عن المؤلف ، وعن موضوع التأليف؟ . وقد كانت دهشتهم
الكبرى اننى لم أجد في الرجل ما يشير الدهشة ان كانت
الدهشة بمعنى الرهبة ، بل كان الرجل في الحق مثلاً
للطيبة الابوية والوداعة الحكيمة ، فلم يختلف شعوري
بلقاءه الاول بعد ان لقيت مراراً في مكتبه وفي داره وفي
بعض المجالس الادبية ، ولم أره بعد ذلك على غير تلك
الصورة التي شهدتها منه اول مرة ! . بساطة لا تخلو
من تحفظ السمات والوقار ، وعاطفة ابوية يشمل بها كل
من عرفوه من ناشئة الكتاب والدارسين

عتب على اول الامر اننى فاجأته بالدخول الى مكتبه
بغير استئذان ، ولكنه عاد يستسمحني حين اكدت له اننى
طرقت الباب طرقة خفيفاً لعله لم يسمعه وهو مستغرق
في القراءة . . فقال مبتسماً : « بل هو ثقل في السمع
يعتريني من حين الى حين ، فلا تؤاخذني اذا عتبت
عليك . . ! »

ولكن الحدة التي فاتتني من صاحب الدار لم تفتني

من عامل المخزن حين خرجت بالكتاب لتسليمه ورقه الاذن
بيعه — وأظنه كان متمصرا طال مقامه بالقاهرة — لأنه نظر
في عنوان « الكائنات » وقال مازحا : « جاك كائنة ! » . .
وهى دعوة لا يعرفها غير المصريين أو المتمصرين، وانما قالها
ليقول اننى افلحت فى تهدئة غضب الدكتور وأعفيته من
الجزاء الذى كان مستحقا له لو لم اقنع الدكتور ببراءة
موظفيه من التقصير ، لاننى قصدت ان القاء ابتداء ، ولم
يكن دخولى الى مكتبه لخطأ من اولئك الموظفين



ولا يحضرنى تفصيل الحديث الموجز الذى سمعته من
الدكتور صروف فى تلك المقابلة الاولى ، ولكنه دار على
الاجمال حول فلسفة « ما وراء الطبيعة » وعلقت بذهنى
كلمة منه لغرابتها أو لغرابة صدورها من « الفيلسوف
يعقوب صروف » . وتلك هى قوله انه لا يتقبل تلك
الفلسفة ، أو لا يهضم تلك الفلسفة ، أو عبارة دارجة
بمعنى هاتين العبارتين ، على حد قول القائلين فى التعبيرات
الأوربية الشائعة : « اننى لا ابتلع هذه الفلسفة »

وفوجئت ، ولا غرابة ، بذلك التصريح من رجل لم
يشتهر فى عالم الثقافة العربية يومئذ بما هو أشهر من صفة
الفيلسوف ، ولم نعلم أن أحدا غيره وغير زميله « فارس
نمر » حصل على لقب « الدكتور فى الفلسفة » من جامعة
غربية ، وانما كنت أفهم فى بداءة عهدي بالاطلاع على فلسفة
« ما وراء الطبيعة » انها هى الفلسفة كلها أو هى الفلسفة
فى أهم مسائلها وقضاياها ، فان لم تكن هى كذلك فهى —
على الأقل — شئ لا يصعب هضمه على « الفيلسوف » —
بألف التعريف !

الا ان الدكتور عرفنى بتلك الكلمة العابرة بحقيقة

رسالته في نهضة الثقافة العربية بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فكان من الخطأ أن نفهم من تلقيه بالدكتور في الفلسفة أنه فيلسوف كفلسفة البحوث المنطقية النظرية ، في قضايا الغيب المجهول ومشكلات «مأهية الوجود» على منهج أرسطو وابن سينا وابن رشد والغزالي ومحبي الدين ، وإنما هو فيلسوف في نطاق العلوم التجريبية التي يقوم برهانها على الوقائع والمشاهدات وأن تناولت مباحث التاريخ والأخلاق ، ولا تقيم براهينها على الفروض والأقيسة من قبيل براهين الكائنات لاثبات الفضاء المحدود وغير المحدود

وبعد أكثر من عشر سنوات ، سمعت منه مثل هذا الرأي في فلسفة « ما وراء الطبيعة » خلال حديث أذكر مناسبتة ولا أذكر زمنه على التحديد ، وقد كانت هذه المناسبة تعقيبا على مقال للأنسة « مي زيادة » حول فلسفة « برجسون » لم أقرأها على كثير مما فيه ، وكان الدكتور صروف يقرأ تعقيبى وهو يتسم ، ويقول بين آونة وأخرى : « يا رجل ! . . اتمرجل على بنت ؟ . . » فاستعدت منه المقال ، وعلمت بعد ذلك أنه أطلع الأنسة على ملخص ذلك التعقيب !

وفي خلال المناقشة حول كلام الأنسة ، وتعقيبى عليه ، علمت منه مرة أخرى أنه ينظر الى الفلسفات التي على غرار فلسفة برجسون من ناحيتها العلمية التي تنطبق على قضايا الحياة الانسانية ، ولا تخوض وراء ذلك في احاديث «الغيبات» وفروض ما وراء الطبيعة ، وأن فكرة التطور في كتابة برجسون تعنيه لأنها على اتصال بمذهب داروين ، ولا أذكر أنني سمعت منه - يومئذ - كلاما يدل على التوسع في الاطلاع على مذهب الفيلسوف الفرنسي ، ولا على مذاهب زملائه الاوربيين في تلك الفترة

وبعد سنوات أخرى قرأت خلاصة المناقشة التي دارت بين الدكتور صروف وبين الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس على مبارك باشا ، فأكدت لي أصالة هذه النظرة الى الفلسفة في رأى الدكتور صروف منذ زمن بعيد ، وخلاصة هذه المناقشة انهم تحدثوا في المجلس عن كاتب وصفته الصحف بالفيلسوف فقال الدكتور : « ان الناس قد ابتدأوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها » ثم تساءل الحاضرون : « من يكون الفيلسوف اذن على المعنى الصحيح ؟ » . قال الدكتور في رواية السيد رشيد رضا : « هو الذى يتقن جميع العلوم » . فقال الشيخ محمد عبده : « اذن لا يوجد على الارض فيلسوف » فعاد الدكتور يقول ما معناه : « انه لا بد ان يتقن علما من العلوم ويلم بسائرهما » فقال الشيخ محمد عبده : « ان الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وقبلها الثانوية ، على الملم بالعلوم ويتقنون بعضها . . فما أكثر الفلاسفة بين الاطباء والمهندسين وسائر الطلاب بهذا المعنى ! » ولما سئل الشيخ محمد عبده : « من يكون الفيلسوف اذن ؟ » قال : « ان الفيلسوف - كما يفهمه - هو الذى له رأى في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه »

ولم ازل ألقى الدكتور صروف بين آونة وأخرى الى ما قبل وفاته بقليل ، فأعرف منه في كل مقابلة صورة واحدة لم تتغير منذ رأيت له للمرة الاولى : صورة فيلسوف له عقل عالم مشغول بالواقع من الخبرة العملية ، وله مع هذا العقل العلمى قلب انسان ودود يحب الخير للناس ويغتنب بتوفيقهم للنجاح . .

واذكر اغتباطه بتوفيق الناشئين الى النجاح لأن كتابه المترجم عن صمويل سمايلز باسم « سر النجاح » كان

اول كتاب قرأته له واخبرته باعجابه به حين سألتني عن مؤلفاته ، ولم أزل كلما زرتة اسمع منه سؤالا واحدا قبل كل سؤال : « ماذا صنعت لنفسك ولستقبلك ؟ » فوقر في نفسي ان كتاب « سر النجاح » لم يكن مجرد كتاب ترجمه وأضاف اليه ودل به على طريقته العلمية في تحقيق السير والاخلاق ، ولكنه كان قبل ذلك ترجمانا لسجية الخير والمودة فيه ، وعنوانا لرغبته في الحياة الناجحة ورغبته في تعليم الناشئين جميعا كيف ينجحون ويسعدون بالحياة

كان يقول لي مازحا : « اياك أن تكون من شعراء شكوى الزمان ومعاتبة الاخوان ؟ » وحذار ان تحسب « البؤس » زينة للاديب وقسمة مقدورة للاذكياء ؟ ! .

وسألتني مرة : « ألا تصدق قول القائل : ان الناس في طلب الدين حتى يصلوا الى العلم ، وفي طلب العلم حتى يصلوا الى المال ؟ »

وقبل أن أجيب سؤاله ، ولعله سأله وهو لا ينتظر جوابي عليه ، قال : « أنك ان صدقته او لم تصدقه تستطيع ان تكون على يقين من حقيقة حسابية لا خلاف عليها وهي : اجمع الدراهم والدنانير تجمع نفسها ! »

ولا اعرف احدا من كبار الادباء الذين عرفتهم في ايام نشأتي قد عناه امر عملي الذي اعول عليه في معيشتي غير اثنين : احدهما الدكتور صروف ، والآخر محمدا المويلحي الذي رشحني للعمل بديوان الاوقاف «

فلما علم الدكتور صروف أنني استقلت من العمل بالمدرسة الاعدادية ، فكر مليا ثم قال : « انني اعلم ان القيادة العسكرية تبحث عن مندوبين صحفيين وتفضل ان يكونوا من المسلمين ، لانها تنوى ان تندبهم من حين الى حين

للسفر الى خطوط القتال وراء القناة وفي حدود سيناء ،
ولا تريد أن يكونوا متهمين في رواياتهم عن مناعة تلك
الخطوط ان كانوا على غير دين الترك المغيرين على البلاد

فلما تبين منى النفور من القيام بهذه المهمة الصحفية
مع وفرة العائدة منها ، قال : « أرى ان شعورك غير
مستريح اليها .. وقالها بالانجليزية : «You don't
sympathize with the mission».

فأجبتة : « نعم .. فان المسألة ان كانت من احدى
جهتيها غارة تركية على حدود مصر ، فهي من الجهة
الأخرى حرب بين الجيش التركي وجيش الاحتلال ! »
قال : « فليكن لك رأيك وشعورك » .. ثم سألني ان
اعود اليه بعد يوم لامر لا علاقة له بهذه البعثة ، فاذا به
قد اتصل بمدير مدرسة وادى النيل ليبلغه انه يرشح
لمدرسته معلمين يعرف كفايتهما الادبية وصلاحيتهما للتدريس
ويسأله أن يزوره غدا ليلقاها عندده اذا شاء

اما اختياره لهذه المدرسة بذاتها ، فقد كان سببه -
كما علمنا بعد ذلك - ان له (اطيانا) باقليم الفيوم ،
وانه عرف عبد الله وهبى باشا لهذا السبب معرفة وثيقة
يوم كان عبد الله باشا كبيرا للمهندسين المشرفين على الري
في ذلك الاقليم ، وقد ذكر لنا ان الباشا كان حسن العناية
باطيانه ، ولم يذكر لنا انه هو - اى الدكتور صروف -
كانت له يد في تزكية الباشا عند كبار الرؤساء الانجليز ،
ودفع الوشاية التى عرضته للمحاكمة وانتهت باستقالته
دون تقديمه الى مجلس التأديب

وقد كان من جراء ذلك ، ان عبد الله وهبى باشا لم يأمل
خيرا في وظائف الحكومة لابنائهم ، فأنشأ المدرسة الثانوية
باسم « وادى النيل » لابنه الاكبر ، واتجه أبناؤه الآخرون
اسماعيل ويوسف وعباس للعمل المستقل في المحاماة وفن

التمثيل وشركات الهندسة والمعمار
واننى لأذكر كلمة «الاطيان» هنا كما كان يرددها الدكتور
في طيبة وديعة لا ننساها ، لاننا كنا نحس منه ارتياحا
لتكرارها وهو يقول : « ذهبت الى اطياني » و « شكرت
لعبدالله باشا عنايته بأطياني » ، و « فكرت في قضاء
الصيف بأطياني » ، . . . وكنا نحس مع هذا التكرار بغبطة
بريئة كغبطة الطفل بكسوته الجديدة في غير عتو ولا خيلاء
ونحس مرة اخرى اننا مع الفيلسوف العليم بحكمة الحياة
وحب النجاح

وتعددت الزيارات لدار المقتطف بعد اشتغالي بمدرسة
وادي النيل لان الدارين كانتا متقاربتين يومئذ بحى باب
اللق ، وكانت مكتبتى الخاصة لاتكفى للمراجعة في مباحث
التاريخ والادب التى كنت اتطلب مراجعتها بدار الكتب
وفي غيرها ، وقد رخص لى الدكتور فى الانتفاع بمكتبة
المقتطف ومجلداته القديمة كلما وجدت فيها منتفعا
لبحوثى التى كان يسميها بالبحوث «السبنسرية» نسبة
الى هنربرت سبنسر امام مذهب الفلسفة والتقدم فى
الفلسفة الانجليزية ، اذ كان يقول كلما ناقشته فى رأى
مخالف لرأيه انها حجة سبنسرية : *Spencerian argument*
وان طريقتى فى الاستدلال تشبه طريقة سبنسر فى
تحقيقاته ، وما كنت لأعيد هذا «التقريظ الشفوى»
اليوم فى كتابتى عنه لولا انه سجله فى المقتطف حين قرظ
ديوان صديقنا المازنى ، فقال عن مقدمتى له انها اشتملت
على تحقيقات تشبه طريقة سبنسر فى الاستدلال

وعلى تعدد الزيارات لم يكن ينسى كلما زرته أن يسألنى
عما أصنعه لنفسى ولستقبلى، وعما أجده فى المدرسة وفى شواغلى
الادبية ، وكان يحثنى كل مرة على اتمام دراستى لابى العلاء
المعرى التى نشرت منها مقالين فى المقتطف ثم اقتضبتها

للعودة اليها مع زيادة الشرح والتحليل . . فاذا انتقل
الحديث الى موضوعات المقتطف أو موضوعات الدكتور
التي يفكر فيها ، فقلما كان الحديث يستطرد بنا الى غير
اللغة ومسائل الاجتماع مما له علاقة بالدين والاخلاق ،
وقلما عرض للسياسة الا ان تتفق الزيارة على اثر حادث
من الحوادث البارزة التي لا يتخطاها المتحدثون في ابانها،
وكذلك رأيت يوما وعلى وجهه مسحة الامتعاض الظاهر
بعد أن تعاقب القاء القذائف على طائفة من الوزراء ورؤساء
الدولة ، فقال بشيء من المرارة : « اننا تقدمنا جدا
وأفرطنا غاية الافراط في التقدم . . ولم لا؟ . . هذه مبادئ
التطرف في الوطنية تنتهى الى الطرف الاقصى من مبادئ
الفوضويين ! »

وزرته يوما وهو يقرأ كلاما في الصحف عن نهضة
الاسلام وعودة السلطان الى الامم الاسلامية يستشهد فيه
الكاتب بالآية القرآنية من سورة القصص : « ونريد أن
نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم
الوارثين »

فسألني بلهجته اللبنانية متبسطا : « وليش ما عمل؟ »
قلت : « ان الخالق يريد ، وعلى الخلق أن يعملوا بما
أراد »

فعاد يقول في جد ووقار : « نعم يعود الاسلام اذا عاد
اهله الى صدق العقيدة . . » ثم يستطرد فيقول : « ان
الاعرابى والمعزة لا يبقيان على شيء أخضر حيث ذهب . .
ولكن غيرة الاسلام هي التي ابتعثت من الاعرابى صانعا
للدول والسلطنات » وأحسبه قال : « ان عالم الاسلام
— محمد عبده — قد عرف طريق العودة ودل المسلمين
عليه ، وما من طريق لتلك العودة غير العلم والاخلاق »

وربما جشمه البحث عن تحقيق كلمة لغوية أن يصعد السلم ليلتقط هذا الكتاب من هنا وذاك الكتاب من هناك، فلا يستريح أو يحقق الصواب في الكلمة قبل استعمالها فيما يكتب أو يترجم . .

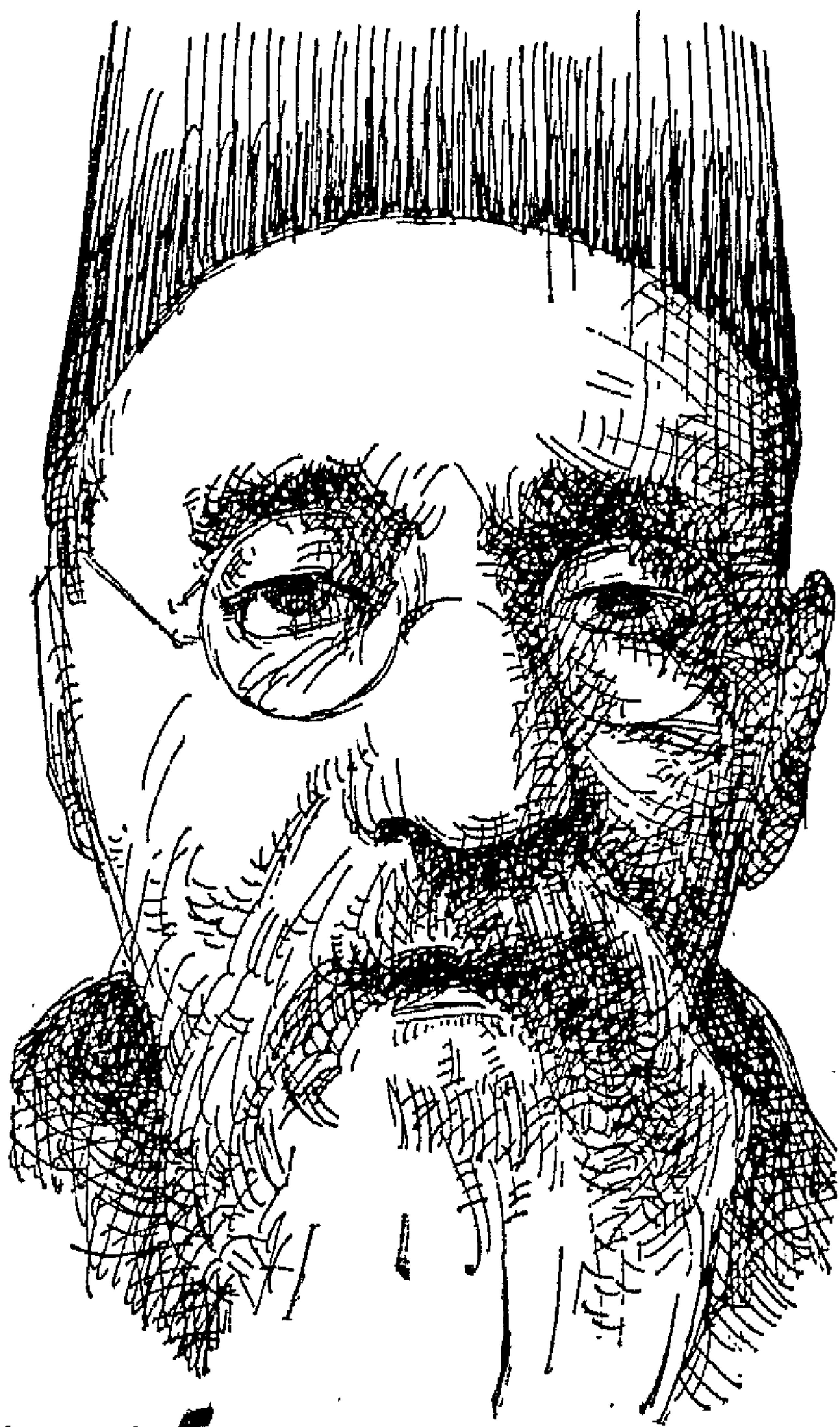
رأيت يوماً على السلم يبحث عن كلمة «الشهية» هل وردت في الكلام الفصيح بمعنى القدرة على اشتهاء الطعام؟ وهل من الجائز أن يقال على بعض التوابل والابازير أنها تفتح «الشهية»؟ . . فأنتهى على أن كلمة المشهيات أصح ما يقال في هذا المعنى، وأن القابلية خير من «الشهية» للدلالة على المقصود من تهيئة الجسم لطلب الطعام

ووجدته يوماً يردد كلمات «نفق ونبق ونبك» بتفخيم الباء والكاف، لأنه كان يشك في أصل كلمة «النفاق» ويحسب أن اجتماع الفاء والقاف في هذا الوزن قليل في اللغة العربية مطروق في اللغات السامية والتركية

قلت له: «لقد اجتمعتا في كلمتي الفقر والفراق وهما عربيتان بلا خلاف». قال ضاحكاً: «يا سوء ما اجتمعتا: فقر وفراق! . .»

وتطرقت الأحاديث كثيراً إلى مسائل الدين، ولم يكن يكتف رأيه أن الخلاف قائم بين بعض العقائد وبعض المشاهدات العلمية، ولكنني لم أسمع قط يتكلم عن الدين في أجماله بغير الاحترام، ولم يكن له موقف من الديانات ورجالها غير موقف «سيد المجتمع» من العلية المسئولة، وهو كما رأيت منه في شتى المناسبات شبيه بموقف الرجل المذهب أمام الشيخ المطاع، بما له من حق السن والخبرة في كل ما خالفته فيه

وكذلك كان الفيلسوف الوديع في عادات تفكيره وسلوكه: إنساناً اجتماعياً يعطى العلم والعمل حقهما، ولا ينسى حقاً من حقوق العرف والتقاليد



جیل صدی الزهراء

من اللوحة الاولى تمثل لى كل ما فى طوية هذه
«الشخصية» القلقة من نقائص التفكير :

حماسة تختلج لها كل اعصاب جسده ويتهدج معها
صوته وتتلاحق فيه كلماته ونبراته ..
وفيم هذه الحماسة ؟ ..

فى النداء بالعقل وحده ، دون ان تخامره سورة من
حماسة العاطفة والخيال ..
ذلك هو الزهاوى فى حديثه ، وذلك هو الزهاوى فى
صفحات كتبه ودواوينه ..

دعوة الى برهان الواقع والمنطق ، وصرخة من صرخات
الشعور .. كأنها فقدت كل برهان وكل وسيلة من وسائل
الاقناع ..

وكان لقائى الاول له فى مجلس الأنسة «مى» بمسكنها
الاول عند ضريح الشيخ « المغيربى » وهو من مزارات
القاهرة فى حى من احيائها التى تسمى بالافرنجية ..

وقد ساقنا الحديث عن الضريح المعارض فى غير مكانه
الى الحديث عن الخرافات التى تروى عن كرامات الاولياء،
واستطرد به هذا الحديث الى ذكرياته عن مجلس الاعيان
بالعاصمة التركية يوم كان عضوا من أعضائه العرب فى عهد
السلطان عبدالحميد

قال : « ان قطعة من قطع الاسطول العثماني احترقت ،
فقام احد زملائه في المجلس يقترح على الوزارة ان تشتري
من كتاب « البخارى » نسخا بعدد قطع الاسطول تودعها
فيها ، امانا من الحريق وضمانا للسلامة »

فوثب الزهاوى ليرد على الزميل ، وليقول له : « ان
السفن الحربية لا تسير في هذا الزمن بالبخارى .. وانما
تسير بالبخار ! »

وقد وثب الزهاوى وهو يعيد هذه القصة ما استطاع
الوثوب ..

وداعبته قائلا : « وهل سلمت من عاقبة هذا
التجديف ؟ »

قال في غير تمهل : « ان لم اسلم فانى لم أندم ! .. »
وأعجبت الأنسة « مى » بحديثه ، فأولعت به تستثيره
لمناقشتى في مسألتين لم يكن بيننا قط وفاق على واحدة
منهما : مسألة الالم ، ومسألة المرأة

فقد كانت تدين بأن الالم طبيعة الحياة ، وكنت أعود
بقضية الالم الى قضية المرأة كلما سمعتها تردد هذه
العقيدة ، فما هى الا طبيعة الشكوى التى تحلو لبنيات
حواء ، وطبيعة الحنان الذى يسرها أن تعطيه كما يسرها
ان تتلقاه ..

اما الخلاف على قضية المرأة ، فقد كنت فيها مع
السيدة والدة الأنسة طرفا واحدا تنفرد أمامه الأنسة
وحدها كلما اختلفنا على كفاية المرأة للنياحة وللانتخاب ،
في ابان معركة الدستور ..

وأذكر اننى استحلقتها يوما اذا تنافس امامها مرشح
يمشى على قدميه الى صندوق الانتخاب ومرشح آخر

يصل اليه فى سيارته « الرولز رويس » فمن منهما يظفر بصوتها ؟

فأسرعت والدتها تجيب عنها : « انا اقول لك ولا حاجة بك الى كلامها : صاحب السيارة ولا خلاف ! »
فلما حمل الراية فى هذا الخلاف رجل « من جنسى » كانت شماتها اكبر من شماتة الغلبة فى الراى ، وطفقت تستعيده الى قضية المرافعة والى قضية الالم تارة اخرى كلما اوشكنا ان نفرغ منهما ، فلما اردت ان احسم هذا « النزاع » المدبر اخيرا وقلت للاستاذ : « اننى قد ارى معك ان الالم اكثر من الافراح فى الحياة . » صفقت بيديها وضحك الزهاوى ، ولم امهله حتى حسبت عليه هذا الضحك حجة تفند دعواه ، فسألته : « أملك لاتنتصر كثيرا مثل هذا الانتصار ؟ »

ولسنا بصدد الافاضة فى هذه المسألة لبيان ما اعتقد فى نصيب الحياة من اللذة والالم ، ولكننى اوجز ما عنيت بكثرة الالم مع انكار طبيعة الالم فى الحياة . . عنيت أن الحوائل دون الفرحة قد لتكاثر وتكرر ، ولكنها لا تمنع ان طبيعة الحياة بغير حائل هى الفرحة والرجاء . .

ورأيت بقية النقائص فى هذه « الشخصية » - التى لا تعرف التوافق بينها وبين نفسها - يوم زرتة بمسكنه فى حجرته المفروشة الى جوار صحيفة الاهرام ، فقد كان نصير السفور الاكبر يخاطب زوجته من وراء ستار كفيف يحجبها عن النظر ويكاد يحجب صوتها الخفيض لو لم نجتهد فى الاصغاء اليه !

ولم اكذ افرغ من التحدث اليه فى جملة عقائده حتى تحققت أنها وثبات كوثبات اللاعب الرياضى فى سبالة واحدة : صعود وهبوط ثم هبوط وصعود ، ثم عود الى

الصعود وعود إلى الهبوط .. كأنما كان كل وقت من أوقاته نموذجا مختصرا لأدوار التطور في العمر كله ، لولا أنها أدوار لا تتسلسل على أطراد ..

وعلمت بسفره في اللحظة الأخيرة ، فأسرعت إلى محطة العاصمة أودعه وتمنيت أن أراه مرة أخرى في القاهرة فقال : « ذلك ما أرجوه ، وأحب إلى أن أراك في بغداد »

ثم تمت النقائض جميعا بعد سفره ببضعة أشهر ..
اذ سألتني أحد قرائه في تونس عن رأيي في أدبه ، فأبدت ذلك الرأي كما اعتقدته ، وقلت أنه في بحوثه الفكرية أرجح منه في معانيه الشعرية

وكان من الحق أن يغتبط نصير العقل على العاطفة بهذا الثناء الذي لا غنى فيه من وجهة نظره ، لو استقام على السواء في إيمانه بالعقل دون الشعور والخيال ، ولكنه غضب مما كان خليقا أن يرضيه ، وجاءني البريد من بغداد بخطاب عليه توقيع مستعار ، يقول كاتبه : أن مجلة « لغة العرب » للاب الكرملى تنوى أن تتناول ديوانك بالنقد اللاذع في لفظه ومعناه ، وإن الزهاوى صديق للكرملى في وسعه أن يثنيه عما ينتويه !

ان في هذه المناورة « البريئة » دلالة على طيبة في غضب الرجل أظرف وأطرف من طيبته في رضاه ، وانها - ولأريب - لن تصدر من قلب يضم الكيد ، أو يكون له من الكيد حظ أوفر من حظ الطفل البريء !



اطلعت في مجلة « المكتبة البغدادية على مقال للسيد اكرم زعيترا عن (ذكرياته لشاعر العراق الزهاوى) قال فيه من حديث جبرى بينه وبين الشاعر فى آخر لقاء له قبل سفره من بغداد :

« قال - اى الزهاوى - هل اطلعت على الاوشال ؟
قد كنت اظن وقد رق عظمى ان زمنى لن يمتد بى كثيرا ،
فسميت مجموعة قصائدى الاخيرة « الاوشال » ثم
نظمت بعد ذلك قصائد اخرى ، اعتقد انها آخر ما انظم
فى حياتى التى ارانى مفادرها قريبا ، وقد جمعتها فى
ديوان سميته الثمالة ليكون آخر ما يطبع لى . . . »

قلت : « وهل للاستاذ شعر لم يطبع غير الثمالة ؟ »
قال : « أجل . . انه ديوان لاينشر فى القرن العشرين »
وكنت قد علمت من الزهاوى نفسه ان له شعرا
كثيرا لاينشره ، وانه سيوصى بنشره بعد وفاته . وفارق
القاهرة وهو يكرر لى حديثه عن الشعر المطوى الذى
يعتقد انه اذا نشر فى يوم من الايام فلن يتسع لنشره
بلد غير القاهرة بين البلدان الشرقية

وقد سمعت أخيرا ان كتابا ظهر فى القاهرة باسم
« الزهاوى وديوانه المفقود » فاعتقدت لاول وهلة انه
هو مجموعة الشعر التى تحدث عنها الزهاوى الى
الاستاذ اكرم زعيترا ببغداد وأوماً بنأها الى القاهرة ،

واطلعت على الكتاب لمؤلفه الاديب « هلال ناجى »
فصدق ظنى فى موضوعه ، وان كان المؤلف الاديب قد
توسع فى ابوابه فتناول فيه مباحث شتى عن الزهاوى
وما كتبه وما كتب عنه ، غير ديوان « النزغات » وهو
اسم الديوان المفقود

وحصر المؤلف على تحقيق نسبة « النزغات » الى
الزهاوى ، فاستقصى الشواهد والقرائن التى تدل على
صحة هذه النسبة . . وكلها مقنعة ، بل قاطعة ، فى
اثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التى
احتواها ديوان « النزغات » ، كما تركه الزهاوى عند
تسليمه الى الاستاذ سلامة موسى ، وعند انتقاله منه
الى الدكتور زكى أبى شادى بغير زيادة فيه ، وهو
مرقوم على الآلة الكاتبة غير مصحوب بالاصل المخطوط
على اننا نستطيع ان نصحح نسبة النظم فى هذا
الديوان الى الزهاوى من الدليل « الداخلى » فى أسلوب
الشاعر « النظمى » كما يقول النقاد ، واظهر ما فى هذا
الدليل « الداخلى » ان آيات القصائد والمقطوعات
تتضمن على كثير من ذلك الشد والفتل الذى يطوع به
الشاعر كلماته لأوزان العروض

فالشاعر الذى يقول :

عاش فى الغاب القرد دهرا طويلا
قبل أن يلقى للرقى سبيلا

هو الشاعر الذى يقول فى ديوان النزغات :

— هذه الدنيا دار كل جزاء —

وهو الذى يقول فيه :

هسى الذى عاف أرضه أن

يضمه عالم جديد

وغير ذلك كثير من « الاسلوب النظمى » فى سائر منظومات الديوان ..

أما الاسلوب « الفكرى » فهو كذلك مطابق لاسلوب الزهاوى فى كل مانظم من الشعر منذ عالج نظمته فى أوائل حياته ، ومما لاشك فيه أن افكار الديوان المفقود ليست غورا جديدا فى تكوين آراء الشاعر مع الزمن كما قد يتوهم القارئ من قول الزهاوى أنه آخر مانظم ، وأنه يحتوى أفكارا لم ينشرها قبل ذلك فى حياته

اذ المحقق من معارضة دلائل الشك والتردد ودلائل الايمان واليقين ، أن هذه الدلائل جميعا قد وجدت فى مؤلفاته الباكورة كما وجدت فى مؤلفاته الاخيرة ، على درجة واحدة من القوة والوضوح

واغلب الظن أن العالم الدينى المفكر محمد فريد وجدى قد أصاب الحقيقة حين قال فى مجلة الازهر مما نقله الاديب هلال ناجى فى الصفحة الـ « ٣٠٠ » من كتابه .. فانه لاحظ أن الزهاوى : « يكتب الشيء ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه الكائنات .. فقد جرى فيه على اسلوب الماديين .. ثم ختمه بكلمة تحت عنوان « ابتهال » حقر فيها كل الآراء التى قررها فى الكتاب ، وذكر أنه انما جرى فيها على اسلوب الماديين لبيان مذهبهم .. اما هو فيبرا الى الله منهم ومن آرائهم ، ويرجو من يقرأ الكتاب الا يعتد بها قرره فيه »

ثم عقب الاستاذ وجدى على هذا الاسلوب قائلا :

« انه أسلوب في الكتابة كل مايمكن ان يعتذر عنه انه يلجأ اليه هربا مما قرره »

وكل ما نزيده على تعقيب الاستاذ وجدى ان الزهاوى قد يبادر في مفتتح كتابه الى تحقير آراء المتهجمين على الحقائق الكبرى كحقائق عالم الغيب وما يسميه الباحثون بحقائق ما وراء المادة ، فانه افتح كتابه «الكائنات» الذي ألفه في مقتبل صباه بهذين البيتين :

وما الارض بين الكائنات التى ترى
بعينيك الا ذرة صغرت حجما

وانت على الأرض الحقيرة ذرة
تحاول جهلا ان تحيط بها علما

وهذا غاية ما يقوله المفكر المتواضع أمام عظمة الكون لكبح الغلاة من الباحثين في حقائقه عن الشطط الاهوج والغرور الكاذب بقدرة العقل البشرى على ادراك هذه الاسرار المطبقة حول حقائق الوجود

والذى نلاحظه في مواقف الزهاوى العقلية بين الشك واليقين سهولة شكوكه وسهولة ردوده عليها في وقت واحد :

فكل شكوك الزهاوى بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الاولى ، لانها مبنية على تصور العامة الجاهلاء للخرافات والاساطير التى يلصقونها بالدين وهو برىء منها بعيد عنها ، وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغى ان يفهمه المؤمنون به على صحته ، وقد كان خطأ الزهاوى الاكبر انه يتلقى حجة العقائد من الاوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين . . وانما تقوم قضية الدين على الضمير الانسانى الذى يناط به التمييز بين كل دعوة تشيع في العالم ، ولم

تقم حجة الدين قط على ما يفهمه المقلدون أو يفهمه
المغرورون من الادعياء . . وانما تقوم حجته على البصيرة
الصادقة والوحي الأمين

لا جرم كان تقريره لقواعد الايمان بعد ذلك سهلا غنيا
عن جهد التردد والبحث في أمثال تلك الشكوك ، ومن حق
من يبتلى بأمثال تلك الشكوك أن يشوب يقينه الى يقين
الزهاوى الذى عبر عنه بهذه الابيات فى موقف الحساب :

قال ما دينك الذى كنت فى الد
نيا عليه ، وأنت شيخ كبير

قلت : كان الاسلام دينى وهـ
و دين بالاحترام جدير

قال : من ذا الذى عبت فقلت
الله ربى وهو السميع البصير

وقبل ذلك يقول من كلمة منشورة : لم آت فى حياتى
أمرا اذا ولا ارتكبت منكرا . . انظم الشعر وأودعه عصارة
شعورى وتفكيرى ، واجعله منبرا ادافع منه عما يتراءى لى
انه الحق ، غير حاسب لمخالفة الناس اياى حسابا . . .
وهذا ما كان يثيرهم على ويجعلهم يعملون على معاكستى
حتى هموا مرة أن يقتلونى مع انى معتقد بالوحي مؤمن
بالانبياء والمرسلين وملائكة الله وكتبه ، وقمت بشهائم
الدين كلها فصمت وصليت وزكيت وجاهدت وحججت
الى بيت الله وزرت قبر رسوله الكريم «

وهو الذى ردد هذه الشهادة فى مواطن كثيرة من شعره،
كما قال فى هذا المعنى غير مرة :

أنا ما كفرت كل عمرى بالكتاب المنزل

أنا لم أزل أشدو بنعمت للنبي المرسل

وانه بمثل هذا اليقين لخليق أن يكذب كل هاتيك
الشكوك التي تثيرها أوهام الجهلاء وخرافات أصحاب
الخرافات من المقلدين

وجملة القول في الديوان المفقود وفي الدواوين المنشورة
إنها طور واحد من الفكر لم يتغير في مدى خمسين سنة ،
ويوشك أن ينقل كل بيت في ديوان من هذه الدواوين
المتتابعة إلى ديوان آخر صدر قبله أو بعده ، بغير اختلاف
في المعنى أو في النسق أو في الأسلوب ، إلا ما تقتضيه المراتبة
الطويلة من تيسير النظم في نهاية الشوط بعد تعسر فبـه
عند الابتداء

والسرعة إلى التفكير ، مع السرعة إلى العدول عن الفكرة
في وقت واحد ، هما آفة العجلة في مواجهة الزهاوى لمسائل
العلم والأدب أو مسائل الاجتماع والأخلاق ، فليس أسرع
منه إلى اختطاف الرأي الشائع أو اختطاف الرد عليه ،
ونحسب أن بنية الرجل « مسئولة » كما يقولون عن هذا
الولع بالسرعة والقلق من الاستقرار . . فان مصابه بالداء
الذي أقعده عن الحركة قد بدأ معه اضطرابا مقلقا قبل أن
يثقل على أعصابه ويثقله عن حركته ، وما أكثر ما نظم في
« الصراط » وصعوبة العبور عليه من شعره الأول ومن شعره
الآخر

ولا ريب عندنا ، ولا عند قراء الزهاوى شعرا ونثرا ،
في قدرته الفكرية ولا في ملكته الرياضية ولكنك تراجعهم من
بواكيره إلى خواتيمه فيبدو عليه أنه يثب إلى الآراء وثبة
بعد وثبة ولا يتطور معها على أمد مديد يتصل فيه الانتقال
من مكان إلى مكان ، فهو في وثباته المتلاحقة على مكان واحد
يصعد منه وينزل إليه ، ويثبت عليه صاعدا ونازلا ومترددا
ومستقرا ، وهكذا كان في آخر ديوان كما كان في أول ديوان
وللقارئ بعده أن يبقى حيث شاء ، بما هو اهل للبقاء .

جاءنى الخطاب الآتى من أحد القراء بتونس .. قال كاتبه
الاديب بعد ديباجة التعارف :

« أما الآن فبقيامكم ضد الثرثارين ، وتقويضكم لبناء
ما كانوا يحسبونه آثارا أدبية ، واماطتكم اللثام عن كل من
كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتاب المبرزين .. قد
أسفرت النتيجة عن تجدد حقيقى فى اللغة والادب ، اذ
أدركوا ما ترمون اليه فى انتقاداتكم فهبوا يتبارون فيه
جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو « الحياة » ..
نحو « الجمال » .. نحو « المثل العليا » .. تلكم الكلمات
الحية التى ما وجهت طرفى نحو أى سطر من فصولكم
ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو أية صفحة مما تكتبون
الا عثرت عليها .. واصرف مهجتكم الى هذه المطالب
ونقدكم الصحيح الخالص من الاغراض ، وسعيكم وراء
الحقيقة .. رضى القوم أم غضبوا - أتيت أعرض عليكم
كلمة فى رفيق صباى ومربى روحى راجيا منكم التفضل
بإبداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفا .. لأن كل
هاتيكم خلال جعلتنى كما جعلت غيرى يعتبرون قولكم
الفصل فيمن تكتبون له أو عليه

ذلكم الرفيق يا سيدى هو فخر العراق كما تقولون
جميل صدقى الزهاوى ، فقد عرفته منذ دخلت المدرسة
وولعت بديوانه حتى أنسى كدت أن احفظه نثرا ونظما ،
فمن نزعته فى الشعر الى قوله فى القبر :

ولست بمسئول اذا ما سكنته
أكنت عبدت الله قبلا أم اللاتا

الى قوله في مهاجميه :

يا قوم مهلا مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله في تكفيرى

وعندما أسام استمرار قراءتى فيه ، أعمد بعد تحضير
واجباتى المدرسية الى مطالعة أحد الدواوين فأرى نفسى
كأننى انتقلت من روضة حافلة بازهار من كل صنف
زاهية بالماء الزلال الجارى و « الهزار » على أغصان
أشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية الى أرض قاحلة
لا ماء فيها ولا شجر ولا هزار .. فلا البث ان اعود الى
ديوانى الأول ، وشغفى به يزداد كلما رأيته سابقا وغيره
لاحقا .. وهكذا ..

وما أقوله لكم في ديوانه ، أقوله لكم في مباحثه التى
تنشر فى « الهلال » ، حتى اننى لم أجد فيه فصلا من
فصول جميل انقبضت نفسى لذلك كثيرا .. واذا رأيت
فيه مبحثا له قدمته على سائر الموضوعات ، فقراته
وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهنى جمل منه ..
ومن الجمل أفكار ، ومن الأفكار مناقشة ، تنتهى بى الى
قضاء جزء كبير من أوقاتى معه . وحمادى القول ان السيد
جميل لهو أحق بالنقد من سواه ، وبمن يظهر آثاره
الأدبية والفلسفية . وهذا لا يتصدى للبحث فيه
الا أمثالكم الذين يقدرون الأدب حق قدره ، اذ من العار
ان نبقى كما قال فيلسوف العراق لا نعرف قيمة اللاديب
فى قطرنا الا بعد مماته :

من بعد ما فى قبره أوصاله تتبعثر
ماذا من التكريم ير جو ميت لا يشعر

هذا واننى اعتذر الى سيدى الأستاذ من تجرئى على
مكاتبتة ، اذ لست ممن يراسلون أمثاله . . واولا اعجابى
بـ « جميل صدقى الزهاوى » وحبى لناقد خبير ينشر
للقراء آراءه ، ويبين لهم فجها من ناضجها ، ما تسرعت فى
المراسلة . أترجى ما يقال فى فخر العراق وعنه »

جاءنى هذا الخطاب من شهر مضى ، وفيه غير ما نشرت
هنا كلام مسهب فى مثل هذا المعنى ولواحقه . . فتوسمت
من أهجته وخلوص اعجابه أدبا جما ونفسا مستشرقة الى
الحقيقة ، وهممت أن أجيبه الى رغبته ولكننى ترددت
لأننى أعلم اننى استطيع ان اتبسط فى شرح كل رأى أراه
فى الأدب والشعر ، دون ان اعرض للأستاذ الزهاوى نقدا
أو تحبيذا . خلافا أو وفاقا ، ولأننى أوقر هذا الباحث
الفاضل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقته وجرأته
فى جهاده وغبنه بين قومه ، فلا أحب أن أقول فيه - لغير
ضرورة من ضرورات البحث - مقالا لا يوائم ذلك التوقير
ولا يناسب ما له عندى من القدر والرعاية . . ثم عن لى
أن فى الكلام عليه مجالا لكلمة أخرى يقال عن التفريق بين
الملكة العلمية والملكة الشعرية وبين بديهة الفيلسوف
وبديهة العالم ، لا ضير منها على أحد عامة ولا على الأستاذ
الزهاوى ومن يعجبون به خاصة . . اذ هو ممن يقال فيهم
قول حق لا يفضب الطبيعة القوية والنفس المروضة
والضمير الواثق من قصده وعمله ، فكتبت هذا الفصل
الموجز آملا أن أجيء فيه بحقيقة تسوغ المساس برجل
لا أحب أن امسه بغير ما يرضيه

اول كتاب قرأت للزهاوى كان كتاب « الكائنات » أو

رسالة الكائنات ، لأنها عجيبة مختصرة من القلح الصغير . . وكان ذلك قبل عدة سنوات ، وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة . . فراقنى من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجسرة على العقائد الموروثة مع ما فى ختام الرسالة من اعتذار لا يخفى ما وراءه ولا يغير رأى القارىء فيما تقدمه . وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقاً صحيحاً يذكر القارىء بإشارات ابن سينا ونجاته ويزيد عليهما بالجلال والترتيب . . ثم قسرات للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار ، وكان آخر ما قرأت له رسالة « المجلد مما أرى » ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين

هل الزهاوى شاعر ، أو عالم ، أو فيلسوف ؟ . . ان آثاره فى الشعر والنثر تدعوك الى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالم ، ونظمه يسلكه بين طلاب المقاصد الشعرية . . وقد يختلف جواب الناس على السؤال الذى سألناه فيعده بعضهم من الفلاسفة وبعضهم من الشعراء ، ويميل به بعضهم الى فريق العلماء . . أما انا فرأيت فيه أنه صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتنظم الشعر بأداة العلم ووسائل العلماء

الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الاشياء التى يحسها ويدركها أو يمكن ان تحس وتدرك بالعيان وما يشبه العيان ، فاذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها . . ولست فى آرائه مواطن

التحليل والتعليل ، ولكنك تضل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا ، وتلتفت الى البديهة فإذا هي محدودة في أعماقها وأعاليتها بسدود من الحس والمنطق لا تخلق لها مطالع الأفق ولا مسارب الأغوار ، فهو يريد أن يعيش أبدا في دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ، ولا تنطبق فيها الأجفان ولا تتناجى فيها الأحلام . . وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا أو شمسًا ، ولكنها كذلك ليل وغياب لا تجدى فيها الكهرباء ! وقد خلق الخيال والبداهة للإنسان قبل أن يخلق العقل ، ثم جاء العقل ليتمهما ويأخذ منهما لا ليغنيهما ويصم دونهما أذنيه . . فأما الزهاوى فهو يحاول أن يلغى الخيال والبداهة ، ويظن أن الإنسان لا يتصل بالكون إلا بعقله ولا يهتدى الى الطريق المفطور إلا بعقله ، وليس هذا بصحيح في حكم العقل نفسه إذا أنصف العقل ووفى لمنشأه الأول وقصارى مطمحه الأخير أن كل منطق لا يكون صحيحا إلا إذا دخل في حسابه أمران محيطان بنا متغلغلان فينا لا مهرب منهما ولا روغان . . نعى بهذين الأمرين « المجهول » أولا و « العاطفة » ثانيا ، فهما راصدان لكل قضية منطقية يهدمانها هدمًا ما لم يكن لهما في زواياها مكان مقدور ، فالعالم لا شأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسبها الشعراء ، وهو ، إذا أراد ، حصر نفسه في عمله وخرج منه بنتيجة عملية لاغبار عليها من ناحية النقد والاستقراء . . ولكن الفيلسوف إذا خرج الى دنيا لا مجهول فيها ولا عاطفة توحى اليها إنما يخرج الى دنيا غير دنيانا هذه . . وإنما يأتى لنا بفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا الذى يحيط به مجهوله وتعمل فيه عواطفه ، وقد يصيب بمنطقه هذا فى حقائق الأرقام والاحصاءات ولكنه لا يصيب به فى معانى الشعور وأسرار الحياة ، إذ كيف يحسب حسابا

لهذه المعانى والأسرار وهو لا يحسنها ولا ينقاد لدوافعها ؟ . .
وكيف يصيب فى المباحث النفسية وهو لا يحسب حسابا
لتلك المعانى والأسرار ؟

من منا يكون محبا معقولا مطابقا للمنطق اذا هو نظر
الى حبيبه بالعين التى يراه بها جميع الناس ؟ ان نظرك
اليه قد يكون معقولا مطابقا للمنطق اذا نظرت اليه بتلك
العين التى يراه بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سواه ،
ولكنك انت نفسك - انت الناظر - لا تكون « محبا
منطقيا » موافقا للمعقول والمعلوم من شئون المحبين حين
تساوى انت وسائر الناس فى الاعجاب بحبيبتك ، لأن
المحب المعقول هو الذى يرى حبيبته بعين لا يراها بهما
الآخرون . . وكذلك الحياة قد تكون انت منطقيا اذا عرفت
بالعقل وحده كما يعرفها غير الأحياء لو كان غير الأحياء
يعرفون الحياة . . ولكنك لا تكون « حيا منطقيا » اذا
انت لم تعرفها كما يعرفها كل حى مخدوع بها غارق فى
غمرة عواطفها وأشجانها . . فكن لنا « حيا منطقيا » أو
انت اذن انسان لا يعيننا رايه فى الحياة لأنه ليس منها
بمكان قريب أو على اتصال وثيق

والزهاوى تخونه الحقيقة حيث يسعى اليها على جناح
من العقل ، لا يعضده جناح من الشعور . . فلم اغتبط
بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول
- بالمنطق - أن يشبث الرجعة الى هذه الأرض بعد الممات
أو الى عالم آخر ينتقل اليه الانسان ، فهو يقول فى «المجمل
مما أرى » أن « مظاهر الحياة من مظاهر المادة التى ليست
فى أصلها الا قوة . وان هذا الفضاء الذى صرحت بأنه
لايتناهى ، يحتوى على عدد غير متناه من العوالم النجمية ،
وان فى كثير من هذه العوالم نظاما مثل نظامنا الشمسى ،

وان في ذلك النظام ارضا مثل ارضنا ، وفي بعضها ارض
نشبه ارضنا الى زمن محدود ثم تختلف عنها ، وان في
كل ارض مشابهة لارضنا انسانا مثلى وآخر مثلك واخرين
مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آباؤهم كما في ارضنا ،
وقد جرى لآبائهم فيها ما جرى لهم في هذه تماما . .

» وبعض هذه الارضين اليوم مثل ارضنا في حالتها
الحاضرة ، وبعضها اخذت تهدم ، وبعضها في بداءة تألفها
. . فاذا مات الانسان في ارضنا ، فهو يولد في غيرها من
نفس آباءه الذين ولد في ارضه هذه منهم ، واذا ان هذه
الارضين لا تتناهي فكل فرد من الناس غير متناهي العدد
. . غير أنه في كل ارض واحد يجهل أن له امثالا في هذا
الكون اللامتناهي ، وان الذي يشقى في هذه قد يسعد في
التي تشبهها الى زمن محدود ثم نخالفها فان عدد هذه
المخالفات أيضا غير متناه ، والذي يسعد في هذه قد يشقى
في تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على
السواء . . فان زيدا اذا كان هنا شقيا فهو في اخرى
سعيد ، واذا كان سعيدا فهو في تلك شقى . وارضنا هذه
بعد أن تصير الى الأثر تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من
السنين ، فيجرى عليها تطوراتها طبق ما جرت في دورها
هذا ، ويتولد آباؤنا كما تولدوا ، ونتولد منهم كما تولدنا ،
ونموت كما في هذه المرة وقد تكررنا من الأزل وسوف
نتكرر الى الأبد . .

» ورب قائل : ما الفائدة من هذا التكرار وهو لا يتذكر
ما مر به في أدواره الأولى ؟ فأجيب : ان فائدة التذكر هي
العلم ، فاذا حصل الينا العلم بطريقة أخرى فهو مثل
العلم بالذكر وكفى به تفعا انه يطامن الانسان أن موته
مؤقت ليس ابديا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة .

الأول أن العالم بما فيه من الأجرام غير متناه . والثاني أن لا شيء يذهب الى العدم بل ينحل تركيبه وينحل الى الاثير بعد تطورات متعددة . . وهذا الاثير يتركب من جديد فيكون مادة بعد تطورات متعددة ، ثم ينحل ثم يتركب الى ما لا يتناهى . والثالث أن جواهر كل جرم من الأجرام متناهية العدد . مهما كثر هذا العدد ، وأقذارها كذلك متناهية . . ولا يمكن أن يوجد جرم واحد غير متناهى السعة . والأرض هذه تتألف فى أزمنة غير متناهية على أشكال متناهية لان جواهرها متناهية ، وشكلها الحاضر أحد تلك الأشكال غير المتناهية التى تتألف عليها . وتدور من أحدها الى الآخر . . فهو كغيره من الاشكال يتكرر الى مالا نهاية له ، والانسان جزء متمم لشكلها الحاضر . . فهو أيضا يعود بشكله وعقله والا لم يكن الدور تاما ، والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدورى الأعظم »

هذه هى نظرية الدور كما أجملها الاستاذ الزهاوى فى رسالته « المجلد ممبا أرى » . . فالمنطق هنا يتكلم ، ولكن حب الحياة هو الذى يحركه الى الكلام ! . . على أنه بعد منطق لم يمتزج بالحياة فى الصميم لانه يتعزى بالعالم ، والحياة لا يعزىها أن تعلم بأنها خالدة وانما يعزىها أن تشعر بالخلود ، وهو بعد هذا وذاك منطق خاطيء لانه يستلزم الدور ولا شيء يدعو الى استلزامه . . فما دامت الجواهر لا تتناهى ، والحركات لا تتناهى ، والفضاء لا يتناهى فالنتيجة أن تكوين الأجرام بأشكالها لا يتناهى . . ولا حاجة الى تكرارها وعودتها هى بعينها مرة بعد مرة الى غير نهاية ، ويجب الآن أن نضرب صفحا عن لا نهاية الزمان التى تجدها باحتمال هذا التكرار فيما يلى أو فيما سبق قبل الآن ، يجب ان نضرب صفحا

عن لا نهاية الزمان لأن لا نهاية الفضاء موجودة فى هذه اللحظة ، فأى شىء فيها يستلزم ان الأرض مكررة فى مكان غير مكانها الذى هى فيه ؟ . لا شىء ! . واذا لم يكن انسانا مكررا على هذه الأرض بعينها ، فلماذا نفرض أن كل انسان مكرر فى أرض تشبهها تمام الشبه فى هذا الفضاء السحيق ؟

ثم الى أين ننتهى من كل ذاك ؟ . ننتهى الى أن الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ، وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجتزأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعور ، فمن ينشده فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه واقبال عليه فى هذا المجال وان خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية . . فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان



قرأت في زميلتنا « السياسية الاسبوعية » ردا للاستاذ الزهاوى على مقال كتبه عنه مجيبا به الاديب التونسي الذى سألنى ابداء رأى فيه ، وكان فحوى ذلك المقال ان نصيب الاستاذ الزهاوى من الملكة العلمية اكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية . . ولم يرض الاستاذ عن هذا الرأى فكتب رده في السياسة الاسبوعية يناقشه ويناقض الاسباب التى بنيتها عليها . . فهو يحب أن يقول أنه فيلسوف وأنه شاعر لا يقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية . وليس يضيرنى أنا أن يزيد عدد الفلاسفة والشعراء فى الارض واحدا أو أكثر ، فأننى لم أتكفل بهم ولا تحسب على أخطاؤهم أو يختلس منى صوابهم . ولست ممن يحبون الجدل فى غير حقيقة تجلى او رأى يستوضح : فان الجدل الذى يطول فيه الاخذ والرد لغير شئ من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة . . فاذا رجعت اليوم الى الموضوع فليست رجعتى اليه لحرص على تقليل حظ الزهاوى من الفلسفة والشعر ، ولا لمطاوله فى الجدل ، وانما هى لاستخراج الحقيقة التى أردتها من رد الاستاذ نفسه ، وبيان المعنى الذى ذهبت اليه من طريقة الاستاذ فى ملاحظة الاشياء وفهم اعمال الناس

ليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير فى أدراك

الاستاذ الزهاوى لاغتيال الانسان ، ولهذا فانه يخطيء في
تصورها والحكم عليها ومتابعتها الى اسبابها وغاياتها ،
وفي رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف - فضلا عن
الشاعر - الى حساب ذلك الحساب ، وفهم الانسان ومكانه
في هذا الكون كما هو انسان في حقيقته لا كما يتصوره
الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى
الشعور . . . واليك بعض هذه الادلة مأخوذة من ذلك
المقال :

(١) يقول الاستاذ الزهاوى : « من طار بجناح العقل
أخيرا لندبرغ وصل الى باريس من نيويورك في ٣٤ ساعة
فليخبرني الاستاذ الى أين وصل الذين طاروا بجناح
العاطفة ؟ » .

وأنا مخبره الى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة
أخبره أنهم وصلوا من نيويورك الى باريس في ٣٤
ساعة ولعلمهم يصلون غدا في أقل من هذه الساعات ، لأن
لندبرغ لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل
بل بجناح العاطفة وحدها طار ، وعلى جناح العاطفة وحدها
تلقت الجماهير التي هتفت له هتاف الترحيب والاعجاب .
ولم يسبق لندبرغ طائر في الفضاء ، ولن يلحق به طائر
مثله ، إلا كانت العناطفة هي محركه وهي جناحه وهي
جزاؤه اذا نجح وغزاؤه اذا خاب ، وليس الطيران كله الا
حلم من أجلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء
العقل كالخادم الاجير يحقق ما تعلق به الإخيلة واتجهت
اليه الرغبات

وأى عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة
المفقودين في هذا المضمار القاتل ؟ وأى عقل يزين له أن
يرفض المال الذي انشال عليه من شركات البصور وطلاب

المحاضرات والمساجلات ؟ ليس العقل هو الذى اعطانا
الطيارين وآلات الطيران ، وانما هى دوافع الاحساس
وبواعث الخيال ، وهى « العواطف » التى تحمل الانسان
على كل جناح اذا قعد به التفكير وحده فى قرارة العجز
والجمود .

ونتجاوز نحن هذا الحد الى ما بعده ، فنقول ان الغربيين
فى هذا الزمان يسبقوننا فى ميدان الكشف والاختراع
لانهم يطلبون من الحياة فوق ما نطلب . . لا لانهم يحسنون
ما لا نحسنه من الفهم والتفكير ، فكل مصنع يصنعه
الغربيون نستطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على
مثاله . ولكننا لا نستطيع البداية لانها وليدة البواعث وهى
قاعدة عندنا ناهضة عندهم . . فالتفاوت بيننا وبينهم
تفاوت فى البواعث أى فى الخلق والاحساس وليس تفاوتاً
فى العقل والتفكير ، وطريقتنا نحن فى الاحساس بالامور
هى التى ينبغى أن يتناولها الاصلاح وليست طريقتنا فى
فهم ما يحتاج الى الفهم والتحصيل .



(٢) ويقول الاستاذ الزهاوى : « أنا مادي لأرى غير الحواس
أبواباً للمعرفة مستثنياً من ذلك معرفة ذاتي ، ولا أذن
للخيال أو العاطفة أن يلجأ باب الشعر إلا اذا اطمأنت الى
أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التى ما زلت أتعنى بها فى
شعري »

أما الذى أقوله أنا فهو أن الحياة هى خلقت الحواس ،
وهى صقلتها وهذبته وألهمتها أن تعي ما يتصل بها ،
وان الحياة لم تعلن افلاسها بعد خلق الحواس والا قبله
فهى شئ أكبر من الحواس وهى على اتصال وثيق لانفصام
له بهذا الوجود قبل أن تفتح بينها وبينه نوافذ الأناف

والاذواق والاسماع والابصار . . وأن الحواس تتفاضل
بقدر ما فيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من
ظواهر الأشياء . . فالدنيا لا تتغير . ولكن نظر الشباب
اليها غير نظر الشيخ واحساسه بها على الجملة غير
احساسه . . لماذا ؟ لان الحواس تستمد شعورها من القوة
الحية التي خلقتها ونوعتها وهي قادرة على تغيير الخلق
والتنوع . وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق الذي
يجهل أن الوظيفة تسبق العضو ، وأن القوة الحية تنشئ
الحاسة وتزيدها وتهذبها . . فهذه القوة الحية تدرك ما
هي فيه وان اختلف اسلوب ادراكها عن أسلوب الحواس
في الادراك ، بل لولا هذه القوة الحية الخالقة لما عملت
حاسة في الجسم شيئا ، فلتكن للحواس اذن معرفتها
المحدودة التي نعهدها في العلوم والصناعات ، ولكن لا
يعزب عنا ابدا ان وراء هذه الحواس ينبوعا لا ينفذ من
وسائل الادراك ، وان كان ادراكا لا حد له من الصيغ
والتعريفات



(٣) ويقول الاستاذ الزهاوي : « لو جعلنا الخيال
والبداهة في المنزلة التي يضعهما فيها الاستاذ الفيلسوف
لوجب أن يكون الانسان الابتدائي ، بل الحيوان ، أكبر
فلاسفة الارض . . لولا ما ينقصهما من البصيرة والحساب ،
إما الذي اعرفه انا في الفيلسوف فهو تحريه للحقائق
المستورة عن الاكثرين بنظره النافذ ليكشف أسرار الطبيعة
ويستفيد من نواميسها ويفيد غيره ، وما الفيلسوف ذاك
الذي يرضى عواطفه والا كانت الحيوانات كلها فلاسفة كما
سبق . وكم جرح دارون الشهير عواطف الناس بنظريته
في نشوء الانسان من الحيوان ، وكم خالفه أهلها وكم

مقتوه وعادوه وسبوه لانه خالف عواطفهم ، ولكن فى
النهاية كان هو انفيلسوف ومعارضوه بقوا ذوى عواطف
لا غير »

هذا الذى يقوله الاستاذ الزهاوى . . ! ويدهشنى منه
أنه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنها المغنون و « أولاد
البلد » حين يتشاكون جرح العواطف ويتناشدون رعاية
الاحساس ! فهم اذا قالوا : « فلان صاحب عواطف »
قصدوا بهذه الصفة أنه لا يجرح عواطف الآخرين وأنه
« حسيىس » بالمعنى الذى يفهمونه ! وليس هذا ما نريد ،
لان العواطف قد تجرح العواطف كما تبقى عليها . .
فالحب عاطفة ولكنه يجرح نفوسا كثيرة ، والغضب والاعجاب
والحماسة والغيرة عواطف كلها ولكنها قد تجرح من
النفوس أكثر مما تواسيه ، وليس تقسيمنا الناس الى
أصحاب عقول وأصحاب عواطف تقسيما لهم الى من
يجرحون نفوس الآخرين ومن لا يجرحونها ، فان اصحاب
العقول ربما عرفوا كيف يسوسون الناس فلا يغضبونهم
فكانوا بذلك أقمن ألا « يجرحوا العواطف » بلغة المغنين
و « أولاد البلد » المتطرفين

وأدعى من هذا الى الدهشة أن يقول الاستاذ أن نصيب
الحيوان والانسان الاول من الخيال والبديهة أكبر من
نصيب الانسان الاخير ، فالحقيقة أن الحيوان لا خيال له
ولا بديهة . . وأن الانسان الاول أقل نصيبا من الانسان
الاخير فى هاتين الملكتين . وليس نصيبنا نحن من الفهم
ما نعلم أننا نفهمه ، بل نحن نفهم أشياء شتى بالبديهة
وبالخيال ولا نعلم بها وهى تعمل عملها فى الاحساس
والتفكير

ولقد ذكر الاستاذ اسم دارون صاحب النشوء والارتقاء

.. فهل له أن يذكر أيضا ان الخيال كان أصدق من العقل
ألوفاً من السنين حين كان العقل يجزم بقيام كل نوع على
انفراده ، وكان الخيال يقص علينا قصصه ويجزم لنا
بتقارب الانواع وتلاقح الانسان والحيوان ؟ .. نعم ان
الخيال لم يفصل لنا « النظرية » العلمية لان له شأناً غير
هذا الشأن ، ولكن ألم يعم العقل عن تلك النظرية كل
العمى يوم أن كان الخيال يرسمها محرفة بعض التحريف
من وراء الظلال والرموز ؟ وهل للاستاذ أن يذكر أيضا
أن دارون ما كان لينفذ بفطنته الى تقارب الانواع لولا روح
العطف الذي كان يحس به خوالج الحيوان وتعبيراتها على
الوجوه والاعضاء ؟ أيمن أن يؤلف كتاب التعبيرات
الحيوانية ودلالاتها رجل لا يخالطه العطف العميق ، ولا
يسرى بينه وبين الاحياء سيال من الاحساس الدقيق ؟ ..
وما هو نصيب العقل بعد كل هذا في مذهب النشوء
والارتقاء ؟ ما كان له من نصيب الا أن يصحح أخطاءه هو
لا أخطاء الخيال ولا أخطاء الاحساس .. فالحقائق التي
استند اليها النشويون قائمة منذ الابد ، والعقل هو الذي
كان يداريها أو يضل فيها والاحساس

ويسأني الاستاذ : « لا أدري أي مناسبة للعاطفة
بالمنطق » وهذا الذي أقوله أنا .. وأقول معه ان مناسبة
العاطفة أنها هي شيء موجود لا يصح المنطق الا اذا جنب
له حسابه ، فأى منطق يخق له أن يتول عن عمل من أعمال
الناس ينبغي أن يكون هكذا ، أو لا ينبغي أن يكون كذلك
ان لم يكن يحس العاطفة الانسانية ويستكنه مضامينها
ويقيم لها وزنها ؟ .. ان الاستاذ ينبئنا أن العقل أسعد
الانسان بالعلم ، فما هي السعادة .. ؟ ان لم تكن عاطفة
فهى لا شيء ، وان لم يكن العلم علم انسان « عاطف » فلا
حاجة به لانسان

نود أن يتأكد هذا في العقول لأننا على مرحلة يجهل فيها الشرقيون ما ينقصهم ، فيجب أن يعلموا أن الذي ينقصهم هو « الاحساس القويم » وأن سبيل خلاصهم هو سبيل العاطفة الحية والشعور الصادق الجميل . أما نظرية الدور والتسلسل فهي لا تعيننا في هذا الصدد ، ولكنى أرجو الاستاذ الزهاوى أن يسأل نفسه هذه الاسئلة وهي :

(١) ألا يمكن أن نقول ان عدد « الاشكال » لا نهاية له بنفس المعنى الذى نريده حين نقول ان عدد الاجرام والجواهر لا نهاية له فى هذا الفضاء الذى لا يتناهى ؟

(٢) لماذا نشترط البعد فى الزمان والمكان لظهور الشخصين المتماثلين كل التماثل ! لماذا يتحتم أن يكون أحدهما فى هذا الزمن والاخر على مسافة ملايين السنين أو ملايين الاميال ؟ ان المقتضى للتماثل هو أن الاشكال تتناهى والجواهر لا تتناهى فى قول أصحاب الدور والتسلسل . . حسن ، فلا ندعى اذن لاشتراط التباعد بين الشخصين المتماثلين فى الزمان والمكان ، بل يجب أن نرى أناسا كثيرين يتمثلون على سطح هذه الارض فى المدينة الواحدة وفى الوقت الواحد ، والا كان رأى أصحاب الدور والتسلسل باطلا يستند الى دليل مشكوك فيه . . أم تراهم يشترطون التباعد ليقولوا لنا اذا أنكرنا عليهم دعواهم : اذهبوا فطوفوا الفضاء الذى لا حد له ، وجوسسوا فى جوانب الزمان الذى لا بداية له ولا نهاية فان لم تجدوا أناسا يتمثلون واجراما تتماثل فنحن اذن المخطئون وأنتم المصيبون ، وان وجدتم فعودوا الينا بالنبأ اليقين ؟ !

• ان اللحظة الحاضرة من الزمان تشمل أشياء مختلفة مضت عليها أزمنة مختلفة وأوضاع مختلفة ، فهي بهذه المثابة ككل لحظة من الماضى أو المستقبل ، وأن هذا الموضع

من المكان هو ككل موضع غيره في اقتضاء التماثل ان كان له اقتضاء . . فاذا وجب ان نرى شخصين أو أكثر من شخصين يتماثلون كل التماثل على كوكبين بعيدين في زمنين بعيدين ، فيجب - لهذا السبب عينه - ألا يمتنع ظهور مثل هذين الشخصين في هذا المكان في الزمن الحاضر . . والا فما هو المانع أن كان أصحاب الدور والتسلسل يمنعونهم فيما يزعمون ؟

نرجو الاستاذ أن يسأل نفسه هذه الاسئلة ، ونحن نرجح أنه لا يجيب عنها أجوبة يسهل التوفيق بينها وبين القول بالدور والتسلسل ، وليعلم حفظه الله أنه لا الجسراء لنفسى في تكرار « العناد » الى غير نهاية بين أجواز الفضاء وأبديات الزمان . . فاذا ثبت له ثبوت اليقين أن في هذه اللحظة عقادين لا عداد لهم ، يكتبون مقالاتهم في بلاغاتهم الاسبوعية التي تصدر في قواهرهم وأفريقاتهم لئلا يرد على الزهاويين الذين لا أول لهم يعرف ولا آخر لهم يوصف ، فارجأى اليه ان يكتف عن هذه الحقيقة فما في علمها ألا الشقاء بتضاعف الاشغال وتراكم الاحمال ، وما في ذلك ترفيه ولا عزاء . . !





محمد فرید وجہی

هو فريد عصره غير مدافع !..

وتلك كلمة مألوفة طالت الفقهنا حتى رثت وبليت
وأصبحت خروفا بغير معنى ..

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الاقلام في عصر واحد :
كلهم فريد عصره ، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات
.. فلا معنى لها في باب العدد ولا في باب الصفات ،
ولا سيما صفات الرجحان والامتياز ..

الا اننا نقولها اليوم عن « محمد فريد وجدى » لنفيد
اليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفا حرفا ، ولا
يتحرف عنها كثيرا ولا قليلا حتى في لغة المجاز .

فقد عرفنا في عصره طائفة غير قليلة من حملة الاقلام
ورجال الحياة العامة ، فلم نعرف احدا منهم يماثله في
طابعه الذي تفرد به في حياته الخاصة او العامة ، وفي
خلقه او تفكيره ، وفي معيشته اليومية او معيشته الزوجية
واوجز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعا انه لم يخلق في
عصره من يتقارب المثل الاعلى والواقع المشهود في سيرته
كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل « الفريد »

نعم : الفريد حتى في لغة الجناس ، لان اسمه فريد ..
والفريد حتى في عزلته ، لانه كان في عزلة النسب
والرهبان ، عليما غاية العلم بالتحليل والتحريم .

بدا حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط في ايام رخاء
ولا في ايام عسرة ، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا

الطعام بين أهل بيته ، واجتنب الولائم التي يدعى فيها
الى طعام غير طعامه

وأخذ نفسه بسمت الاولين من عباد الله الصالحين ،
فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها
الدين ، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون
من الناطقين

ذكرنا في حديث الخديوى والبكرى : في غير هذا الفصل
- قصة الطرق الصوفية يوم توديع المحمل بميدان المنشية
وخلصتها ان السيد محمد توفيق البكرى كان محققا
على الخديوى في بعض السنين فمنع أصحاب الطبرق من
الخروج لموكب المحمل تحية للامير في ميدان الاختفال ،
فخلا الميدان الا من الموظفين المدعوين . . . وغضب الامير
لانه فهم من ذلك انه زراية بالموكب الذى تعود ان يشهده
العام بعد العام ، فانتهر السيد « توفيق » وقال له
بصوت مسموع على ملا من رجال الدولة : أنت قليل
الادب . . ! وغضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال
وهو يقول للامير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين :
لست أنا قليل الادب . . اننى وزير مثلك ، وآبائى
وأجدادى لهم الفضل على ابائك وأجدادك . . »

ولم تأخذ صحيفة واحدة يناصر السيد البكرى في هذا
الموقف ، لان الصحف الاسلامية لا تغضب الامير من اجل
شيخ الصوفية ، ولان الصحف غير الاسلامية لم تشأ ان
تعرض لمسألة من مسائل الدين

الا صحيفة «الدستور» التي كان يصدرها فريد ، فانها
أخذت يناصر البكرى وهو من غير المتبولين عند صاحبها
لاختلافهما في المسلك والسيره ، ولكن صاحب الدستور
نظر الى شئ واحد في هذا الخلاف ، وهو ان مظاهر

الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها ، وان الامر لم يكن على حق في غضبه على شيخ الطرق لمنع حضورها وتتم هذه الخصلة الفريدة في صاحب الدستور صباح اليوم التالى يوم خروج المحمل . . فقد اطلع البكرى على الصحيفة فارسل الى صاحبها بمبلغ من المال كانت في أشد الحاجة اليه ، فلم يقبل منه « فريد وجدى » غير قيمة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد اليه البقية قبل ان ينتصف النهار

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثرا من اثار « المبدأ » الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعرة ، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف احب الناس اليه ، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى ان يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاما غير مقصور على الدولة البريطانية ، فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه ولم يسكت فريد وجدى عن تأييد رأيه ، فأنصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الاخرى ، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكالييفها ولم يقبل صاحبها ان يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أخرج أيام الازمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبدلون لها للدستور مشاهرة ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة واحدة : وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » . . فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض ان يجعل صحيفته لسانا للحزب الا بشروطه التى يرتضيها ، ولو وافق الحزب على بقائها لسانا للجامعة الاسلامية . .

وفي الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من

شتى الجوانب - ومنها جانب الحاشية الخديوية - كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها ، فلما استنفد كل ما قدر على انفاقه في هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والادارة بمقدار غير يسير . . فأبت عليه نزاهة النفس ان يؤخر مليما واحدا لصاحب دين ، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمان يقبل أحيانا عن عشر ثمنها في المكتبات ومنها على ما نذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمانه مائة وعشرون قرشا ، فاتفق على حسبه بثلاثة عشر قرشا ، واشترط على التاجر ان يشتري النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الاجور والمرتبات ، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الاثمان

هذا هو الرجل الفريد في نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه . .

وهو كذلك - أو اكثر من ذلك آنفرادا بين كتّاب عصره بجهوده في مؤلفاته ، فلا نعرف أحدا منهم توفّر وحده على تأليف «دائرة معارف» كاملة ، ولا على التأليف في تفسير القرآن وفي معجمات اللغة والعلم ، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية ، ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية ، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور ، ولو استطاع وحده ان يؤدى اعمال التحرير خارج المكتب ، ومنها الاحاديث واخبار الدواوين ، لاستقل وحده بالادارة والتحرير

واشرف ما يكون صاحب المبدأ اذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه ان يعرف لغيره حقهم في الاستقلال بما يرون وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتباً ناشئاً ، خامل الذكر ، ليس لى بحق الشهرة ان يكون لى رأى

مستقل مسموع ، ولكنى كنت أخالفه فى بعض أرائه بل
 فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراء المادة
 وتحضير الأرواح ، وأشهر ما كان من ذلك حول موقف
 الحزب الوطنى من سعد زغلول ، فلم يمنعنى ذلك أن أنشر
 فى الدستور ما يخالف هذا الموقف ، وأن احادث سعد
 زغلول حديثا ينفى كل ما يعزوه إليه كتاب اللواء . . وقد
 صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقد من تحضير الأرواح
 وصارحتى غاية الصراحة فى أمر التشابهات من العقائد
 والأحكام فلا أذكر اننى لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة
 غير نظرتة حيث تقترب الأفكار والآراء

ومما انفرد به فى صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفردا
 كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال ، وأن سرعة قلمه
 بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام ، وأنه كان سريع
 النظم للشعر كما كان سريع النسيج للنثر البليغ ، وأن لم
 يكن يشتغل بتنظيم الشعر فى غير موضعه من قصص
 الخيال

ومن شعره فى هذه القصص الخيالية قوله :

فرويت ما لم يرو شيئا
 وة والحضيرة والمظاهر
 عبوه من عبت الخواطر
 بحقيقة نفى المسكابر
 نى حرتهم فتن سواحر
 نق والتظرف والتفكير
 هق والعلى والمقاصر
 الله والتورط فى الكيسائر
 ووقفه حول الظبيواهر
 ان تفتق الحجب السواثر
 شسقت لطلبه المسراثر
 حرمته همسات قواصر
 ث الحق على القدر سافر
 فاظفر بها ان كنت ظسافر

رمت المخاوف والخطاير
 وجهت ما بين البيدا
 وشهدت ما لو قلت
 وخرجت من ذا كلسه
 هى أن هذا الناس قد
 ظنوا السعادة فى التنا
 واقامة الدور الشسوا
 والجنى أعقاب اللذ
 بين افتتان بالقشور
 أما السعادة فهى فى
 وتحصيل السر الذى
 وتنبال من معنك ما
 أن ترتقى بالروح حبيب
 هذى السعادة كلهيبا

وله شعر في هذه القصص يقول فيه عن المدنية :

صل أهل الألعية	في علاج المدنية
هي من أفهم همد	عضلة العلم القسويه
هي للجثمان غنيم	وهي للروح بليسية
والذي قر عليه الرا	ي من أهمل الرويه
انهما شر ضرور	ي لخسير البشريه

ولو كانت طواعية النظم للناظم آية الملكة الشعرية لكان فريد وجدى في طليعة الشعراء المطبوعين ، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة في الطبع سلمت من العقد المركبة وتقايلت فيها الاعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الاهواء .. فلاتشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير

ومن صراحة خلقه وايمانه باستقلال الراى عنده وعند غيره ، انه كان يستمع الى راى في شعره فلا يفضيه ولا يهمله ان يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه ، وقد قلت له مرة : حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه ، فقال : والله انه لخير كثير ، ومن لنا ببعض هذا النصيب؟

روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربى ، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، أن السيد عرض عليه الزواج فقال : ان جمال الدين وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوى إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ عيش وهو يسعى الى الازبكية ليجلس الى حانة من حاناتها ويصفق يديه يستدعى « الجرسون » ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات

أقول اننى قد رأيت بعينى في الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين . وهو منظر « محمد فريد وجدى »

يتمشى في قلب الازبكية بين المتاجر والحانات وهي لاتدرى
من هذا الذى يفيب في أطوائها بين هذا الزحام ، ولعله هو
أيضا لا يدري ان هذه هي الازبكية الا كما يدري الطيف
في الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد
الافلام

فقد كان السير على الاقدام من رياضات الرجل قبيل
الاصيل كل نهار ، وكان يمضى في رياضته حيث ساقته
قدماه ، تارة الى مفازة الخلاء وتارة اخرى الى حى السكة
الجديدة ، وحينما الى قصر النيل وحينما اخر الى شارع
جلال او عماد الدين ، ولا يحس من يراه في مكان من هذه
الامكنة ، وهو ينظر الى ملامح وجهه ، أنه يفرق بين مكان
منها ومكان سواء ، كأنه - لانطوائه على نفسه - يتمشى
فى عالم السريرة ولا يتمشى فى عالم العيان

وكنت أراه أحيانا فى طريقى ولا أعرف من هو بين غمار
الناس ، على علمى ببعض آثاره وسماعى ببعض اخباره ،
ومنها فى قفشات الادباء « أولاد البلد » انه يعيش فيما
وراء المادة . . فى عطفة من عطفات عالم الروح . .

فلما رأيته لأول مرة بعد اعلانه عن انشاء صحيفة
الدستور أسفت لما فاتنى من الشعور بتلك الاعجوبة التى
كنت أشهدها كما يشهدها غيرى من عابرى الطريق ، ولا
يشعرون بها ! . . !

« ما وراء المادة » كله ينتقل الى حى الازبكية فى ضوء
النهار ؟ ! . .

أتنى لأشعر اليوم انه منظر عجب غاية العجب : منظر
اعجب من جمال الدين رب الاسرة والدار ، او منظر الشيخ
عليش جليس القهوة والبار . .

وقد صحبته في رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه ، فعلمت حقا انه كان يغشى تلك الاماكن وكأنه لا يفشاها ، لانه يستطيع ان يمضى في عزلة عما حوله كما يستطيع ان يجلس الى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجى سريره ولا يدرى من يخاطبهم ويخاطبونه . . انه بعيد عنهم وانهم بعيدون عنه ، في عالم آخر من وراء المادة . . اذا شاء أولاد البلد الظرفاء

وكنت قد عرفت من كتاباته زمنا قبل ان أعرفه راي العين ، ولكنني بعد ان صاحبتة في مكتب الدستور من يوم انشائه الى يوم تعطيله - الا فترات من الزمن لا تحسب - ارانى أستطيع أن أقول انني كنت أعرفه من كتاباته كذلك وانا معه في دار واحدة ، لانه كان يعمل في مسكنه بالدار ولا ينتقل الى مكتبه الا للقاء طارئ من الزوار ، او للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة احوال الادارة والتحرير والتوزيع ، وكان يعفيني من اطلاعه على ما اكتب قبل ارساله الى المطبعة ، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه الا اذا طرأ من شئون الصحيفة ما يدعو الى مشورته او تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه

قرأت اعلانه عن طلب محرر للصحيفة ، فكتبت اليه أخبره بأنني أرشح نفسي للعمل في الصحافة لأول مرة . . فجاءني الرد منه بعد يوم او يومين يسألني ان ألقاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف - يومئذ - محمود سلامة ، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبني منه ما يعجبني من مدرسته كلها : وهي مدرسة عبدالله نديم واحمد سمير ، وكنت أعرف مكان مطبعة الواعظ لانني فكرت زمنا في اصدار صحيفة على مثالها وفي مثل حجمها ، قبل ان أستقيل من وظيفتي الحكومية

فلما ذهبت الى الموعد - بالدقيقة - اخرج الساعة من جيبه ونظر فيها ، وسكت هنيهة ثم سألنى عما اطلعت عليه من مؤلفاته التى اشرت اليها فى الخطاب ، ثم اختار صحيفة من الصحف التى كانت على مكتب صاحب الواعظ وقال لى : هل قرأت هذا ؟ فنظرت فى الصحيفة فعلمت انه يشير الى مقال عن رحلة لكاتب المقال فى العاصمة الفرنسية ، كنت قد اطلعت عليه قبل ذلك . فرددت الصحيفة اليه وأنا اقول : اننى لم اذهب الى باريس ، ولكن موضع العجب عندى ان الكاتب لم يطرق منها شبر الحى اللاتينى ولم يعرف فى الحى اللاتينى غير معارض الخلاعة والمجون ، فهل هذه هى باريس ؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل ما فى طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة ، وقال : هذه هى باريس كلها اذا كانت القاهرة كلها هى ماتراه الساعة . . هل لك فى رحلة قصيرة تقضى بها رياضة اليوم ؟ . .

وسرت معه حيث سار ، فلاح لى انه كان كأنما يسير معنى ولا يوجهنى الى مكان مقصود بعينه ، أو كأننى كنت اوجهه كما كان يوجهنى على السواء . .

وقال لى فى صراحة لا تكلف فيها ، الله عرض على مقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحانا لرأى بعد أن أغناه أسلوب خطابى عن امتحانى فى الكتابة ، وبعد أن أغناه حضورى الى الموعد - بالدقيقة - عن امتحان نظامى فى العمل . . فلى أن اعتبر نفسى محررا بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة ، ولى أن أسأله عما أشاء عن نظام العمل المطلوب

ولم أسأله عن شىء من ذلك ، ولكنه هو قد مضى يسهب فى بيان مقصده من انشاء الصحيفة وبيان خطتها

فى السىاسة والوطنىة . . ثم مضت الايام بعد الايام فى هذا العمل المشترك بينى وبينه لا يعاوننا فىه اءء غير آخيه - اءمء - الطالب بكنىة الءقوق ، وءر آءاء من زملاءه الطلبة ومن وكلاء الصءىفة فى الاقالىم ، ولم ىنقطع عملى فى الءستور ءر بضعة أسابىع تركت الصءىفة فىها لءلاف وقع بينى وبين آخيه ، لاءءراضه على بعض آرائى فى السىاسة الءزبىة ، والءق انه اءءراض لم ىكن فىه ما ىسوء لولا اننى استءثرته من الاىء الاصءر وهو ىعلم ان آءاه الاكبر لا ىبءى على ما اءتب مثل هذا الاءءراض فىما ىءالفه أو ىناقضه من الآراء السىاسىة

ولم ألقى مءمء فرىء وءءى بعد تعطىل الءستور ءر مرات مءءوءاء ، وكنت قد برءت القاهرة الى أسوان ثم عءت الى القاهرة للءلاء من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر

وفى ءءىء من آءاءىء الرىاسة على الأءاء كان لقائى الأول له بعد عوءتى الى القاهرة ، فأنى عرفت مسكنه بعد انءقاله الىه من مسكنه بءار الصءىفة ، فقصدت الىه على أثر رىاسة فى الءلاء وىبءى كءاب من كتب الفلسفة الاءءماعىة ، فقال لى وقد نظر فى الكءاب ولمع على وءهى أءراض السقم : وفى مثل هذا الكءاب ءقرا وأنت ءرءاض للاستشفاء ؟ . .

وأءكر أننى فاتءته باءءقاءى قصر العمر وقلة الءءوى من الاستشفاء ، فابءسم ابءسامته الأبوىة ، وفتح الصءفة الأولى من الكءاب وهو ىقول لى : أءتب هنا . . ثم أملى على كلاما فءواه أننى سأعود الى هذه الأسطر وأنا شىء معمر ، لكى أعرف أننى كنت على ءطأ كبرى ءىن قءرت لىفسى نهایة العمر القصىر . .

رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ،
وذلك الخلق الفريد . .

ان يكن اليوم لا يذكر حق ذكره فما هو بالخمبول ولا هو
بالقصور عن حق الخلود ، ولكنه يعيش في عزلة من دنيا
التاريخ كما عاش ايامه في عزلة من دنيا الحياة





الشيخ رشيد رضا

يقول محمود رشاد بك في رحلته الروسية : « سألتني
التتار عن الشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف والشيخ
رشيد رضا ومصطفى باشا كامل وفريد بك وجدى
وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين »

وقد لقيت أنا في بلدتي أناسا من أبناء أفريقية الغربية
الذين يعبرون باسوان في طريقهم الى الحج ذاهبين او
عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « المنار » ويعول عليها
في فهم شعائر الاسلام واحكامه ..

وقد تكفى نظرة في باب الاسئلة والفتاوى التي كانت
تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها في الاقطار
الاسلامية ، لانها كانت تتلقى الاسئلة والفتاوى من جميع
الاقطار ..

وقد كنت أطلع على بعض أعدادها حرصا مني على
متابعة آثار الشيخ محمد عبده في كل مظنة ، فكنت أحمد
لها الدعوة الى التحرر من ربة القديم ، ولكني أسأل
نفسى دائما بعد قراءتها : « من أين يلم بالنفس هذا
الشعور بشيء غير مستساغ » في كثير مما يكتبه الشيخ
رشيد ؟ »

ولم يكن هذا شأني وحدي فيما كنت أقرأ من كتاباته ،

ولكنه كان شعورا يشاركنى فيه عدد غير قليل من القراء ،
وما زلت أسائل نفسى حتى تبين لى بعد تجربة الحياة
والأدب ، وبعد لقاء الشيخ رشيد ، انه ضرب من الحاجة
الى الصقل ، ولا سيما الصقل من ناحية الكياسسة
والفكاهة . فما احسب أن الشيخ - رحمه الله - كان
يلتفت الى شىء من طرائف الحياة التى تتجلى فى نقائص
الدنيا وأعاجيبها ، ولا غنى عنها لتمام التعاطف والتفاهم
بين الناس . . لقيته مرات لا تحصى . . ولكنى لم أتحدث
اليه غير ثلاث مرات أو أربع فى مناسبات قليلة . .

أولها فى دار المنار بدرب الجمـساميز . . كانت دارا
صغيرة ، لها سلم ضيق تصعد عليه الى حجرة لا تزيد فى
مساحتها على أربعة أمتار مربعة ، وفيها ديوان مفروش ،
وعلى أرضها حصيرة فوقها فرزة يجلس عليها الأستاذ
وقد اثنى قدمه ، وفى يده ورقة ، يكتب عليها للمنار .

وكنت اعبر بتلك الدار كثيرا فى طريقى الى دار الكتب ،
فلم يخطر لى أن أزورها أو اعرج عليها ، حتى أعلن الشيخ
رشيد عن كتابه فى ترجمة الأستاذ الامام ، وصدر منه
جزءان ، هما الجزء الثانى والثالث ، وارجىء صدور الجزء
الاول الى حين

كان الجزء الثانى يشتمل على طائفة من مقالات الأستاذ
الامام ووسائله التى نشرت بتوقيعه أو بغير توقيعه
وكان الجزء الثالث يشتمل على المراثى الشعرية
والنثرية التى قيلت فيه الى ما بعد حفلة الأربعين ،
ومعها بعض كلمات المقدرين والمؤبين من أبناء البلاد
الشرقية والغربية

ولم تكن « ميزانية » الكتب يومئذ تسمح لى بشراء
جزئين كبيرين فى وقت واحد ! فاخترت أن أبدأ بالجزء
الثانى ، وأرجىء شراء الجزء الثالث بضعة أسابيع
ولقيت عاملاً على السلم فأخبرته بما أطلب ، فلم يبد
مانعاً . . وذهب ليحيثنى بالجزء الذى طلبته ، وعاد به
وأنا فى حضرة الشيخ رشيد . وتناولت الجزء وأخرجت
الثنى - فسأل الشيخ رشيد : « ما هذا ؟ »

ثم قال : « ان الجزئين لا يباعان على انفراد . . »
ولا أخفى على القارىء اننى حين سمعته يسأل :
« ما هذا ؟ » خطر لى انه سيعفينى من الثمن ، بعد
أن تناول الحديث بينى وبينه سيرة الأستاذ الامام ،
ولمحت منه الرضا عن رأى فى خصومه وناقديه . .

فلما فهمت مرمى سؤاله شعرت بخيبة أمل ، وازداد
شعورى هذا حين أصر على بيع الجزئين ، مع توكيدى له
بأننى سأعود بعد فترة لشراء الجزء الأخير . .

ثم تأخر صدور الجزء الاول أكثر من عشرين سنة ،
وهو الجزء الذى يحتاج من المؤلف الى عناء ومراجعة
وتحضير ، فهيأت تلك المساومة نفسى لاعتقاد خاطئ فى حق
الرجل ، ووقع عندى انه بادر الى اصدار الجزئين لما فى
هذه المبادرة من كسب لا يجشمه شيئاً من الكلفة والمشقة ،
وانه آخر الجزء الاول لما يتجشمه فيه من التعب ، وما
يلقاه فى سبيله من الخصومات . .

ولكن الجزء الاول صدر بعد طول التأخير ، وظهر من
وقائعه واخباره أن « الشيخ رشيد » كان موفور العذر فى
أرجاء صدوره ، لأنه لم يكن يستطيع نشره فى عهد
عباس الثانى ولا فى أبان الحرب العالمية ، فانتظر حتى
زالت المحظورات التى حالت دون إصداره طوال تلك السنين

ولقيت الرجل مرة أخرى مع اللجنة التي تألفت للاحتفال بعيد المقتطف الذهبى ، وكان الدكتور فارس نمر باشا قد دعانا الى حفلة شاي فى داره للاعراب عن شكره للجنة الاحتفال وشكر زميله العلامة يعقوب صروف

وجلست مع سعيد شقير باشا والشيخ رشيد . .

وطاف فارس باشا بضيوفه يحييهم فقال للشيخ :
« انك يا سيد تسمن كثيرا ، ألا تتعود رياضة المشى ؟
امش بقدر ما تستطيع »

ثم استطرد الحديث الى الصحة ، فقال سعيد باشا :
« انه يحس أعياء وخواء يشبه « الدوخة »
فسأله : « هل كشفت عن الكبد ؟ »

فقال : « ان المصيبة كلها من هذه الكبد ! »
ولاح على الشيخ رشيد كأنه قد سمع منى نبوءة ،
فسألنى : « وهل درست الطب ؟ »

قلت : « ان علاقة الكبد بهذه الحالة لا تحتاج الى علم
طبيب »

ثم تبين لنا من جملة الحديث ان عناية الشيخ بالاطلاع
على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالاطلاع
على مسائل الفقه والدين

وتحققنا من هذا حين صدر الجزء الاول من تاريخ
الأستاذ الامام ووجدت فيه اشارة استفهام بعبد اسم
« عبد الله منو ؟ »

فاستغربت ان يكون الشيخ على غير علم بتاريخ هذا
القائد الفرنسى وقد دان بالاسلام وكانت له علاقة فى مصر
ببيت من أكبر البيوتات الاسلامية ، ولكن الاطلاع على

هذه المسائل التاريخية لم يكن على ما يظهر من هم الشيخ

ولقيته مرة أخرى في قطار « المترو » ليلة من ليالى شهر رمضان ومعه قريب له يسمى على ما اذكر «عاصما» .
فجرى الحديث على المعجزات ..

وقال الشيخ : « ان المحقق من سيرة النبي عليه السلام كاف للدلالة على وحى القرآن ، لأنه عليه السلام لم يأت بمثل هذه البلاغة قبل الأربعين ، وكان يشكو انقطاع الوحي فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه »

فقلت : « انه دليل حسن ولكنه غير ملزم ، فقد اشتهر مثلاً عن النابغة الذبياني انه لم ينظم الشعر قبل الاربعين او نحوها ، وذلك تعليل لقب « النابغة » في بعض الروايات . واشتهر كذلك عنه وعن غيره انه « أجبل » ، أى انقطع عن النظم فترة ثم عاد اليه ، فنحرت قبيلته الدبائع فرحا بانطلاق لسانه ، لأنه أنفع لها من غزوة تنصر فيها على أعدائها ..

« انما المعجزة الكبرى هي الرسالة المحمدية التي لا ينهض بها فرد ولا أمة بغير معونة الهية ..

« وانما المعجزة الكبرى هي اثر القرآن في الضمائر واثره في تواريخ الأمم الإسلامية وغيرها »

ومن حق الشيخ أن اذكر له في هذا السياق انه لم يغضب ولم ينكر وجاهة التعقيب على كلامه .. ودعاني ملجأ الى زيارته في دار المنار .. .

ولكننى لم ألقه بعد ذلك ، وان كنت ألقاه حيناً بعد حين في صفحات مجلته المنار ، لأنها من المجالات العربية التي حرصت على اقتنائها من اول اعدادها الى آخرها



عبدالعزیز جباری

كلما ذكرت الشيخ عبد العزيز جاويش • ذكرت زيه على الخصوص .. لأنه كان أول ما لفتني اليه ، ولم ينزل موضع التفاتى بعد ذلك كلما رأيته أو سمعت بخبر من أخباره في بعض المناسبات ..

كان لنا زميل في مدرسة أسسوان الاميرية ، لا تقل شهرته بيننا بالجهل عن شهرته بالعيب وقلة المبالاة .. وتخرج بعدنا من المدرسة ، فعينته وزارة المعارف مدرسا بها للترجمة ، لشدة الحاجة يومئذ الى المدرسين وكنا نعجب لكتابته العربية اكثر من عجبنا لكلامه باللغة الانجليزية ، فهو يعرف الانجليزية كما يعرف العربية ، ومعرفته للعربية بعد ذلك هي موضع الشك الكبير ..

وانه ليلقى درسه في الترجمة ذات يوم اذا بمفتش معم يدخل عليه ، فظنه مفتشا للغة العربية قد ضل طريقه الى هذه الحصة ، فاطمأن على جهله وعلمه .. ومضى في درسه بغير اكتراث ، ولم يكن من دأبه كما اسلفنا ان يكثر لشيء من الاشياء

وفوجيء باعتراض من المفتش المعم ، فقال له بغير تردد : « ان هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر »

وسأله المفتش : « ما هو ؟ »

فقال : « كتاب مرشد المترجم »

وطلب منه المفتش أن يريه القطعة في الكتاب ، فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة منها ، ثم أشار الى جملة في الصفحة . . وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان : « هي هذه القطعة ! »

وهنا المباغتة التي كان أهون منها على صاحبنا أن يفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن ، لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الانجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية . .

ان المفتش المعمم هو الشيخ عبد العزيز جاويش مؤلف كتاب مرشد المترجم ، مع زميل من المعلمين !

وضجت المدينة ليلتها من الضحك ، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها الى الآن . . لا عجب اذن ان يظل زى الشيخ اعاقا بذهنى على تعاقب الايام

وذهبت سنة وجاءت سنة ، وتتابعت سنوات بعد سنوات ، وانفت في القاهرة منظر الشيخ في جبته الغراء . . وهي في اشد شتائها قلما احوجتنا يومئذ - نحن أبناء الصعيد - الى معطف ثقيل . .

ثم استقال الشيخ من وظيفته بوزارة المعارف ، بعد انشاء مدرسة القضاء الشرعى واسناد نظارتها الى المربي الكبير عاطف بركات بك ، وأخذ في حملته على وزارة المعارف على النحو الذى يذكره قراء اللواء في تلك الأيام

وحضرنا يوما الى مكتب الصحافة بوزارة الداخلية ،

فسألنا موظف فيه : « هل صحيح ان الشيخ جاويش
اعتزل عمله في تحرير اللواء ؟ »

فقال زميل صحفى : « ان صحيفة «الوطن» قد نشرت
الخبر » وقال زميل آخر : « انى اشك فى صحة الخبر »
وقلنا جميعا : « ان دار اللواء قريبة ، والسؤال هناك أيسر
من الشك بغير دليل »

ودخلنا مكتب الشيخ فوجدناه فيه ، وتبين من الكلمة
الأولى ان الخبر غير صحيح . . ثم مضى الشيخ فى كلامه
من التعليق على صحيفة الوطن الى تعليق على الصحف
عامة ، وعلى السياسة والأحزاب ، ثم الى الكلام عن حرية
الصحافة وحرية الزعماء السياسيين

وجلسنا اسمع وأنا أعجب لرجل يفهم الوطنية المصرية
فى نهضة المطالبة بالاستقلال . ثم ازداد عجبى حين قدم
للمحاكمة ، فكان دفاعه الاول انه « غير مصرى » لانه ينتمى
الى اسرة تونسية ، وتونس خاضعة للحماية الفرنسية . .

ثم ازداد العجب حين سافر الى الآستانة ، وانشأ
فيها صحيفة «الهلal العثمانى» لينشر بها دعوته السياسية
على الوجه الذى كان يفهمه ولم يعدل عنه بقية حياته ،
وبلغ غايته حين علمنا انه انشأ فى الآستانة حزب « الوطن
العثمانى » ليعارض به حزب محمد فريد الذى جعل
شعاره « مصر للمصريين »

وكانت صحيفة «الهلal العثمانى» تصل الينا برا
فى فترات متقطعة ، فكنت اسأل نفسى : هل بلغ من يقين
الشيخ بمذهبه فى الوطنية ان يفترض قبوله على كل مصرى
يسمع باسمه من بعيد ؟

وعدنا الى زى الشيخ حين سمعنا نبأ الحملة التركية

على هذه البلاد ، فقد قيل يومئذ ان كسوة المشيخة
الاسلامية كانت في حقيبة الشيخ ، وانه قد حيل بينه
وبين مصاحبته الحملة في اللحظة الأخيرة لامتناع شيخ
الاسلام هناك من حركاته حول مصر والحجاز

وانتهت الحرب ، ولقيت الشيخ اتفاقا قبل تعيينه مرة
اخرى بوزارة المعارف ، فاذا هو هو في تفكيره وتقديره عن
السياسة الوطنية . . انقرة هي صاحبة القول الفصل في
السيادة المصرية ، انقرة هي المرجع الاخير في الامتيازات
الاجنبية ، معاهدة سنة ١٨٤٠ هي اساس ما نطالب به
من حقوق !

قلت : « الحمد لله . . لقد تغيرت مصر كثيرا في عشر
سنوات ، وان لم يتغير الشيخ عبد العزيز جاویش ومن
جرى على مجراه »

لقد ذكرنا الشيخ رشيد رضا في الفصل السابق ، وبين
الشيخ رشيد والشيخ جاویش جامعة بعيدة لا غنى عن
الاشارة اليها لتقدير كل منهما معا ، وكل من دخل معهما
في هذه الجامعة . . فبعد جمال الدين ، ومحمد عبده ،
أصبح من هم كل شيخ ناشئ ان يصبح استاذ اماما او
نمطا آخر من جمال الدين . .

ومن هنا نشأت مدرسة رشيد رضا ، ومصطفى
المبراغى ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد الحميد الزهراوى ،
ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدي ، والنجار ، وغيرهم

ولكن الشيخ عبد العزيز كان يتشبه بـ «جمال الدين»
حيث يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الامام . .

وفارق آخر بينه وبين الشيخ رشيد ، ان « الشيخ رشيد » كما قلنا كانت به جفوة عن الفكاهة والكياسة ..

اما الشيخ عبد العزيز ، فقد كانت فيه من ابناء البلد الظرفاء مشابهة كثيرة ..

ذهبت يوما لزيارة الأستاذ محمد صادق عنبر بمكتب صحيفة العلم على ما اذكر ، فوجدت الشيخ عبد العزيز يصيح صيحة المحقق الذي يغائب ضحكا مكظوما : « انه خبر ادهش البقر .. انه خبر ادهش البقر ! »

فسألت الأستاذ صادق عنبر : « ما هذا الخبر ؟ »

فجعل يغمغم بين الضحك والخجل وهو يقول : « انه مصحح عندنا من أهل الشرقية جاءه من بلده خبر عن بقرة قتلها قطار السكة الحديد ، فأختار للخبر عنوانا يليق بهذه الفاجعة العالمية .. وكتبه بهذا العنوان : « خبر أدهش العالم ! » ... وفي رأى الأستاذ كما سمعت ان الدهشة من حق البقر في هذا المقام ! ..

قلت : « صدق أبو العيناء .. رأوه يأكل في الطريق امام انغادين والرائحين فلاموه .. »

فقال : « أمن البقر حياء ؟ .. »

« وأراد أن يثبت لمن لاموه ان القوم بقر فوقف ونادى : أيها الناس ! قال « هي بن بي » عمن لا يوثق له برأى : من بلغ طرف لسانه أرنبه انفه دخل الجنة فلم يبق من حوله احد الا أخرج لسانه يحاول ان يبلغ أرنبه انفه ! »

« ومضى أبو العيناء وهو يقول لمن لاموه : ألم اقل لكم ؟ »

وقد أبى الأستاذ صادق الا ان ينقل الحديث المروى لصاحب الخبر ليرى أين هو من قول الشيخ عبد العزيز ومن قول أبي العيناء



ابراهيم اليلباوي

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان :
احدهما حزب محمد شريف باشا والآخر حزب مصطفى
رياض باشا ..

وقد يخطر للقلوب العصرية أن تعريف الأحزاب
بالأشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة
لها بالبرامج السياسية .. ولكن الواقع أن تعريف
الأحزاب بالأشخاص كان سنة معروفة فى ذلك العصر
حتى فى أعرق الأمم البرلمانية ، فكان الحزبان المتناظران
فى إنجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب
بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين
الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج ،
ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا
الوزير أو ذاك الوزير

كان حزب « شريف » أقرب الى التجديد السريع ..
وكان حزب « رياض » أقرب الى المحافظة مع التقدم
فى رفق وأناة ..

وكان الهلباوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من
الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا
يرضيه ..

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب الشيخ
« ابراهيم الهلباوى » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم
المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشئ ، واستطرد قائلا :
« ان ناظر النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة
عليه »

فضحك الشيخ ابراهيم وأجابه ساخرا :

— انه لا يستطيع

فعجب العالم المحقق وقال : « كيف لا يستطيع وهو
ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟ »

قال الشيخ ابراهيم : « وليكن ناظر النظار ، أو اكبر
من ناظر النظار .. ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان
البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله ، فانه
لا يستطيع ان يخرب لى بيتا » ففرع العالم المحقق ،
وخيل اليه ان المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى
الكفر بالله ، والعياذ بالله !

فصاح بالشيخ الناشئ حنقا : « أهذا الذى تعلمتموه
من جمال الدين ؟ »

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء
فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام
التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين ،
فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال
لصاحبنا : « بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل ان نتعلمه من
جمال الدين ! »

قال الرجل « اعلماكم نحن الكفر ؟ »

قال الفتى المتحذلق : « بل علمتمونا ان قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ، وهو انه ليس لى بيت ! »

على ان تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تكن تمنعه ان يستطيل عليه بمثل هذه الحذقة اذا « حكمت القافية » كما يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترىء على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحاديث - أو تلك الدروس - وكانت كل احاديث جمال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه الهلباوى قائلا : « يا خبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟ »

فانتفض السيد مغضبا وصاح به : « اغرب عنى ايها الخبيث .. لعنة الله عليك ! »

والهلباوى الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوى الذى عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك ان تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى انه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها »

ومن هذه الذلاقة المتعجلة ، كان يؤخذ على الهلباوى كل ما هو مأخوذ عليه

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه ..

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها دخلت في « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القضاة في شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط عليهم القضاة في الثمن : « والله ولا لسان الهلباوى ! »

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى أى طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به وان لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول في الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها « قضية دنشواى » التى وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته ..

وعن قضية دنشواى قلت في كتابى سعد زغلول : « لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى اسوان ، فأغمى على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات »

ويستطيع القارئ اذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى اثارته فى نفوسنا رؤية الهلباوى أمامنا وجهها لوجه فى دار الجريدة ، يوم القى الاستاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذى أشرنا اليه فى الكلام عن صاحب « المؤيد » ..

لقد كان اغتباطى شديدا بما اصابه من الأذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول انصافا له اننا رأينا فى الرجس شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف العدائى ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى

اطمان الى انصراف الجمهور انغاضب ، وابتى الهلباوى
الا ان يقتحم الجمع خارجا من الدار فى ابان الهياج ،
ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والايذاء

وغاب الهلباوى زمنا عن ميدان السياسة ، ثم ظهر
بعد الثورة الوطنية معارضا لـ « سعد زغلول » . . وكانت
المساجلات بين الاحزاب يومئذ على أعنفها ، ولكنى أشهد
القارىء أننى ما وجدت القلم ينبعث فى يدى اتبعثا الى
القول القارص العنيف كما كان ينبعث فى الرد على خطب
الهلباوى وأحاديثه ، فردودى عليه فيما اعتقد كانت أعنف
ما كتبت على الإطلاق . .

ثم مضت الايام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوى شأن
فى موقف من أهم المواقف فى حياتى السياسية ، لأنه
الموقف الذى اعتزمت فيه جديا أن أترك الهيئة الوفدية
مستقلا عن جميع الاحزاب . .

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد
الوزارة الصديقة التى عدلت الدستور . .

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، فعقد
الاحرار الدستوريون اجتماعا فى دار حزبهم ، وذهبنا اليه
تأييدا لمظهر الائتلاف . .

واذا باللهلباوى هو خطيب الاجتماع . .

واذا بى جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به
يحتال فى كلامه ليهملنى عند مناسبة ذكرى ، ويتجاوز
الاهمال الى التعريض . .

وعلقت على الخطبة فى اليوم التالى ، ورآها فرصة
سانحة لارغامى باسم الائتلاف . .

وجاءتني دعوة الى بيت الامة حيث تجتمع طائفة من
اعضاء الوفد على رأسهم مصطفى النحاس باشا ..
ما الخبر ؟ ..

الخبر - كما قالوا - ان مصير الائتلاف معلق على بيان
مطلوب منا ، ونحب ان نتلوه عليك ..

قلت : « وما شأني في هذا البيان ؟ »

قالوا : « بل الشأن شأنك .. لأن فحوى البيان ان
الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوى بك »

قلت : « انكم احرار فيما تكتبون ، ولكننى سأرد
لا محالة على هذا البيان ، وأقول لكم سلفا اننى انا
المسئول عما أكتب ، ولم يعلم النحاس قط اننى اكتب
باشارة من احد »

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد
حين حملت على اللورد من اجل زيارته للاقاليم ، وثار
اللورد ثورته التى أوشكت ان تعصف بالبرلمان ، وأرسل
الى سعد من يقول له أن اللورد يعتمد انه هو الموعز بتلك
الحملة ، فقال سعد كلمته الماثورة : « انها تهمة لا أدفعها
او شرف لا أدعيه » .. ولم يفاتحنى فى الامر حتى انقضت
الازمة ، لكى لا أفهم انه يقترح على الكف عن الكتابة فى
هذا الموضوع ! .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد
أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره او
تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : « لن اسمعه ، وان اسكت عن الرد عليه .. »

فى ذلك المساء زارنى مكرم عبيد باشا ، والمرحوم صبرى

أبو علم باشا ، وسألاني : « ماذا صنعت ؟ »
قلت : « كتبت ردا على البيان سينشر في عدد الغد من
جريدة «مصر» - وكانت من الصحف الصباحية - وفيها
كنت أكتب مقالاتي كل يوم ..
فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : « اذا كنت لم استطع ان اقنعكم بوقف
بيانكم ، فلن تستطيعوا اقناعي بوقف المقال .. »
ثم قلت لهما : « اننى املك ان انشره في غير الصحيفة
الوفدية اذا حيل بينى وبين نشره فيها »

وكان قد جاءنى فعلا من يعرض على العروض الطوال
العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة قال مكرم باشا : « اننا كنا نود
لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصر
على نشره فاقبل منا رجاء آخر »
قلت : « ما هو ؟ »

قالا : « ان يخلو المقال من الملام الشديد »

قلت : « اننى اذا ذكرت الحقائق كما حصلت ، فلا حاجة
بى الى ملام شديد »

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلأوى بك لا يقع لى
فى طريق

وحدث فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحوم
عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بينى وبينه حين كنت
أكتب فى صحيفة « الجهاد »

ثم زارنى يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لى : « لقد
مررت بدارك وأنا فى مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة

وقلت لنفسى : « فلنزره ان كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟ »

قلت : « انه فضل لك سبقتنى به ، وعلى ان اشاركك فيه »

وزرته فى دار البلاغ - بعد يوم أو يومين - فاذا بالهلباوى بك هناك ..

فكدت أهم بالرجوع ..

بيد أن الهلباوى بك كعادته هجام لا يتردد ، فجذب يدى وبدأنى بالحديث

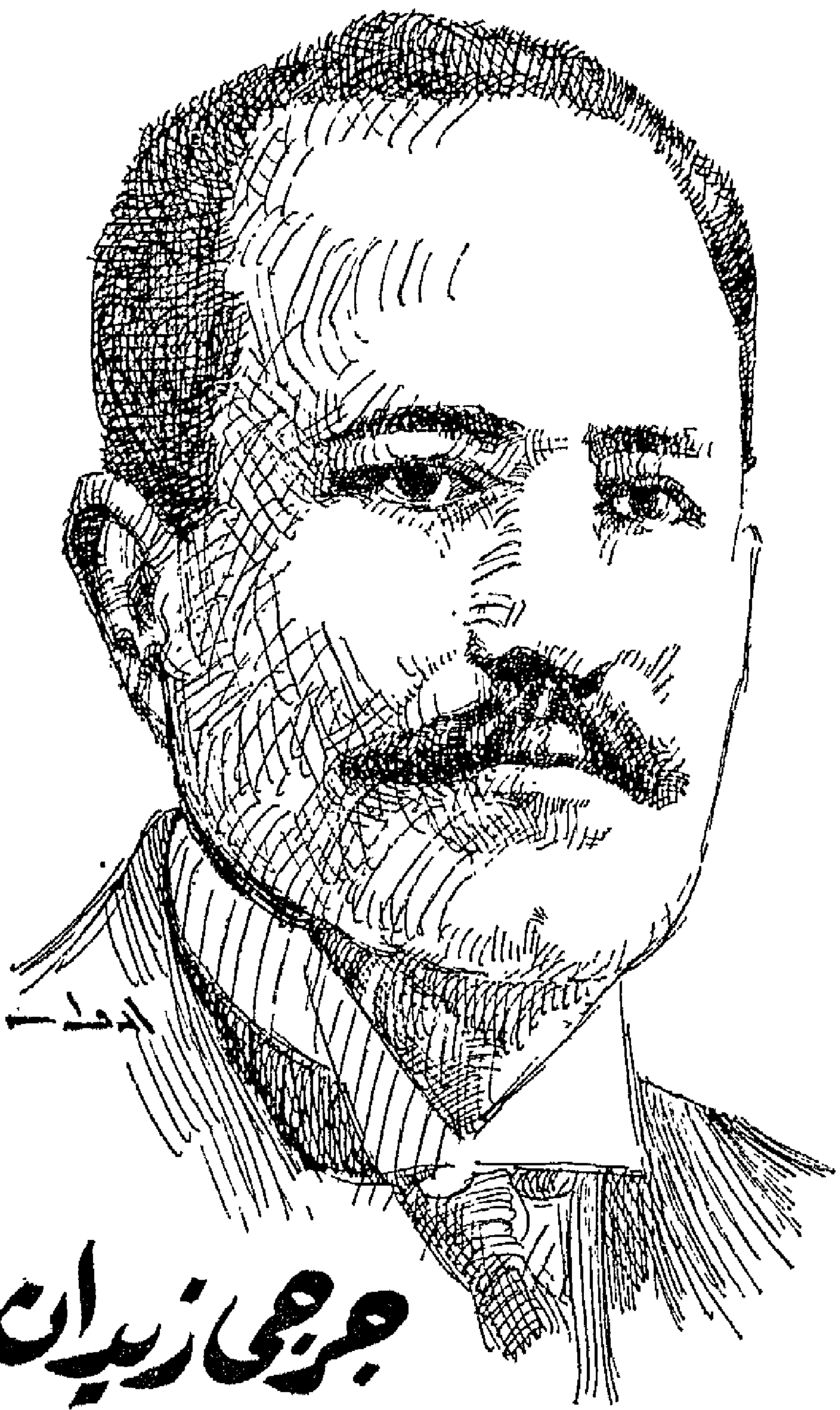
ولقد خطر لى فى تلك اللحظة ان واقعتى معه آخر ما يذكره فى تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره واسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل احب أن يكتب الله لى ثواب اخراجك من تلك الجمساعة .. ولكنه فاتنى ، وأراك خارجا منها على التسعين ... ! »

وبعد حديث متشعب ، دعانى والاستاذ عبد القادر الى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود باشا رحمه الله

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة روز اليوسف اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنسا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لا يمل المستمع اليه

ولقد كانت إحدائه في تلك الليلة أكثر من أن تذكر ،
الا اننى اذكر من طرائف السهرة ان السيدة روز اليوسف
كانت تخاطب قرينته وهى تظن انها زوجة ابنه ، لبعد
الفارق بينها وبين زوجها فى السن . . ولم تنزل على ظنهما
حتى نبهها الى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام . .
نابغة من نوابغ عصره لامراء . . كان يسلم من كثير مما
يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أقلقته وباعدت بينه
وبين الصبر والاستقرار





جی زیان

كنت حوالى سنة ١٩٠٥ اعمل فى دواوين الاقاليم :
قنا ثم الزقازيق ..

وكنت ازور القاهرة مرة كل اسبوعين ، أو كل شهر ،
عندما كنت اعمل فى الزقازيق ..

ازورها لغرضين فى وقت واحد : ان اشهد التمثيل
بفرقة سلامة حجازى ، وان ابحث عن الكتب التى لاتصل
مع الباعة المتجولين الى الاقاليم ..

وفى مرة من هذه المرات ، قصصت الى حى الفجالة
لاسأل عن كتاب ما - أى كتاب - فى فلسفة الجمال ..

ولم اكن اعرف اسم الكتاب الذى ابحث عنه لأنه - كما
ظهر لى بعد ذلك - لم يوجد من قبل باللغة العربية ، ولم
يوجد الى اليوم . وانما كنت اتصفح فصول الاديب
الخطيب الانجليزى ادمون بيرك عن الجليل والجميل ،
فخطر لى أن مثل هذا المبحث لابد ان يكون مطروقا باللغة
العربية ، وكان اعتقادى فى كتابنا المحدثين منذ اواسط
القرن التاسع عشر كاعتقاد اجسادنا فى الاوائل اذ
يقولون : ما ترك الاول شيئا للاخر .. فاذا كانت اللغة
الانجليزية قد اشتملت على بحث فى فلسفة الجليل
والجميل ، فاكبر الظن أن كتابنا المترجمين لم تفتهم ترجمة
بحث من هذه البحوث ..

ودخلت المكتبة فوجدت على شمال المنضدة المعدة
لعرض الكتب رجلين يجلسان على كرسيين متجاورين :
أحدهما مطربش والآخر معمم ، وطرق مسمعى أسم
السيد توفيق وصهاريج اللؤلؤ ، فسمعت الرجل المطربش
يقول لمحدثه المعمم : أن السيد توفيق قد عاد بالنشر
العربي خمسمائة سنة الى الوراء

وسألت البائع : هل يوجد عندكم كتاب فى فلسفة
الجمال ؟

قال مستغربا : فلسفة ماذا ؟

فأعدت قولى بلهجة التوكيد : فلسفة الجمال !
والتفت الرجل المطربش الى هذا الحوار ، فنظر نظرة
استفهام الى البائع ، فاجابه هذا :

— ان الافندى يسأل عن كتاب فى فلسفة الجمال !

فتمهل الرجل المطربش ، ثم قال : ما اظن كتابا فى هذا
الموضوع قد الف باللغة العربية ، ثم سألبنى هل رأيت
الكتاب المطلوب وعرفت اسمه ، أو أسم مؤلفه

قلت : كلا . . ولكنى رأيت شيئا فى بحث الجليل
والجميل بالانجليزية فخطر لى ان البحث مطروق بلغتنا . .
قال فى تودة وهو يبتسم : ينبغى حقا ، ولكنه لم يطرق
فى كتب مستقلة ، ولا يزيد ما كتب عنه على بعض الاشارات
المتفرقة فى المجلات

علمت من البائع ان الرجلين المتحدثين هما : جرجى
زيدان صاحب الهلال ، وابو بكر لطفى المنفلوطى أخو
مصطفى لطفى المنفلوطى الكاتب المعروف . . وابوبكر نفسه
كاتب لم يشتهر شهرة أخيه ، وهو الذى كان يكتب بعد
ذلك بسنوات فى جمعية « مصر الفتاة » مقالات يحكى بها

مقالات أخيه في المؤيد بأسلوب كاسلوب «صهاريج اللؤلؤ»
في التفخيم والاغراب

ولا ازال اذكر صورة جرجى زيدان كما رأيته في ذلك
اليوم : رجلا بسيط المظهر بعيدا من كل تكلف في زيه
وجلسته وحديثه : يتكلم في الادب والبلاغة والاحاديث
العامة بأناة العالم المحقق ، ولكن بسهولة المتحدث المفيد
.. كأنه يقول ما يقوله للتعليم دون أن يبدو عليه مظهر
المدرس في حصة التدريس ، ولا اذكر اننى رأيت من ابناء
عصره كاتباً بمثل شهرته ومكانته وبمثل هذه البساطة في
المظهر والحركة والحديث ، وقد رأيته بعد سنوات في
داره وفي ساعات فراغه فلم أجد بين مظهره وهو بعيد من
الناس ومظهره وهو في المكتبة العامة أقل خلاف



وقد طبعت اول ما طبعت من كتبى بمطبعة الهلال ،
وهما كتاب خلاصة اليومية ، ثم رسالة الانسان الثانى عن
المرأة وتاريخ طبعهما كما هو مكتوب عليهما (سنة ١٩١٢)
ولهذه المناسبة كنت ارى « جرجى زيدان » احيانا
في مكتبة الهلال واحيانا اخرى في مطبعة الهلال ، فان لم
يكن في المطبعة ووجب سؤاله عن شأن من شئون الطبع
فالدار التى كان يسكنها غير بعيدة من دار المطبعة ،
والاستئذان بالتليفون قبل الزيارة لم يكن من مألوفات
ذلك الزمن ، ولم يكن شيوع التليفون بين المكاتب والمنازل
كشيوعه في هذه الايام ، وانما كان طالب الزيارة يطرق
الباب ويسأل عن صاحب الدار : أهو حاضر ؟ وهل يمكن
لقاءه ؟ .. وغالبا ما يجاب بغير حاجة الى موعد آخر
محدود

وكان العمل مقسما بين الاخوة الثلاثة : جرجى للمجلة

ومتري للمطبعة ، وابراهيم للمكتبة ، وليس بين المطبعة
ومسكن صاحب الهلال غير خطوات قلائل . . أما المكتبة
فقد كانت بينها وبين المطبعة مسيرة دقائق معدودات . .

واحسب ان الامر لم يدع الى مقابلي اياه بداره اكثر
من مرة واجدة سألته فيها عن رايه في فلسفة التفاؤل
والتشاؤم ، وعلمت فيما عدا هذه المقابلة - عرضا -
مبلغ عناية الرجل بالاطلاع على موضوعات العلوم من شتى
المباحث والمطالب ، وان لم تكن لزاما من موضوعات النشر
بمجلة الهلال

سألته : ايها اصح واصوب ، نظرة المتفائل او نظرة
المتشائم ؟

وربما كان السؤال : اي الفلسفتين اصدق ، فلسفة
التشاؤم او فلسفة التفاؤل ؟

لست اذكر نص السؤال بكلماته ، ولكنني اذكر موضوعه
العام لانني كنت مشغولا به في كل مطالعة وكل نظرة الى
مسائل الادب والحياة ، وفي كلا الكتابين اللذين طبعتهما
بمطبعة الهلال اشارة الى الامامين المتشائمين : ابي العلاء ،
وشو بنهور ، وهما متلازمان في ذهن كل قارئ عربي يسمع
بالتشاؤم في الثقافة الاوربية . .

ففي خلاصة اليومية اقول بعنوان القول والقائل : . .
« انظر الى ما قيل لا الى من قال - قاعدة لا يصح اطلاقها
في كل حالة - فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائلها ،
فان كلمة مثل قول المعري :

تعب كلها الحياة فما اع

جب الا من راغب في ازدياد
يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة
الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها . . فاننا
نثق بأن المعري مارس الامور الجوهرية في الحياة ودرس

الشئون التى تكون منها عذبة أو مرة ، فكدا أو رغدا ، ولم يسير منها أولئك العامة إلا مايقع لهم من الامور التى لا تكفى للحكم على ماهية الحياة »

وفى رسالة الانسان الثانى بعنوان عصر المرأة أقول :
« وقفت على آراء فى المرأة للفيلسوف الالمانى ارثر شوبنهاور ، فأعجبني حذق الرجل وجراته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها فى أوربا خلوا من التهذيب وسلامة الذوق . وان كنت أراه قد غلا فى مذهبه الى حد ربما كان الدافع به اليه غلو المدنية العصرية فى نظرها الى المرأة ورعايتها اياها »

وقد سألت صاحب الهلال فى هذا الموضوع لاننى انتظرت ان اعرف رأى الراجح من تجاربه كما اعرفه من اطلاعه ودرسه . . فسمعت منه الجواب المفيد عن الامرين قال لى فى بساطة الرجل الذى يتحدث عن الجو أو أحاديث السمر العارض :

« اننا نعرف من التشاؤم مزاج صاحبه كما نعرف ذلك من التفاؤل ، وقد يكون رأيهما واحدا فى حقيقة من الحقائق العملية ، أو الفكرية ، ولكن هذا يجعله سببا للرضا والآخر يجعله سببا للسخط على حسب مزاجه . . فليست المسألة معهما مسألة صحة أو بطلان ، ولكنها مسألة التأثير على حسب المزاج

واحسب انه قال ايضا : اننا نترك البحث عن الاصلح ونبحث عن الاصلح ، فنرى ان التفاؤل اصلح للعمل فى الحياة والنجاح فيها . . لانه اصلح لاحتمال الشدة واصلح للأمل فى النتيجة

وأحسن ما حسنى عندى من سميت الرجل ، ومن

بساطته في حديثه ، وبساطته في كتابته — انه لم يتخذ من قواعد العلم كتافا لعقله يحجر عليه ويخرجه احراج الموسوس الذي يكرر الواقعة مرة بعد مرة ليستوثق من صحتها وضبطها من جميع نواحيها واطرافها ، ثم يرى انها هي العلم وكل ما عداها فليس من العلم في شيء

وكذلك لم يتخذ من قواعد العلم كساء مزركشا يخشى عليه اللابس أن تنكسر قصبة فيه اذا طاول عقله في الحركة بعض المطاوعة ، ولم يتخشب مع الكساء المزركش ، على سنة الوقار أو على سنة الجمود ..

فقد كان على اطلاع واسع في العلوم التجريبية كاطلاعه على بحوث التاريخ والاجتماع ، ولكنه كان في سماحة الفكر وسهولة النظر بحيث يحس كما يفهم ان العقل قد يكون «علميا» وهو يخوض في كلام لم يقرره العلم ولم يقرر نقيضه كذاك

ولهذا كان جرجي زيدان يبيع لفكره ان ينظر في « علم الفراسنة الحديث » وليس هو من العلوم التي فرغت التجربة من قوانينها كما فرغت — مثلا — من قوانين الحركة

وكان يبيع لفكره ان ينظر في أصول اللغات واصول الكلمات واصول القواعد اللغوية دون ان يكون للعلم حكم قاطع في كل اصل من تلك الأصول

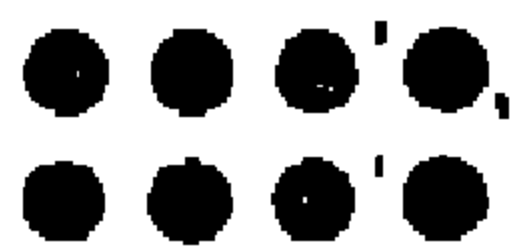
فان لم يكن ما يقوله علما مصبوبا في قلبه الأخير ، فهو — بلا شك — مادة علمية يجب ان تنهي لقلبها على شكل من الأشكال ، ويمتنع علما ان تترك بغير التفات اليها . فان عمل العلم في تشكيل المادة قبل ثباتها على شكل من الاشكال اوجب من صب القوالب على الشكل

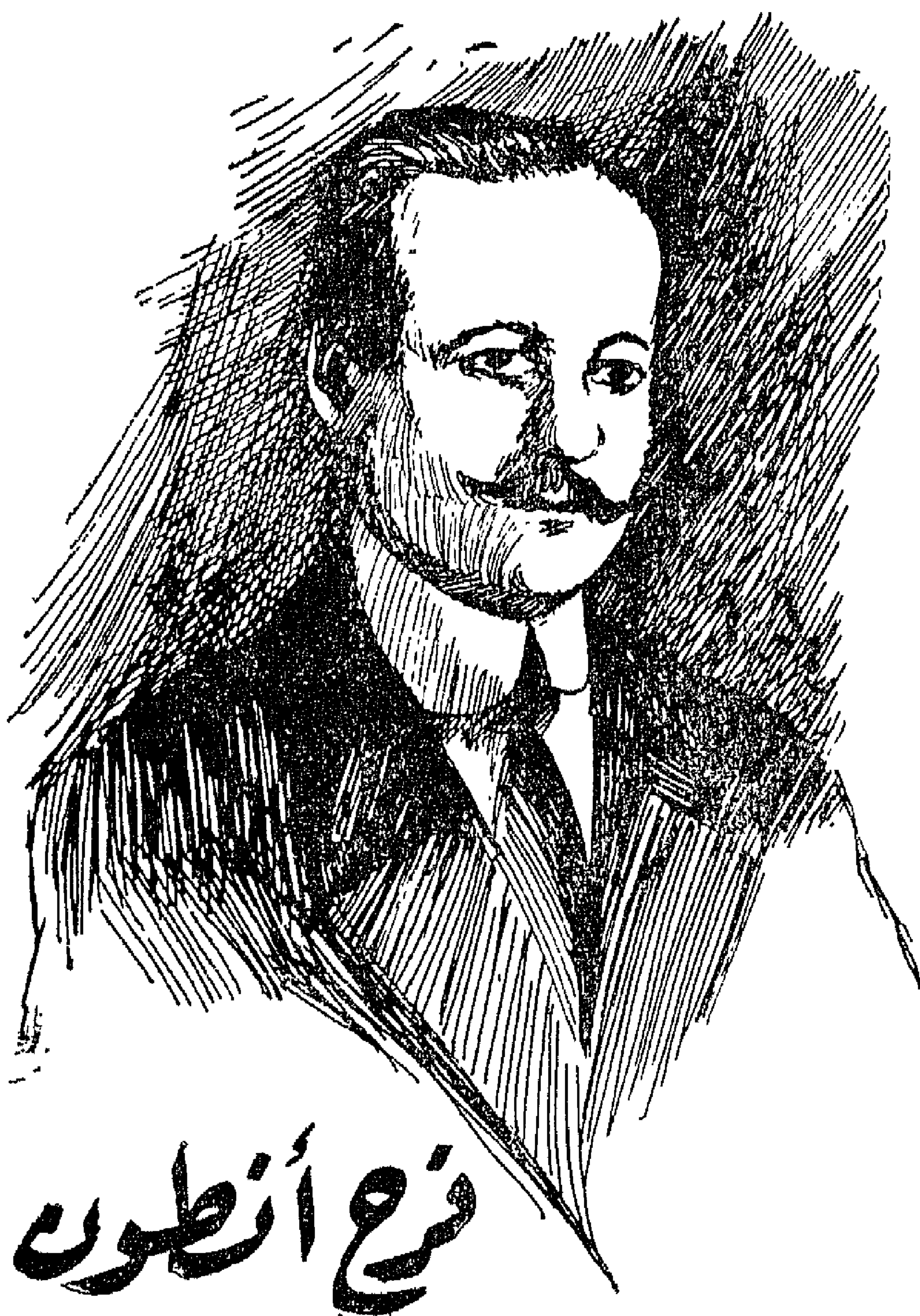
الآخر . . وأوجب من ذلك الا يكون « الشكل الآخر »
هذا هو كلمة الختام ، وهو الحكم الذي لا يقبل النقض
والتنقيح

وقد كتب جرجي زيدان في كل مسألة من مسائل عصره
الاجتماعية والفلسفية والادبية ، فكان في كل منها بسيطا
تلك البساطة التي عهدناها منه وهو يتكلم عن اسلوب
البكرى أو عن كتاب فلسفة الجمال ، أو عن فلسفة
التفاوت والتشاؤم ، ولكنه قال فيها جميعا رايه الذي
لم يناقضه العلم ولم يأت بما هو أثبت منه على اختلاف
النظر في الأمور

ونسئنا نحسب ان تناول الدراسات المختلفة بمثل هذه
البساطة مسموح به لكل صاحب قلم مشتغل بالبحث
والتفكير . .

انما يسمح به - في غير حاجة الى الترخصة من احد -
للعقل الذي يستمد بساطته من مصدر واحد : وهو مصدر
القوة التي هي اكبر من قيود البحث ومراسم الدراسة ،
وهي في طمأنينتها الى قدرتها على سبك القوالب وصهر
المادة التي تملأها تعالج المادة في دور التشكيل كما
تعالجها في قالبها الأخير





مضت عدة سنوات على احتجاب ذلك الطيف الذى كان كثيرا ما يرى فى هذه العاصمة غاديا أو رائحا فى خطوة وثيدة وعزلة بعيدة ، كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس الى حيث لا يعلمون ، ذاهب الطرف أنى سسار كالعابر من عالم لا يذكره الى عالم لا يرجوه غير مشغول بأمر الطريق .. على وجهه سماحة تظللها سحابة من أسف شجى ولوعة مخامرة ، وفى عينيه حيرة قرت من فرط القلق فعادت فى رأى العين طمانينة راضية ، وعلى شفتيه صمت مصر كظيم يصف لك من صاحبه هاتفا دعائم الحف داعيا مناديا حتى مل وفتبر ، فلم يستمع اليه مصيخ ولم يجب الى صوته صدى ، فأطبق شفتيه اطباقا من لا ينوى افتراارا ولا يهم بصيحة ولو علقت النار بردائه .. مضت سسنوات على احتجاب ذلك الطيف واحتباس حركته ، فكان مغيبه فى نفوس المحبين والعارفين رزءا فادحا وألما بارحا ونزعة شديدة وشقة بعيدة ، وكان فى تصور الخيال خطوة واحدة كخطوة الطيف الهائم جفلته لوأغط الأصوات فأوى الى ظلمته الساكنة ..

مضت سسنوات على وفاة « فرح أنطون » ..

ولقد رأيت « فرحا » مرارا ، ولكنى لم أكلمه الا مرتين

او ثلاثا . وكانت مرة منها في مكتب « الأهالي » اذ كان يعمل في تحريرها ، فتلاقينا في غرفة الأستاذ صاحبها وتعارفنا على يديه ، فسمعت من نبرة صوته وفاق ما رأيت من خشوع نظراته ، وأحسست موضع دأئه فقلت له مؤاسيا - وكان كلامنا على النهضة السياسية - انك يا « فرح افندي » طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة ، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين تفترق الطريقان خيرا مما كانت في هذا الملتقى المضطرب . فأومأ برأسه ايماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال : « انه يا أخى تيار جارف .. فماذا يحفل المستقبل بالحاضر ، وماذا يبالي السائر المغد بمن كان قبله في مفترق الطرق ؟! » فبدا لى أن الرجل يئس من الحياة ، وأنه جرب كل سهامه حتى ساء ظنه بالسهام والهدف . على أنه كان الى يوم وفاته ممسكا بالقوس لا يحول بصره عن الهدف الذى خدعه ، وذلك ديدن غالب فى النفوس الراجية ، وهو كهامة الأمل تتردد حتى تفيض روحه ..

ما يئس ذلك الفاضل الابى هذا اليأس الا لأنه أبعد منزع الرجاء ، فلم يكن غريبا ان يمنى بحسرة المضيع المنبت عن غايته .. لم يكن ذلك غريبا ولو أنه كان فى بلاد الغرب الناشط منشؤة ، وفى ذلك الميدان المهد جهاده . فكيف به وقد نشأ فى هذا الشرق المسرف الذى يمشى بين الأمم فى أطمار الفاقة ، ويمزق ما يضيف عليه من نسج العقول تمزيق البدخ والغنى !! الا أننا نقول : من أين الشرق المسكين أن يفعل غير ما فعله ؟ ومن أين لعظمائه المغبوثين ان يفعلوا غير ما يفعلون ؟! .. كفاهم عزاء انهم أضخم من عظماء الغرب واجبا واجل منهم قربانا ، فان يكن امدهم بعد الآن والنصب قريبا واثراهم بعد

الجهاد ضئيلا قليلا فلتكن سلواهم - لا بل فخرهم - أن
واجبهم ثقيل وان سفرهم على قرب الامد سفر طويل . .

وفرح أنطون : كسائر الكتاب الذين يستوحون قلوبهم
ويقطرون على القرطاس من دمائهم ، مفكر تؤثر في تفكيره
عوامل الحياة وتنبت في نفسه ألوان الجو الأدبي الذي
يحيط به . ولقد قاتنى ان احيط بكل ما كتب ذلك
الأديب الفقيد ، ولكن الذى قرأته من كتبه ناطق بحياة
صاحبه ، يدل على أنه من وحي ذهن لا تمر به مذاهب
الفكر الشائعة في زمانه عبثا ولا تتعارض حوله تيارات
الحياة بغير جدوى ، ولعل أصوب ما يقال في كتاباته انها
خير دليل على اتجاه تيار الفكر في أيامه وخاصة في نشأته
الاولى ، اى فى عهد الصبا المتفتح للدنيا ، المقبل على كل
جديد ، الذى قل ان يوصد بابه فى وجه طارق من طوارق
الأفكار الجميلة ، أو يضمن بموضع فى نفسه على ضيوف
الأحلام اللاعبة والخواطر الوسيمة

نشأ « فرح أنطون » فى سورية ، وكانت نشأته فى
أواسط النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فبقى فى
حياته الفكرية أثر واضح من وطنه المكاني ووطنه الزمانى .
فأما وطنه المكاني فظاهر الأثر فى حملته على رجال الدين
وشغفه بالمؤلفات التى تنهى عليهم أو تخفض من دعواهم
وتقوض من دعائم سلطانهم . . فمن ذلك اكثاره من
الكتابة عن تلىستوى وتلخيصه لكتاب رينان فى « تاريخ
المسيح » واشتغاله بالمقارنة بين « الدين والعلم والمال »
وبين ما يتنازعه سدنة هذه الإرباب الثلاثة من سيادة على
الضمائر والأجسام . ومن ذلك دعوته الى الفصل بين
الكنيسة والحكومة ، ورأيه الذى ارتآه فى كلامه على ابن
رشد ذاهبا فيه الى انتقاد الجمع بين السلطتين الدينية

والدنيوية في الخلافة الاسلامية ، وهو الراى الذى كان من اسباب فشله وكساد مجلته « الجامعة » .

ولعل سائلا يسأل : ولماذا يكون التحدى البين للنفوذ الدينى خاصة من خواص النشأة السورية ؟ . . فأقول لهذا السائل : اننى كنت كذلك أعجب لهذا الامر وأستغرب الفيظ الشديد الذى تتوهج به كتابة السوريين الاحرار حين يحملون على النفوذ الدينى فى بلادهم ويصفون تغلغله فى شئون قومهم . . وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التى يقبض على زمامها رجال الدين فى سورية ، فخطر لى أنه لا عجب ! لان رجال الدين هناك ربما كانوا اقوى الطوائف الدينية فى العالم ، وأوسع رعاة الكنائس اشرافا على حياة اتباعهم . . فقد جمعوا بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم

رناهيك بها من سطوة هائلة تغرى بالتحدى وتغرى بالمناجزة ! أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم ، فللحوادث التاريخية التى حدثت عقب غارات الصليبيين وعقب الاتفاق على الامتيازات الاجنبية دخل عظيم فيه . وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت فى البلاد السورية - ولا تزال - معقد آمال الشعب المسيحى فى الحرية السياسية ، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوربية الاخرى من صلة معروفة ، وانها كانت ولا تزال قائدة الافكار وقدوة المسترشدين لانها منشئة المدارس وطابعة الكتب ومربية الصغار والكبار . واذا اجتمعت لفئة واحدة أزمة السطوة الروحية من كل جانب - كما اجتمعت لفئة القسيسين السوريين - فغير عجيب الا يرضى عنها ، وأن يتبرم بها ، فريق الشبان

المتعطين الى المعرفة الحرة ، التواقين الى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الابية والعقول الطليقة والاخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات . . . وغير عجيب ان يجعلوا تحديها والأغراء بها هجراهم وشغلهم الشساغل في كل ما يدرسون ويكتبون . وهذا ما تراه في كتابات « فرح أنطون » مع شيء من الرفق والاعتدال ، وتراه على تفاوت في الجرأة وغلو في المهجة - في كتابات الأدباء السوريين المهاجرين الى الاقطار الامريكية

اما وطنه الزماني ، فأثره ظاهر في الطريقة الكتابية التي تبعتها منذ عهده الاول ولم يغيرها الا قليلا في عهده الاخير . . . ونعني طريقة الكتاب القائلين « بالعودة الى الطبيعة » . . . وهي كما لا يخفى الطريقة التي كانت كتبها وآراؤها ميسورة للقارئ الشرقي في ذلك العصر حين يأخذ في مطالعة الآداب الفرنسية ، ولا سيما الخفيف القريب المتناول منها . فلما ترعرع « فرح » واشتاقت نفسه الى ما عند الغربيين من زاد الفكر ولذة النفس ، ألفى بين يديه كتب روسو وبرناردين وغيرهما تدعوه الى موائدها السهلة الهنيئة . . . فاقبل عليها ولهج بها وتملكت له وأصابته من فطرته الوادعة الكريمة موقعا حسنا . . . وحق لها ان تصيب ذلك الموقع لانها كانت في عصرها اصدق ما يعبر به عن سلامة النفوس من آفات المدنية وأدرانها وجور الطفافة من سياسة القرن الثامن عشر ، ويخيل اليك ان اديبنا كان يكتب بقلم من اقلام أولئك الفلاسفة والأدباء الذين تعشقهم وأغرم بأرائهم لقرب مأخذه من مأخذهم ومشاكلته اياهم في أسلوبهم وطلاوة عبارتهم . ولا أقول انه كان يقلدهم أو يترسم خطاهم ، فاني أجله عن ذاك ولا اضعه دون برناردين مثلا في منزلة او صفة ، ولكني اقول انه توافق في الفطرة

وتطابق في النظرة يسلكه في مضمارهم ويتقدم به الى صف الكثيرين منهم ..

على اننى لا احسبه استمر طويلا على الايمان بعقيدة العود الى الطبيعة وابتغاء السلام في حظيرتها ، اذ هي عقيدة لا تثبت على تجارب الايام واختبار حقائقها ولا تبهر النظر في ضوء المذاهب المستحدثة بعد روسو وتلاميذه . ولا اشك في انه اجتواها واعرض عنها بعدما زاول من حقائق الدنيا ونظر في دارون ونيتشه .. فان الاطلاع على دارون ونيتشه ومن هذا حظوهما ينشئ للنفس احساسا جديدا « بمسئوليات » الحياة ، يفض من قداسة الرجعة الى الطبيعة ، ويجعل النكوص من المعترك وصمة وعارا . هذا فضلا عن ان الطبيعة التي يصورونها ليست بالملاذ الانيس ولا بالملاجئ الامين من شرور المدنية واوضار المجتمع .. انما هي والمدنية سواء في حكم تنازع البقاء وبطش الاقوياء بالضعفاء والاشرار بالاتقياء

وفي مناجاة الكاتب لشلال « نياجرا » وقفة تريك العابد يمسح صنمه ويؤنبه ويسبح باسمه ويذكر له قلة غنائه عنه .. تريك « فرحا » يحب الطبيعة وينكرها ويلومها ويعذرهما ويقول فيها ما يقوله الكافر الذي يود لو يؤمن والمؤمن الذي شق عليه ان يكفر .. ففي مزاجه حنين الى عقيدته القديمة فيها ، وفي عقله نبوءة عن سوء ظن بها . ومن هذا النزاع بين مزاجه وعقله استملى مقالا من غرار ما يقرأ على نمطه في آدابنا الحديثة ، وبث زبدة حياته وصفوة تجاربه في بضع صفحات لا يمل تكرارها .. وعندى انها حسب كاتبها من اثر في عالم الكتابة ان لم يكن له قط اثر سواها ..

كان « فرح انطون » كاتباً على استعداد للرواية والقصص ، وكانت ملكته القاصة تظهر أحياناً في مقالاته الأدبية والسياسية كما تظهر في رواياته وحكاياته . .
فمال به هذا الاستعداد الى وضع الروايات فأحسن وارتفع في روايته « اورشليم الجديدة » ثم تقلبت به صروف ، وألمت به محن ، وتجرع من مرارة الخيبة مراراً . . وطلب اليه وهو بين اليأس والرجاء أن يترجم أو يكتب للمسرح ، فلبى وبدأ بداءة حسنة ، ولكنه لم يحقق بغيته ، ولم يصنع شيئاً يليق به أو يضرب الى محاسنه . . وقد حضرت إحدى رواياته التلحينية ، فما أظقت الصبر اعلى أكثر من فصل منها . . ولم أر في موضوعها ، ولا في فنها ، ولا في غنائها ، ولا في ممثليها ، ولا في الجمهور الذي يسمعها ، أثراً لـ « فرح انطون » الذي نعرفه ، ولا علامة على ملكته السامية ومكانته الأدبية ، وهي زلة نأسف لها ونعتبر بها . ولكن هل هو أول من يلام على اضطرابه الى هجر ملكته والخروج عن جاداته ؟ ألم يكن يربح في الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعدل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته الصالحة ؟ . . فمن المسئول عن ذلك ؟ . . أهو أم الجمهور الأحمق المأفون ؟ ! وماذا كان يصنع « فرح انطون » ان لم يؤلف تلك الروايات ؟ ! . . ألا فلنعلم اننا اذا كنا لانختار للأديب النابغ المريض المنقطع الموارد الا أن يموت بيننا على « الكتمان » جوعاً ، فقد يحق لذلك الأديب ان يختار لنفسه خاتمة أسلم واكرم من تلك . .



عبدالغول "می"

في سجل الادب « الخاص » من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية الى اليوم ، وان كانت منها ما يهم ان يطلع الى عالم النور من طيات الخفاء . .

ونعني بالادب الخاص ، ذلك الادب الذي لم يقصد للنشر وان كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير اصحابه في حياتهم الخصوصية . وعلى رأس هذه الصفحات صفحة « الندوة » التي كانت تعقدها نابغة جيلها « ماري زيادة » وقد اختارت لتوقيعها الادبي اسم « مي » من الحرفين الاول والآخر في اسمها بدفتر الميلاد ، وتأتي هذه الصفحة على رأس أمثالها بين صفحات هذا الادب الخاص ، لمكان « مي » من نهضة الادب ونهضة المرأة في آن

أو جمعت الاحاديث التي دارت في ندوة « مي » لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة « الاغانى » في الثقافتين الاندلسية والعباسية

وأو جمعت الرسائل التي كتبتها « مي » أو كتبت اليها من نوع هذا الادب الخاص لتمت بها ذخيرة لا نظير لها في آدابنا العربية ، وربما قل نظيرها عند الامم الاوربية

التي تصدرت فيها المرأة مجالس الأزياء الأدبية والأزياء الاجتماعية ، إلا أن يكون ذلك في عصر « الصالونات » أو عصر النهضة منذ القرن السابع عشر إلى ما قبل القرن العشرين

أذكر هذا بعد قراءة الرسائل التي نشرتها مجلة «الهلال» للعلامة المفضل استاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، فإن هذه الرسائل تعرفنا بصورة للطفى السيد لا نعرفها من كتابته في الجريدة ولا في كتابته في تراجم أرسطو ، ولا في كتابته بدواوين الوزارة ، وفيها من طابع الشخصية ، وطابع الندوة ، وطابع العصر ما تحسبه خاصا ان شئت ، وتحسبه ملكا عاما ، من ناحية الفن ، لقراء الأدب الذي اقترن باسم لطفى السيد ، واسم مى ، وأسماء كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين

وعند مى - على ما نعلم - أنماط عديدة من الرسائل التي تسلمت في عداد هذا الأدب الخاص ولا ندرى أين موضعها الآن ، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقت هسا أو ردتها إلى كتابها لتسترد منهم كتبها اليهم ، كما صنعت في غمرة من غمرات الحزن ، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها ..

ولكن الذى بقى منها في موضعه أو عند أصحابه ، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل في جمعه ، واثقاذه ، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه ، وهم قراء الآداب ومحبو الفنون ..

كم كان زوار تلك الندوة العسالية ؟ وكم كان كتاب الرسائل منها واليها ؟

اننى اعد ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين ، أذكرهم كما ترد أسماؤهم على القلم في هذه الساعة : لطفى

السيد ، عبد العزيز فهمي ، شبلي شميل ، سليمان
البستاني ، احمد شوقي ، خليل مطران ، انطون الجميل ،
داود بركات ، نجيب هواويني ، توفيق حبيب ، توفيق
اسكاروس ، أمين واصف ، مصطفى عبد الرازق ،
مصطفى صادق الرافعي ، هدى شعراوي ، احسان
القوصي ، ادجار جلاد ، سليم سرקيس ، يعقوب صروف ،
حافظ ابراهيم ، اسماعيل صبري ، ادريس راغب ،
فؤاد صروف ، عبد القادر حمزة ، منصور فهمي ، طه
حسين ، ملكة حفني ناصف ، مجد الدين حفني ناصف ،
عبد الستار الباسل ، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف
التشكيل ومع حفظ المقام ، كما يقال في هذا المقام

وكل زائر من هذه النخبة كان حقا له ان يزور الندوة
في موعدها في اصيل يوم الثلاثاء ، وكان يرى من حقه ،
او واجبه ، ان يعتذر لفوات موعده منها بعض الايام ،
بل كان من حقه ان يكتب رسائل الاعتذار او رسائل
السؤال والتحية وان لم يكن من مطعمه دائما ان يتلقى
الجواب ..

اكل هؤلاء عشاق ؟ ..

وعلى كل من هؤلاء ينبغي ل «مي» ، اذا اجابت ، ان تجيب
جواب المحبوبة التي تتقبل العشق ممن يدعيه ؟

هذا هو خاطر العاجل الذي يسبق الى الوهم كلما
ذكرت تحيات الرسائل ، او انقصائد احيانا ، من غير
واحد في هذه الزمرة المختارة

وهذا هو خاطر الذي تصححه لمحة سريعة ايضا ،
الى طبيعة الندوة وطبيعة التحية « العرفية » التي
تناسبها ، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، ان لم
نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية !

فتاة جميلة أديبة ، يزورها ادباء وشعراء وكتاب
قصة واصحاب ذوق في جمال الكلمة وجمال الطلعة

ان فات احدا من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام ،
فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة ، ولو لم تكن زيارة
عشيق ومناجاة

وان فات «ميا» أن تتقبل هذه التحيات ، أو واجب عليها
— كما قد يخطر على بال الاقدمين — أن تصدها بالعبوس
والغضب ، فليست هي زيارة « ندوة » اذن . . ولكنها
زيارة واحدة قد تنتهى كما تبتدىء عند باب الدار

وهذا هو تأويل الرسائل على اسلوب الفن العاطفى ،
او العاطفة الفنية ، بين صاحبة الندوة وأكثر من زائر من
نخبة هؤلاء الزوار

ولكل منهم أسلوبه في تعبيره داخل هذا الاطار من
التحية

لطفى السيد واسلوب الجنتلمان الفيلسوف . .
وعبد العزيز فهمي واسلوب الصمت الخجل ، كأنه
الصبى في مجلس الفتيات القريبات . .

وأنطون الجميل واسلوب بائع الجواهر في معرض
الهوانم . . .

وشيلي شميل واسلوب المصارع فى حلبة الفكر
والشعور . .

وخليل مطران واسلوب مولير على غسر مسرح
التمثيل . .

وسليم سركيس واسلوب الدعاية للبيوتات فى صالون
من أشهر صالونات البيوت

ومصطفى صادق الرافعى وأسلوب المفاجأة بالكتابة التى
يفنى الاطلاع عليها عن السماع ..

واسماعيل صبرى وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق
الفضل الصريح أولى بالرعاية من حق الكناية والتلميح، وهو
انذى كان يكتب الابيات قبل يوم الزيارة مستئذنا فى
الحضور :

ان لم امتع بمى ناظرى غدا
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

وأحمد شوقى وأسلوب الايماء من بعيد ، وعليه تعليق
الفيلسوف المعجب بالطرفين !

تألف لجنة من لجان المحافل الثقافية ، فيخرج شوقى
من صمته مرة واحدة ليشترط أن تكون «مى» سكرتيرة
اللجنة ، والا فلا احتفال ..

ويدركه لطفى السيد ليسأل ، أهذا اقتراح شعرى أو
اقتراح فى النظام ؟! ..

وغير ذلك من الاساليب كثير على كل لون ، ومن كل
طراز ، ولكنها كلها أساليب التهذيب واللباقة التى تناسب
الزوار وصاحبة الدار ..

وبين الزائرين الذين كانت لهم زلفى الرعاية الطويلة
ادريس راغب رئيس المحافل الماسونية الى عهد الملك احمد
فؤاد ، ولم تكن «مى» من اعضاء المحافل الماسونية على ما
أعلم ، ولكن ادريس راغب كان يملك مطبعة المحروسة
وينزل لوالد مى الياس زيادة عن حق ادارتها واصدار
الصحيفة منها ، وكانت لـ « ادريس راغب » هواية صحفية
تمكنت منه على الخصوص بعد عزله عن وظائف الادارة
على اثر القضية المعروفة بقضية ارض المطرية بين الخديو

عباس وحسن موسى العقاد ، فاقتنى المطابع لاصدار الصحف الفرنسية والعربية ، وخص والدمى بالإشراف على المطبعة العربية دون أن يقيد بسياسة يملكها عليه ، وكانت زيارته اندوة مى أشبه بالزيارات العائلية كلما اصطحب معه احدى كريماته الفضليات ، وان ابت عليهم محافظة الاسرة أن يجلسن مع الزوار ، فاذا حضر منفردا عرفنا ذلك من سؤال مى عن آل بيته السيدات ، ومن جوابه بالاعتذار عنهن ، أو دعوتها الى زيارتهن فى موعد قريب ..

وكانت الانسة مى حريصة على تقاليد العرف فى الصالونات العائلية الى حد التكلف .. فهى تعقد ندوتها الاسبوعية للادب والادباء ، ولكنها لا تنسى برنامج الصالون المصطلح عليه فى البيوت ، ولا تحب ان يظن الزوار العائليون أن أدبها ينسبها تقاليد (ربة الصالون) فى مجتمع الاسرة ، وان مادة الثروة الاجتماعية (نمره) منتظرة فى كل صالون يحضره اناس من اصداقائها الادباء الذين تعرفهم معرفة عائلية وتقابل زوجاتهم واخواتهم فى بيوتهم وفى ندوتها ، وقد كان يلوح لى غير مرة انها كانت تنتظر من اولئك الزوار العائليين خبرا أو أخبارا عما يجرى فيه الحديث بينهم فى شئون الزواج والطلاق والخلاف والوفاق وتعقب عليه بملاحظة عابرة أو نكتة فكهة ، الا ان يكون فيه شىء من المساس الصريح بالاخلاق المرعية ، فهى فى هذه الحالة تتابعه بالصمت أو تصرفه بكلمة عابرة ..

قال أحد الحاضرين يوما : أسمعتم ان الاستاذ حافظ رمضان قد تقدم لطلب الزواج من السيدة هدى شعراوى ؟

ف قالت : « انه خطيب كفؤ للزوجة المخطوبة ، والتفتت

الى كالمسائلة عن رأيى فى رأيها هذا ، لان الخطيبين لهما شأن فى الحياة العامة ، فقلت بغير اكتراث كأئنى أساق سوقا الى الحديث :

— ان الامر يعنيهما ، وبارك الله للعريس فى العروس وللعروس فى العريس .. !

وقد كانت « الحشمة الصعيدية » لا تفارقنى بحكم العرف الذى نشأت عليه ، وكنت اشهد مجلس والسدى فى صباى فلا اسمع خبرا من هذه الاخبار التى تدور على الحريم وكل ما يتصل به من تبر او علانية ، فاذا عرض اتفاقا فانه يعرض ليصرف على الاثر ولا يعاد اليه .. وكانت رحمها الله مولعة بالالاحاح على فى هذه الاحاديث خاصة ، وهى تنظر الى تخرجى من الخوض فيها نظر الحضرى الى الريفى (الخام) القادم من القرية صباح يومه .. !

سألتنى مرة : هل صحيح ان الاستاذ عبد القادر حمزة تزوج من السيدة منيرة ثابت صاحبة الامل ؟ قلت : لا اعلم .. ولم ينشر الخبر فى البلاغ على الاقل ! قالت متهاففة : او لا تعلم من اخبار زملائك فى البلاغ الا ما ينشر فى الصحيفة ؟

قلت : او ما يعينى ان ينشر ! فعادت تقول فى شىء من التخابث المصطنع : لا يا استاذ .. لعل الخبر لا يرضيك لامر يعينك ..

وكانت تتحدث قليلا جدا عن يخطبونها كأنها تعتذر لرفض الخطبة بعد الخطبة ، لغير سبب وجيه فى رأى الاصدقاء الذين قد يلومونها على اعراضها الدائم عن الزواج

قالت مرة لمن سألها عن خطبة شاب من أسرة غنية ذات لقب غير مقبول :

أتريد أن تنادينى غدا باسم مدام « بعجور » . . ونحن نذكر اسم « بعجور » هنا بدلا من اسم الاسرة الصحيح ، رعاية لشعور ابنائها الاحياء

وخطبها طبيب لبنانى فعاتبها صديق له لانها ردت بهشء من الجفاء ، فقالت : انه لطيف . . لطيف لا خلاف ، ولكن اللطف الذى قد يسميه من شاء (تأثا) لا يعجبنى وخطبها صحفى ثرثار كانت تصفه بببوسة المخ ، فلم تزد فى جواب السائلين على السماح للخطيب المرفوض يوما من أيام الندوة بالانطلاق فى الحديث على عادته من اللجاجة وألعت ، فكاد الحاضرون أن ينصرفوا جميعا . . وكان هذا هو جوابها الغنى عن البيان ! . .

وتحدث بعضهم عن فتيات لاهيات متطرفات فى الحرية الاجتماعية ، وأبدى اشفاقه من فوات حظهن فى الزواج بمن يناسبهن ، فقالت ساخرة :

— ولكن هؤلاء وأمثالهن ، يا استاذ ، هن اللواتى يسرع اليهن الازواج من الاكفاء ، وفوق الاكفاء ! . .

ولقد كان لكل من رواد ندوتها العائليين ، دور (عائلى أدبى) ملحوظ على منهجه المؤلف . .

كان للدكتور شمىل دور الاب العصرى الذى يحض فئاته على (التحرر) من قيود التربية العتيقة ، وكان رفع الكلفة مع الناس جميعا طبعا من طباع الدكتور شمىل لا يتكلفه مع أحد . فاذا استقبلته يوما فى الندوة ، فلمح على محياها اثرا من آثار الوجوم والاحتجاز ، صاح

بها صيحته - الفضنفرية - : ما هذا يا صغيرتى ! ..
انا حاضر هنا الى صغيرة مثل بناتى .. فماذا ارى ؟ شيخنة
اناديها يأم شولى ؟

وكان شميل يملك حرите كلها فى الندوة ، كأنه صاحب
الدار وصاحبته هى الضيفة الزائرة فيه .. فرفع عصاه
ذات يوم على الخطاط المشهور نجيب هواوينى ولم يدعه
حتى أخرجه من الباب ، وذنبه الذى استحق عليه هذا
الطرد العنيف انه كتب قصيدة كان الدكتور يلقيها ويقول
فيها على ما ذكر :

ماذا دهاك وكنت دين سياسية
ورئاسة يأيها الاسلام

فكتب الخطاط (الكسلان) بدل الاسلام ، وثارت
ثورة الدكتور على الرجل الذى يبلغ من غبائه ان يكتب
فى القصيدة الواحدة قافية باننون بعد قافية بالميم ، وابتى
ان يكون لمثل هذا حق فى حضور ندوة يحضرها من يقرءون
ويكتبون !

وكثيرا ما كان شميل يحمل على « الادباء » فى عصره
حملاته المنكرة ، ويصيح بهم كأنهم حاضرون امامه
يخاطبهم ويخاطبونه :

- فضونا من غلبتكم يا أدباتية يا اولاد الكلب .. !
وكانت الانسة تجيبه ضاحكة كلما صاح هذه الصيحة :
- قلمك يقول اننا اولاد القرد ولسانك يقول اننا
اولاد الكلب .. فمن من الوالدين الكريمين تستقر نسبتنا
إليه !

وكان للاستاذ داود بركات مثل هذا الدور الابوى
المتحرر من الفتاة الرصينة المتحرجة ، وقد يتجاوز

النصيحة الكلامية الى الاخذ بيدها في محافل العائلات
التي يسمح فيها بمراقبة الفتيان والفتيات ، لجذبها
جذبا الى مراقبة هذا أو ذاك من زوار الدار ، وكانت
هى تتملص من يده بلطف ووداعة ، ولكن بعناد واصرار ..

والاستاذ الجميل كان كصديقيه شبلى وبركات فى
هذه الابوة الادبية ، ولكنه كان يؤثر نصيحته برعاية
صحتها وراحتها على النصيحة بالتححرر والانطلاق من
قيود التحرج والاحتجاز ، وقد كانت له شدة تبلغ منه
غاية ما يستطيعه بمزاجه (الدبلوماسى) المطبوع ، كلما
لاحظ عليها نوبات العناد والاصرار فى أيام مرضها الاخير ،
فربما قال لها وهو يظهر قلة المبالاة :

ـ ماذا تظنين وانت تهملين صحتك هذا الاهمال ؟
أتظنين ان العالم الادبى يجفل من احتجاجك الصامت
هذا ويجلس للبكاء عليك أو للضراعة بين يديك .. التفتى
الى نفسك .. التفتى لمصلحتك ، والا فأنت البسائية
وحدك لما يصيبك من هذا الاهمال ، وهذا العناد ..

اما الاستاذ خليل مطران فقد كان دوره فى الابوة
الادبية كهذا الدور بعينه ، ولكن من ناحيته الفنية الشعرية
.. ولعله كان دور (الاب) المبرح فى صورة من صور
ابطال « مولير » تلقى القبول والاختيار ، حيث تكون
الابوة هناك ابوة جد والزام ..

كانت طريقته معها طريقة الدعابة السمحة والنقد
المباح ، وكان فى دعابته احيانا يضع تكلفها الاجتماعى او
العاطفى موضع « الرياء » المتفق عليه ، ويغايظها
بإبراز هذا الرياء للعيان ، فلا تغضب منه ولا تأباه ، بل
تضحك منه كما يضحك الزوار ..

خرجت يوما لتودع سيدة جليلة وكريماًاتها من

اصدقاء مطران فخرج معهن ، وطال بهن الموقف عند باب
الندوة بين التوديع ، وإعادة التوديع ، والحزن للفراق
والرجاء في قرب اللقاء . . فلما انقضى هذا « الفصل »
الذي لا حيلة في تمثيله على البساده او على الروية ،
سبقهم الشاعر الكبير عائدا الينا وهو يفرك يديه ويتباكى
من الحسرة والاسى ، وراح يقول وهو ينظر الى الانسة :
- يا سلام . . يا سلام . . « الجماعة دول وداعهم
مؤثر . مؤثر قوى . . ! »

فقلت له متشككا كأننى أقتص من دعابته التمثيلية !
- مش باين يا استاذ . .

قال : رحمتك يا اخ . . . اتريد ان الطم ؟ وحضر فى
اثناء ذلك زائر كبير من زوار الندوة وهو يغالب الضحك
على خلاف عادته من الوقار . . فقال مطران : الحمد لله . .
ماذا يضحك يا استاذنا الجليل !

وكان الزائر الحاضر هو العالم الفيلسوف الامثل
الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، وقد مر ببار اللواء فى
طريقه الى دار الانسة فاستوقفه صديقه الادارى الاديب
« أمين واصف » وحدثه عن رئيسها احمد شفيق (باشا)
فى جماعة الرابطة الشرقية ، وراح يحكيه وهو يمشى الى
محطة العاصمة بملابسه التى اخترعها لتوحيد الازياء
الشرقية ، وكان من حديثه عنه انه لم يسلم عليه حين رآه
للوهلة الاولى ، لانه حسبه فى ذلك الزى مسجونائيسفرونه
تحت الحراسة الى اليمان !

وأقلب (التباكى) القريب الى « انفجارية » مندفعة من
ضحك القوم جميعا ، لانهم كلهم يعرفون اُصاحيك أمين
واصف ومراسم الشيخ المتزمت الفالى فى التزمت أحمد
شفيق

وثاب الشيخ عبد الرزاق الى وقاره بعد هنيهة ، فقال
كالمعتذر من هذه الثورة الضاحكة الى الأنسة ربة الدار :
- ما هذا .. اننا نضحك هذا الضحك مرة واحدة ، فلا
تؤاخذينا ، فالعتب على القافية ..

ولحقه مطران بغير أناة وهو يواصل ضحكه ويقول
للشيخ : أضحك ، أضحك يامولاي .. من الذى يطول
ضحكة من هذه الضحكات فى هذه الايام ؟!

ومن مطران مورد « مى » الاكبر من النوادر المسموعة
والفكاهه المنقولة عن المصادر العربية ، منه سمعت نادرة
« الاسطقسات » التى تعودت أن تعيدها فى بعض المناسبات
كلما ذكرت الفلسفة ، وقيل ان غموضها داء يسكن العقل
ولا يفارقه بفراق الروح للجسد :

مات « ابن سينا » فصدرت الاوامر السماوية الى
الملكين الموكلين بأهل المقابر لسؤاله عن ربه ودينه قبل
ان يستعد للحساب بفلسفته المعهودة ، وسأله منكر :
- ما ربك ؟

قال : انه اسطقس فوق الاسطقسات !
فنظر الملك الى صاحبه مستفسرا وأوماً اليه ان يعيد
هو سؤاله لعله يسمع ما لم يسمعه ، فقال له
نكير :

- من الهك ؟

قال الشيخ مرة اخرى : قلت لك انه اسطقس فوق
الاسطقسات .. الا تسمع ؟

فلبت الملكان لحظة يتبادلان النظر ، وهما لا يفهمان
شيئا ، ولا يدريان كيف يتممان الحساب ويخلصان من

هذه المهمة مع هذا الميت المتعب ، واتفقا أخسيرا على الرجوع الى الله ليأمره بما يراه ..

فلما روي القصة سألهما : ومن هو الرجل ؟

قالا : اسمه ابن سينا ولقبه « الشيخ الرئيس »

قال جل وعلا : ويحكما .. تريدان أن تفهما من هذا الرجل حسابا ؟ .. أنه قضى عمره يزعم أنه يتكلم في صفاتي الالهية ولا اسمع منه كلاما مفهوما وأنا صاحب الصفات .. اتفهمانه انتما في سؤال وجواب .. دعاه ولا تعودا اليه ..

وكان مطران أخبر زوار الندوة باللغة التي يجيب بها عن أسئلتها كلما سألت عن أحد ، أو عن امر ، لا يسمح المقام بالصراحة « التامة » في الحديث عنه . جرى ذكر شيخ من كبار المستهترين في زمانه فضحكنا ، فسألت لماذا تضحكان من سيرة هذا الشيخ .. من هو ؟!

قلت : انه شيخ « متعبد » وشرب الخمر أخف معاصيه ..
قالت : يا حفيظ ..

والتفتت الى مطران ففهم انها تستزيد البيبان ، فقال : هو رجل مستريح الضمير ..!

وربما كانت الالفه « العائلية » أقرب من الفة الادب في ترجيح دور مطران في الندوة ، لان والدة الانسة مى - وهى سيدة ذكية حازمة - كانت تعرف أهله كما تعرفه وتستمع اليه وان لم يتحدث عن الادب والفلسفة ..

وانطلق ذات ليلة فى نوادره ومداعباته واخباره لا يكاد

يسكت أو يؤذن السامعين بالسكوت ، فهمست في اذن
الآنسة أقول : يحق للسيد خليل أن يعجبه كلامه كما
يعجبنا ، فإنه يحدث ظريف خير بأفانين السمر

وسمعت والدتها هذه الملاحظة الهامسة فابتسمت
وقالت بصوت مسموع : انه كأمة تماما . . أمه مثله
كلمة كلمة !

وقد كنت - كلما ازددت معرفة بـ «مى» وبحياتها في ندوتها
وفى بيتها - اشعر بحنان هؤلاء الافاضل الابوين نحوها ،
فأنهم - ولا ريب - كانوا يقصدون التسرية عنها ، ويدركون
من بواكير صباها ان فرط التزمت فى طويتها يجاوز حده
المأمون ، وانما يوشك ان تعاني كثيرا من عادة العزلة
النفسية التى جنت عليها فى اخريات أيامها ، وأنها تغالب
شجنا كمينا لا نطوائها الشديد على ذاتها ، يخيل الى انه
مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق فى
سليقتها الدينية





أحمد لطفي السيد

كان فى فكرته « افلاطونيا » بجميع معانى هذه الكلمة ،
ومن معانيها « الافلاطونية » التى هى فكرة بغير منفعة أو
بغير داع من دواعى الاثرة والانانية ، كالحب العذرى كما
نفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب الى ما نعنيه فى هذا المقال ، ان
الرجل العام ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة تطوعا وحسبة
بغير جزاء ، والا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لان
الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل
التفرغ لتلك الخدمة ، وليس له بعد ذلك حق فى وقته
الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الافلاطونى كما شرحه افيلسوف
انيونانى فى كتابه الموسوم باسم « الجمهورية » .. وقد
اشتهر فى العالم القديم والعالم الحديث باسم جمهورية
افلاطون

ولقد كان « لطفى السيد » يعيش فعلا على وفاق هذا
الدستور ، وكان - من زمن بعيد - يعهد فى زراعة أرضه
وتثميرها الى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات
حسابها ، مكتفيا بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل
عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت
كطريقته فى تدبير حساب ضيعته ، وهى الضيعة التى أبى

أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسائة فدان ، لا تدخل في تقسيم الميراث بينه وبين اخوته ، فأبى ذلك وأصر على الإبقاء ولم يتقبل من الميراث غير حصته التي يستحقها مع سائر الورثة على سنة المساواة ..

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوما حتى وصلنا الى نادى « محمد علي » ، وكان النادى على مقربة من المجمع اللغوى ، اذ كان مقره بأول شارع قصر العينى ، فدعاني الى اتمام الحديث فى مجلسه المختار بالنادى حيث كان يقضى أوقات الفراغ ويتناول أحيانا طعام الغداء أو العشاء ..

وحضر الى النادى صديقه الدكتور بهى الدين بركات ، فعلم منه عرضا انه ينوى السفر الى عزبته لبعض أعمال زراعية تستلزم حضوره ، فسأله فسطنعا الجدة كعادته فى توجيه بعض الاسئلة التى يريد أن يستطرد منها الى مناقشة من مناقشات الفلسفية :

قال يخاطب الدكتور بهى الدين : وهل من حق «الرجل العام» أن يفرغ لخاصة شئونهِ ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التى تعودها منه - على ما يظهر - كما تعودها محدثوه ، وقال ما معناه :
- وهل العمل فى الارض محرم فى شريعة الحكمة ؟

قال : أنا لم أقل هذا

وأردت أن أشترك فى المناوشة فقلت : انما هو سؤال ليس الا ..

قال الدكتور بهى الدين : أهو سؤال برئ ؟

قال الاستاذ : اما انه سؤال برئ فلا .. !

ومضى الدكتور بهى الدين يتحدث عن العمل الذى

يسافر الى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات للتعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين . .

فعاد الاستاذ يقول : أما هذا فمرخص به للرجل العام . .

وقد كان أقدم زملائه واصدقائه من أيام الدراسة الثانوية عبد العزيز فهمي « باشا » يداعبه كثيرا من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه في رأى من آرائه الفلسفية أو اللغوية : انك يا لطفى تفكر للكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية

وكان أمتع الوان الحديث بين الرجلين الكبيرين تلك الاحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثناء الطريق من دار المجمع الى مصر الجديدة ، حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيرا أن يدعوانى الى صرف سيارتى ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع ، ولاسيما الجلسات التى يطرأ فيها بعض الخلاف بينى وبين عبد العزيز « باشا » فى مسائل اللغة أو الادب . . وحدث ذلك كثيرا أيام المناقشة على كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانونى الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه

فتمال لى مرة ، وقد انس من الاستاذ لطفى شيئا من الميل الى ترجيح رأىي :

- أوع تطلع فيها يا عقاد على طريقة استاذنا « لطفى » . . ان « لطفى » ينظر الى هذه الامور التى تشتغل بها نظرة الارباب . . قل له : ما رأيك اذا كتبت العربية غدا بالحروف الصينية ؟ يقل لك على الاثر : ويجرى ايه ؟

فقال لطفى : « ويجرى ايه » ؟

وعاد عبد العزيز يكرر الحديث عن نظرة الارباب

وصديقه يكاد يهيم بالتأفف من هذا التكرار ، حتى قال متأثرا :

- ألا ترى انك تسخر منى بهذا الحديث عن الارباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع عبد العزيز يرد على صديقه بلهجة جافة ، كلهجة الدائن الذى يخاطب المدين المماطل :

- ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلا :

- ليكون حديث أرباب ٠٠ دع الارباب هى التى تحتج عليك هذه المرة !

معركة ولى العهد

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى لطفى السيد ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم عبد العزيز فهمى ، ألا من امثال هذه المساجلات التى تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من الشدة أن « يقفل » عبد العزيز فهمى التليفون فى وجه صديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها أيضا ذلك الموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية

روت احدى الصحف عن الامير محمد على توفيق انه يستنكر الدعوة الى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فثار عليه ثائرة عبد العزيز فهمى وبسط لسانه فيه بكلام حاد على مسمع من أعضاء نادى محمد على ، وقد كان الامير محمد على رئيسه يومذاك ، وكان من أيسر ما قال فى تلك الحملة خطابه لسامعيه وهم يجتهدون فى تهدئته :

- أتحسبون اننى لا أحترم الامير محمد على ؟ أتحسبون انه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه الفصيحة « كخذروف الوليد » يستحق منى غير الاحترام ؟ كلا . اننى مطالب

باحترام ولى العهد بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى توا الى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشریفات وجعل مناسبة هذه الكتابة فى غير موعد من مواعيد التهئة او المعايدة : انه يسأل الله أن یرزق الملك ولى عهد رشيدا تقر به عيناه !

وسمع لطفى السيد بهذه الجملة ، فخطابه تليفونيا لیزجوه أن یتترك الامیر وشأنه على الاقل فى أحاديث النادى . . فوضع اعبد العزيز سباعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر من هذا المسلك مع صديقه الا بعد أيام ، وان كان على هذا فى سائر أحواله عظیم الاكبار له عظیم الثناء عليه



ولا شك ان كلام القاضى الكبير عن نظائرات صديقه الكونية لم یخل من أسنلوب الدعابة التى تبیح بعض المبالغة ؛ ولكنهما - بعد السماح للمبالغة بحصتها فى وصف هذه النظرات - لم تخل من العدل فى تقرير الواقع الى حد محدود

ف « لطفى السيد » كان ينظر الى المسائل الفكرية والاجتماعية نظرة محيطية واسعة یوشك أن تتعادل فيها جميع الجوانب والاطراف ، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماما بما یعتقد فيه الخير والصالح ، وكنا نلمس على محياه امارات الغم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الامور على غير ذلك الاعتقاد فى الحياة العملية . .

الا أن الامر الذى كان یبیح لصديقه أن یحسبه من الارباب فى تفكيره ، أنه على كل ایمانه بعقائده العقلية والخلقية لا یرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق فى ایمان كهذا الايمان ، اعلى نخلاف ما یراه بعقله ووجدانه . .

وكان كثيرا ما يقول لمن يحتتم أمرا من الامور : وهل فى هذه الدنيا شىء ضرورى ؟ وهل فى هذه الدنيا أحد ضرورى ؟ وهل يمتنع غدا أن تتساوى النتائج وتتلاقى الاضداد التى نحسبها الآن على افتراق بلا لقاء ؟

رأى لـ (سعد زغلول)

وهذه النظرة المحيطة هى سر « ديمقراطيته » فى مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه فى العمل ، وان خالفوه أبعد المخالفة فى الاراء ، ولا أذكر مرة واحدة فى نحو عشرين سنة قضيناها معه بمجمع اللغة العربية ، انه حاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر فى اتجاه المناقشة أو يقاطع صاحب رأى يعارضه وينفر منه ، وانما كان على الدوام . نهاية المناقشة ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك انه كان معهم على خلاف . .

تلك السماحة الواسعة فى تقدير وجوه الخلاف جعلته مرجعا للمشورة الصادقة بين أصدقائه وتلاميذه من المشتغلين بالحكم والقائمين بأعمال الوزارات ، فقد كان يحضهم الرأى من جميع جوانبه ويوازن لهم بين جميع احتمالاته ، ويتركهم أحرارا فيما يختارون ، وان كان ليتركهم أحيانا أخرى على باب التيه يحارون بين مضطرب الافكار ومفترق الظنون والتقديرات ، ولا أدري ممن سمعت - أمن سعد زغلول ام من محمد محمود - ان لطفى السيد قوى الفكر ولكنه قد يكون فى بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين ، فيقف به هذا التعارض دون العمل المستطاع ، أو يقف به دون الحماسة لرأى من الرأيين ، ولا بد من الحماسة « ذات النظر الواحد » لمن يريد أن يمعن امعان الجهد والعناد فى طريق مقصود الى غرض محدود ، ولم يكن لطفى السيد قط ذا نظر واحد

يحجب عن تفكيره سائر الانظار ..
ويلوح لى ان السماح الخلقية تشارك هذه السماح
الفكرية فى مسلكه الديموقراطى بين الناس وبين
المعتقدات ..

فلم يكن من طبعه أن يصادم أحدا أو يصطنع فى
الخصومة قسوة ولدا .. ولكنه كان يثبت فى مكانه
ويترك لمن يخالفه أن يصطدم به اذا شاء ، ولا سماحة فيما
وراء ذلك اذا سامته السماح ان يتحول عن مكانه الذى
استقر عليه ، فهو عند رأيه لا ينحرف عنه وان أعطاه من
الصور الفكرية ما يدفع عنه شر الضغينة وآفات ..

مصر للمصريين

كان من مبدأ لطفى السيد - كما هو معلوم - ان استقلال
مصر مقدم على الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وكان هذا
معنى شعاره وشعار زملائه فى رأى والعقيدة : أن مصر
للمصريين

ووقعت الجفوة بينه وبين الخديو عباس الثانى لان
الخديو وجده على غير ما كان يرتضيه حين اختاره عضوا
فى الجماعة السرية التى تنشر الدعوة الى القضية الوطنية
فى الديار الاوربية . واتفقا مع أعضاء هذه الجمعية على
سفر لطفى من مصر واقامته بسويسرا سنتين لاكتساب
الجنسية السويسرية والانتفاع بهذه الحماية فى مكافحة
الاحتلال ، فلم يستحسن لطفى السيد هذه الحيلة ولم
يلبث أن تنحى عن الجماعة حين احس أن الخديو يريد
أعضاءها خداما لشخصه وأعوانا لسلطته على غير المبادئ
الدستورية ، وتمت القطيعة بينه وبين القصر بعد ولاية
لطفى لتحرير « الجريدة » لسان حال حزب الامة ..
فتحمل التنصر وحاشيته معاذيرهم لرفع الدعوى الجنائية

عليه ، واتخذوا من مناداته انصريحة بالاستقلال التام دليلا « قانونيا » على « خيانة » السيادة المعترف بها للخليفة العثماني والمتفق عليها في العلاقات الدولية ، بمقتضى المعاهدات التى يقرها المحتلون ولا يستطيعون « قانونا » أن يسقطوا العقوبة عن يخرج عليها . .

وخطر للطفى السيد أن يحبط هذه المكيدة بعد أن جهرت بها الصحف الموالية للقصر ، ومنها « المؤيد » الذى كان له وزنه ونفوذه فى الصحافة العربية . .

قال لطفى السيد مدافعا عن رأيه : انه يدعو الى استقلال مصر ولا ينكص عن هذه الدعوة ، ولكن التمام غير الكمال . . وقد يقال ان الطفل انسان تام ولكن الانسان الكامل لا وجود له بين الاطفال ولا بين الكبار ، وكان من حجته التى اعدّها للدفاع عن رأيه أن بقاء الخلافة لا يقتضى أن تكون مصر مسلوبة السيادة ولا أن يكون استقلالها ناقصا غير تام . .

وشاعت المصادفات فى دراسات المجمع أن تعرض مسألة الفرق بين التمام والكمال ، وأن أذكر رئيسنا برأيه القديم ، فابتسم وقال : لعله من الوجهة السياسية رأى مقبول ، ولكننى لم أندم على شئ ندمى على ذلك التفسير الذى احبطت به دسياسة القوم . . ووددت لو أننى تركتهم يدعون ما يدعون ولم الحق مبدأ « الاستقلال التام » بأى تفسير

وبقى الهرجل على شعار « مصر للمصريين » ومبدأ « الاستقلال التام » بغير تفسير . . وكان هو ثالث ثلاثة وضعوا صيغة توكيل الوفد فى طلب الاستقلال التام ، أما الاثنان الاخران فهما صديقا عبد العزيز فهمي وسعد زغلول . . ولولا أنه لم ينتخب عضوا للجمعية التشريعية

لكان ثالثهما فى زيارة دار الحماية للمطالبة بالغاء الحماية
البريطانية والاعتراف لمصر بالاستقلال التام ، مع انكار
السيادة العثمانية والحماية البريطانية على السواء

المرشح الديموقراطى

وقصة سقوطه فى انتخابات الجمعية التشريعية احدى
اعاجيب الدعاية الانتخابية التى تعرض لها من جراء المناداة
بالحقوق الديموقراطية ، اذ كان منافسه يشيع عنه انه
يطلب للمرأة الحق فى الجمع بين أزواج أربعة لانه يطلب
لها المساواة الديموقراطية ، ويسألونه : هل انت حقا من
طلاب الديموقراطية ؟ فيجيبهم بالتأكيد ويعيد لهم الشرح
من جديد ..

ومما اذكره اننى ذهبت الى مكتبه بالجريدة لمؤاساته
فى هذه الخيبة المؤسفة ، فوجدته قد تلقاها بصبر
الحكماء وفكاهة العظة والاعتبار ، وهو لا يخفى اعجابه
بذلك « الريفى » الماكر الذى غلبه باسم الديموقراطية ..
ثم حضر « الشيخ طه حسين » وأنا عنده ، وكان شابا
يلبس العمامة لا يزال .. فاذا بالاستاذ يتبسط معه
ويعزيه لان زميله فى ترجمة بعض الكتب - الاستاذ محمد
رمضان - قد خرج بمثل هذه الهزيمة من معركة الانتخاب
وكان الشاب طه حسين كفؤا لهذه الدعاية فكان جوابه
للاستاذ : اننى اتقبل التعزية ولكننى ارجو يا استاذنا ألا
ترفضها .. !

وهذه الديموقراطية التى نادى بها لطفى السيد - فكرة
وقولا - قد عاش لها وعاش بها عملا وايمانا ، وقد كانت
هى الطابع الذى طبع عليه بمزاجه قبل ان يطبع عليه
بتفكيره ودراسته ، ولم تمنعه شيمته التى تتمثل فيها كل
خلائق الوجاهة الفطرية أن يكون « أرسقراطيا » بالشكل

ديموقراطياً بالموضوع ، اذا جازا هذا التعبير
كان هذا الرجل الممتاز بشخصيته وخلقه فكرة في حياة ،
او حياة ملكتها الفكرة في خاصة شأنه وعامة عمله وقوله
.. واخلالنا نقيمه في مقامه والبوطيد بين مفكرى العصور
حين نقول انه في عصرنا هذا زميل عربى لارسطو
اليونانى ، تجدد مع الزمن في مدرسة الثورة
الفرنسية .. مدرسة فولتير ، وروسو ، ومونتسكيو .
وعاش بعدهم فتقبل من حكمة العصر ما كانوا يتنزلون الى
قبوله من حكمة القرن العشرين ، ولكنه لم يزل بعد
منتصف هذا القرن العشرين على نمطه السلفى الافلاطونى ،
فكروا فى اهاب انسان

حول مذكرات عبد العزيز فهمى

بعد وفاة « لطفى السيد » رحمه الله ظهرت لزميله وصديقه عبد
العزيز فهمى « باشا » مذكرات عن تاريخ حياته تكلم فيها عن اعمالهما
في الحياة العامة وفي حركة الوفد المصرى الذى كانا عضوين فيه ،
واستوقفنى خلال المذكرات بعض مواضع للملاحظة والتصحيح ولم
يتسع المجال للتعقيب عليها جميعاً ، فاكفيت بما جاء منها من مقدمات
الحركة وهو كاف للآبانه من مدى الاختلاف بين الواقع والرواية في
سائر المذكرات . وهذا هو التعقيب كما نشرناه في صحيفة الاخبار :

قرأنا في مذكرات الاستاذ عبد العزيز فهمى « باشا »
فصلاً عن تأليف الوفد المصرى وعن الاعضاء الثلاثة الذين
قابلوا المندوب البريطانى « سير ريجنالد ونجت » قال فيه :
« هؤلاء الثلاثة هم سعد زغلول وعلى شمسراوى وعبد
العزيز فهمى .. ومما تجب ملاحظته هنا ان اختيار هؤلاء
الثلاثة انما وقع بطريق المصادفة والاتفاق ، والا فبماقى
اخوانهم فيهم من هو اكفاً فى انضال المنطقى واولى بالسفارة
مثل رجلنا الكبير احمد لطفى السيد . ولعل التقدم فى
السن كان هو السبب الطبيعى الذى ادى الى اختيارهم »

هذا ما جاء فى المذكرات بنصه منقولا عن احد الاعضاء الثلاثة ، يليه كلام عن المناقشات التى دارت بين سعد وزملائه حول الاستعداد لاثارة القضية المصرية امام مؤتمر الصلح ، يدل كله على ضرورة « التبييض » فى كل كلام يتعرض لمسائل الخلاف فى السياسة لانه يحتمل السهو والنسيان كما يحتمل التأثر بالميل والخصومات ، ولكننا نكتفى هنا بالفقرة الاولى من هذه القصة كلها لان الحقيقة فيها أظهر من ان تحتاج الى المراجعة والمناقشة ، وهى تتعلق بسبب اختيار الاعضاء الثلاثة لمقابلة ممثل الدولة البريطانية دون غيرهم من المشتركين فى الوفد بعد تأليفه: لم يكن اختيار هؤلاء الاعضاء الثلاثة مصادفة واتفاقا لم يكن للتقدم فى السن على سائر الاعضاء ، ولكنهم كانوا هم نواب الجمعية التشريعية بين الاصدقاء الخمسة الذين تألفت منهم نواة الوفد فى المرحلة الاولى ، وهم كما ذكرهم الاستاذ احمد لطفى السيد فى قصة حياته : « سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود وطفى السيد » . ولم يكن الاثنان الاخيران من اعضاء الجمعية التشريعية ، فتقرر الاكتفاء بسعد وكيل الجمعية وشعراوى وعبد العزيز العضوين فيها ليكون للثلاثة صفة الكلام بالنيابة عن الامة

وقد كان الانتخاب للجمعية التشريعية اهم اسباب هذا الاختيار باتفاق الاعضاء ، ولكنه لم يخل من اسباب اخرى لوحظت فيه - كما سمعنا من سعد بعد ذلك - ومنها ان هلى شعراوى يمثل اعيان الفلاحين ، وان عبد العزيز فهمى الذى كان نقيباً للمحاميين يمثل طائفة المتعلمين ، وان الاول من الوجه القبلى والثانى من الوجه البحرى ، فهم صالحون لتمثيل الناخبين فى اوسع نطاق . .

ولما تقرر القبض على الزعماء الاربعة ونفيهم الى جزيرة مالطة ، لم يكن هذا الاختيار ايضا من قبيل المصادفة والاتفاق فى نظر الجهات الرسمية ، ولكنه كان عند هذه الجهات موافقا لتقاليد البروتوكول فى نظام الاولية ، فكان سعد زغلول رئيس الوفد ووزيرا سابقا ، وكان اسماعيل صدقى عضوا يلية فى الاسبئية الوزارية ، وكان محمد محمود مديرا من كبار الموظفين ، وكان حمد الباسل يحمل لقب الباشوية ويمثل رؤساء العشائر فى البلاد

فلم يكن هنالك محل للمصادفة ، ولا لاعتبارات انس، فى اختيار الزعماء من جانب الوفد او من جانب السلطات الرسمية .. ولكنه عمل من اعمال النظام متفق عليه ، وقد سها عن ذلك رجل من اولى الناس بذكر مسائل النظام فضلا عن كونه احد هؤلاء الزعماء فكيف بسائر الروايات؟ وكيف بسائر الرواة ؟ ..

أما بقية الكلام على المناقشات التى دارت عند التفكير فى اثار القضية الوطنية ، فهى أحوج من هذه القصة الى التعقيب ، وهى لحسن حظ التاريخ مما يكفى للتعقيب عليه مجرد البيان الوجيز ..



كان حزب الامة يضم بين أعضاء مجلس ادارته وسائر اعضائه البارزين فئة كبيرة من السروات وأصحاب الجاه والثراء في البلاد ، وكانت الصلة الجامعة بينهم كافة أنهم من « غير المرضى » عنهم في قصر الامير ، وأرادوا أن يتخذوا لحزبهم صحيفة على « أوجه » طراز بين الصحف الأوروبية ، وبخاصة صحافة فرنسا التي كان معظم المتعلمين من رؤساء الحزب يتثقفون بثقافتها ويفضلون صحفها على صحف « انجلترا » دولة الاحتلال ، فاختلّفوا زمنا على اختيار احدى الصحيفتين الكبيرتين في باريس مثالا لصحيفة الحزب اليومية ، وهما الطان والجورنال

أما الطان فكان المرجح لها عند العارفين بالشئون الصحفية أن ترجمة اسمها «الزمان» تجعلها أصلح للنداء عليها في اللغة العربية

ولكن « الطان » صحيفة شبيهة بالرسمية وعلى صلة بالدواوين العليا ، فليس من الموافق لحزب يسمى بحزب الامة ويتجنب الاتصال بقصر عابدين وقصر الدويارة على السواء أن يتخذها مثالا لصحيفته القومية

فانتهى الخلاف الى اختيار « الجورنال » نموذجا

لصحيفتهم . . و «الجريدة» هي ترجمة اسم الجورنال
وظهرت «الجريدة» على مثال الجورنال في الصيغة
«غير الرسمية» وفي نظام التحرير وترتيب الصفحات ،
وأظهر ما كان في هذا النظام فتح صفحات «الجريدة»
للكتابة الادبية بأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وربما
أفسحت في صفحتها الاولى - الى جانب المقال الافتتاحي -
موضعا بارزا لقصيدة عاطفية أو مقال طريف من مقالات
الوصف والنقد اللغوي ، وترددت على صفحاتها أسماء
هيكل وعبد الرازق وطه حسين ومحمد السباعي وشكري
والمازني والغاياتي وكاتب هذه السطور ، وغيرهم وغيرهم
كثيرون

وكان اللواء لسان حال الحزب الوطني ، والمؤيد لسان
حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية يتقبلان الكتابة
بأقلام الناشئين ، ولكنهما يقصرانها على الناحية السياسية
ولا يرحبان بالكتابة الادبية الا اذا كانت بأقلام الشعراء
والكتاب النابهين من طراز شوقي وحافظ ومطران
والمويلحي والمنفلوطي وأمثالهم بين أدباء الجيل المتقدم ،
فاتجه الأدباء الناشئون الى «الجريدة» ولا سيما الطلبة
والموظفون ، اذ كانت الكتابة في السياسة محظورة عليهم ،
وكانوا يكتبون فيها أحيانا الى الصحف عامة - ومنها
الجريدة - بتوقيع مستعار

وكنت ارسل مقالاتي أو مقطوعاتي الشعرية بالبريد
فتنشر بعد يوم أو يومين من وصولها ، ولكني قدرت لاحدى
المقالات انها لا تحل عند قلم التحرير محل الترحاب اذا
وصلت اليه محولة من مدير التحرير ، فتعمدت أن أسلمها
الى المدير يدا بيد ، ولم أجد صعوبة في لقائه عندما قصدت
الى مكتبه على غير ميعاد . .

كانت المقالة على ما أذكر نقدا لكتاب الاستاذ محمد لطفى جمعه عن « كلمات نابليون » . . وكان الاستاذ جمعه قد نقل بعض هذه الكلمات كما ترجمتها بحروفها ولم يشر الى هذه الترجمة ، فلما نبهت الى ذلك في تعليقي على كتاب الاستاذ محمد لطفى جمعه تذكرت انه صديق لكثر المحررين « بالجريدة » . . فكان ذلك من دواعي التفكير في لقاء الاستاذ أحمد لطفى السيد لتسليمه المقالة ، ولارضاء فضول الشباب برؤية ذلك « الفيلسوف » الكبير الذى كنا نقرأ له ولا نراه

واستقبلنى مدير الجريدة استقبالا الرعاية والترحاب ثم تصفح المقالة على عجل وأمر بارسالها الى المطبعة على الاثر ، وهو يقول مبتسما : الا تخاف من نابليون يا بنى ؟! . .

قلت وأنا أعلم ان كلمة الديموقراطية من احب الكلمات اليه وأكثرها ترددا على لسانه وقلمه : الحمد لله على نعمة الديموقراطية !!

ولفت نظرى أن أمام الديمقراطية المصرية يلبس « البونجور » ويحرص على السمت « الارستقراطى » فى زيه وتقاليده سلوكه المذهب مع زواره ومرءوسيه ، فثبتت فى ذهنى هذه الصورة ولا تزال ثابتة الى اليوم . . فاذا ذكرت « لطفى السيد » فى غيبته فلست أذكره الا وهو يلبس البونجور ، بعد أن رأيت عشرات المرات بالزى « الافرنجى » المؤلف

وعزز هذه الصورة عندى اننى رأيت بعد ذلك يخطب بدار الجريدة وهو يلبسها ، ورأيت وهو يلبسها بديوان الاوقاف ، اذ حضر يوما لزيارة وزيرها « محمد محب باشا » وكنت فى حجرة استقبائه ، لاسلم مدير المكتب

بعض المذكرات التي تعرض على مجلس الإدارة
أما ان « لطفى السيد » ديموقراطى المبدأ فى تفكيره
وسياسته ودعوته الوطنية فلا مرأى فى ذلك ، ولا خلاف .
وأما أنه « ارستقراطى » السمت والشارة فى مظهره
ووجاهته فذلك أيضا مما لا مرأى فيه ، ولا خلاف
ولم تطل بى الحيرة للتوفيق بين الحالتين ولا أراهما
نقيضتين . .

لأننى لم ألبث أن شعرت من مراقبته ومراقبة الوجهاء
من أبناء الفلاحين انهم جميعا ديموقراطيون على هذا المثال ،
فهم كلهم ديموقراطيون لانهم ينكرون سيادة الطبقة التركية
واستئثارها بشرف الوجاهة الاجتماعية ، وقد كان الوجيه
التركى يأبى على اكبر الوجهاء الفلاحين ان يساويه أو
يصاهره أو يتخذ من المظاهر الاجتماعية مثل مظهره ، وقد
سمعنا الكثير من تعليقات البيوتات التركية على قبول
رئيس الوزارة لمصاهرة سعد زغلول ، وهو - على وجاهته
بين أبناء الفلاحين - علم مشهور من اعلام القسانون فى
عصره

قال لى عبد العزيز فهمى «باشسا» مرة : ان لطفى
ديمقوقراطى الراى والعقيدة ، ولكنه طول عمره ارستقراطى
بين الارستقراطيين . . وحكى لى أنه كان يقتنى جوادا
خاصا يتنقل به من بلد الى بلد للتحقيق والتفتيش وهو
وكيل للنيابة ، ولا يكلف نفسه أن يطلب جوادا من خيل
الشرطة كغيره من وكلاء النيابة ، وانه كان يتحدى
عظمة التركى بعظمة الفلاح ، فيلبس قفطان الوجيه الريفى ،
وهو فى الدار

ان « أحمد لطفى السيد » أشهر المنادين فى الصحافة
بمبدأ مصر للمصريين ، قد كان ديموقراطيا ليساوى

المصريين بغيرهم من أصحاب الهيمنة في بلادهم ، وكان
ارستقراطيا ليتحدى الارستقراطيين من أولئك السادة
المتفطرسين ، وقد أصهر الى أسرة رجل كان من أقران
الخديو اسماعيل في زمانه ، وهى أسرة المفتش اسماعيل
صديق

فليست ديموقراطية لطفى السيد الغناء للمعرف
الاجتماعى فى آداب الطبقات ، ولكنها ديموقراطية المساواة
بين أبناء كل طبقة من المصريين وغيرهم من الغرباء -
كل الغرباء فى الاصل ، لانهم شركاء الطبقة فى المجتمع
وأجانب من جميع الاجناس على عهد سيادة المحتلين

والديموقراطية على هذه السنة بجميع معانيها هى
المبدأ الواسع الذى كان يلحظه هذا الفيلسوف الوجيه
فى حقوق الرأى وفى حقوق الطبقة ، فليس ايمانه بتغليب
رأى الكثرة مانعا عنده للقلة أن تبدى رأيا وتقابل به آراء
الاكثرين من المخالفين

كان شعار « الجريدة » كلمة الفيلسوف الاندلسى ابن
حزم وهو من قرائه فى مسائل الاخلاق والعقائد واختلاف
الطوائف والعبادات

وكان ابن حزم يقول : « من حقق النظر وراض نفسه
على السكون الى الحقائق وان آلتها لاول صدمة ، كان
اعتباطه بدم الناس اياه أشد وأكبر من مدحهم اياه »

وقد وضع هذا الشعار تحت عنوان الجريدة منذ
صدورها فى شهر مارس سنة ١٩٠٧ الى احتجاجها بعد
ذلك بنحو ثمانى سنوات ، لانه كان فى طوال هذه المدة يعلم
أن معارضيه بالرأى أضعاف مؤيديه ، وكان أنصار
الاحزاب من القائلين بالسيادة العثمانية والمشايخين
للحاشية الخديوية والجانحين من الطرف الآخر الى

مشايعة السلطة الفعلية أو مشايعة الاحتلال . . كل أولئك
الانصار كانوا أضعاف انصاره في حزب الأمة ، وقد فارقه
شطر كبير من هؤلاء الانصار في منتصف الطريق ، وجنحوا
الى ناحية القصر احتجاجا على ما سموه « استبداد
محرر الجريدة بسياستها » وفيها ما فيها من مناصبة
الامير

وهذا الديموقراطى الذى اباح للقلة ان تعلن رأيها في
غير مدارة ولا موارد ، هو هو الديموقراطى ، الذى يسلم
للكثرة بحقها عند مفترق الطريق ، وعند مفترق الطريق
هذا سلم للكثرة من أعضاء اللجنة السياسية بما قرره
في المفاوضات التى أجرتها وزارة أحمد ماهر ، وهو على رأى
في تلك المفاوضات غير ما تراه

ولقد هنأنى في الصباح الباكر على مقال كتبت به
بالاهرام مؤيدا فيه خطة الوزارة الماهرية ، فلما وافق
اللجنة أخيرا على قرارها سألته في ذلك ونحن عائدان في
سيارته من المجمع الى مصر الجديدة ، فقال : اذا كانت
كثرة اللجنة وكثرة أهل البلد على هذا القرار فالكثرة لها
حكمها الذى لا حيلة لنا فيه

وذكرته يومئذ - مازحا - بمخالفته للزعيم سعد
زغلول بعد مفاوضات لورد ملنر ، فقال : بل هذا أيها الاخ
- من ذاك . . فقد خالفت سعدا ، ولكنى لم أخالف كثرة
الوفد في النهاية

على أن المبالة بالعرف الغالب لم تكن شيئا هينا في
تقديرات هذا السرى الفيلسوف ، فقد كان يولى ذلك
العرف فوق حقه من المبالة ، الى جانب تقديراته الفكرية
أو تقديراته المنطقية . . فلم تزل رعايته للفكر مع المراسم
والتقاليد أرجح عنده من هذه الرعاية له الى غير الجانب

الموافق لتلك المراسم والتقاليد
وليس من التناقض أن يكون لطفى السيد الفيلسوف
كذلك ، وهو الثائر على الجمود والرجعية بلا مرأى ، فإنه
فى ثورته يقف الى جانب مجتمع كبير ، ولا يقف الى جانب
الشذوذ والانفراد ، وانما كان ايمانه بمبادئ الحرية على
قواعد الثورة الفرنسية ايمانا ايده مع الزمن اضعاف من
خالقوه

لقد كانت لهذا الثائر تقاليده التى يشور عليها ويعلن
الحرب على أنصارها ..
ولكنه لم يكن يحاربها الا من أجل تقاليد أخرى يسالمها
ويقربها ويعمل على اقرارها ..
وانما كان يفضل بعضها على بعض بشفاعة الواقع ،
أو بشفاعة « قانون » التقدم كما آمن به الثائرون العلميون
فى أبان القرن الماضى ، وثبتت عليه بقيتهم الى هذه الايام
من القرن العشرين

لقيته بمكتبه وهو مدير لدار الكتب لتجديد رخصة
الاستعارة ، وقدم زميله العالم الجغرافى « رأفت بك »
مدير المتحف العربى التابع لدار الكتب فى بناء واحد ..
فحيا تحية مقتضبة يلوح عليها شىء كثير من الامتناع
والابتئاس ، والتفت اليه الاستاذ لطفى يسأله : كيف حال
متحفك وآثارك يارأفت بك ؟ .. قال « رأفت بك » ولم
يفارقه امتعاضه وابتئاسه : انها اثر بعد عين .. شباب
هذا العصر لا يحفلون بماض ولا حاضر .. لا يقرأون ..
لا يدرسون .. افتقدتهم فى متحف آثار أو معرض فنون
فلا تجددهم ولا تسمع خبرا عنهم ، ولكنهم موجودون ليلا
ونهارا بين المراقص ، والقهوات ، والبساتين .. زفت

وقطران .. زفت وقطران .. الا يسمع هؤلاء الشبان
بأحوال اندادهم في البلاد الاوربية ؟ ألا يسمعون
بأندادهم من الاوربيين في بلادنا ؟ .. الا يعرفون المفازة
والغابات ومصاعد الجبال التي ينطلق اليها الشباب
يستجلون فيها جمال الطبيعة وينشدون فيها صحة الجسد
والذوق ؟

فنظر اليه الاستاذ لطفى مليا ، وقال له معاتبا في
لهجة لا تخلو من التأنيب اللطيف : الله .. ومالك منفعا
ثائرا هكذا يا سيدنا البك ؟ ..

فهذا « رأفت بك » ثم قال بصوت كصوت الصدى
يحاكيه في لهجته : عفوا يا سيدنا البك ..

قال الاستاذ لطفى : يفضبنى ذلك أكثر مما يفضبك ،
ولكن الحق على من في هذه التقاليد الرثة ؟ .. أرايت
هناك شابا يخرج الى المفازة والغابات وحده ؟ .. الا
يخرج الفتى ومعه الفتاة أو تخرج الفتاة ومعهما الفتى ؟ ..
ألا يعرفون الحب بينهم قبل أن يعرفوا حب الجمال في
السهول والجبال ؟

وشاركت الاستاذين في الحديث قائلا : « وهل يتعد
الفتيان عندنا عن البنات حيث يذهبون الى المراقص
والبارات ؟

قال الاستاذ لطفى : وماذا يصنعون ؟ أنهم يسرقون
الحرية في المرقص والبار ، وأن نصيبهم من الحرية المشروعة
لا يزيد عن نصيب الفتيات في الخدور

وهنا نلتقى بالجنّلمان الديموقراطى فى مجلسه وفى
تفكيره .. انه لم يستطع أن يجيز لزميله ذلك « الانفعال »
الممنوع فى قانون « الاتيكيت » .. ولم ينتصر للثورة على
التقاليد الرثة الا لأنه ينتصر لتقاليد أخرى لاتزال فى ثوبها

القشيب . . ولكنها ، على أية حال تقاليد لها شفاعة من « قانون » التقدم المتفق عليه . وقد ظل الفيلسوف السرى على ايمان بهذا التقدم المتفق عليه حتى نهاية حياته ، وحتى بعد تعديل ذلك القانون بقانون آخر ينسخ منه مادة مرفوضة كلما أقر منه مادة مقبولة ، وهو قانون التطور الذى لا يقول بالتقدم المطلق المطرد فى كل سبيل ، ولا يستلزم ان يكون كل حديث فى عصرنا أصلح من كل قديم فى ماضى العصور وبخاصة فى مسائل الاخلاق والاداب

وكلما أباح فيلسوفنا لنفسه أن يمضى مع ابن حزم فى شجاعة الرأى ومخالفة الاجماع ، عاد الى رأيه المخالف فلم يتقبله الا لانه قانون الغد المتفق عليه سلفا ، لو سارت الامور حيثما ينبغى أن تسير . وقد قال فى ذلك من نصائحه للشباب : « كل ما تفكر فيه أو تلفظه أو تفعله انظر هل ترضى أن يكون قانونا للعالم أولا . . فان رضيت فافعله فى غير خوف ، وان لم ترض فلا تفعله ابدا »



وقد رأيت « أحمد لطفى السيد » مديرا للجريدة ومديرا لدار الكتب ومديرا للجامعة وعضوا بمجلس الشيوخ ووزيرا ورئيسا للمجمع اللغوى ورئيسا للجمعية الخيرية ، فلم تحتجب عنى خصلة من خصلتيه فى وظيفة من هذه الوظائف المتسلاحة . . وهما السميت الوجيه والديموقراطية الصادقة ، وكانت « ديموقراطيته » أجمل ما تكون فى مجال الرأى ومباحث التفكير ، وقد شهدناه نحو عشرين سنة فى هذا المجال بعد أن عملنا معه عضوا بمجمع اللغة العربية ثم رئيسا للمجمع بانتخاب اعضائه ، فكان أقدر رئيس عرفناه فى مجمع من مجامع البحث العلمى دانت له ديموقراطيته بغير كلفة ، ودان لها زملاؤه احتراما لحق الحرية الفكرية ، واحتراما لرئاسته الابوية

.. تلك الرئاسة التي كان لها سند من العطف المتبادل أقوى من اسناد المراسم والتقاليد

وكان رحمه الله يشترك في المناقشة ويورد الشواهد في أثنائها من محفوظاته الكثيرة ، وأولها القرآن الكريم وفي جملتها قصائد الشعراء الأقدمين من الجاهليين والمخضرمين والامويين والعباسيين ، وربما حفظ للمحدثين كما يحفظ للأقدمين ، ولكنه يقصر شواهدة في مقام الاحتجاج بالسند المقبول على الأولين دون الآخرين

وكان أجماع الأعضاء على توقيره وحبه يريجه كثيرا من كلفة الرجوع الى النظام في رعايته لسنة المساواة التامة بين الأعضاء عند ابداء الآراء ، ولكنه كان يعمد الى الصمت الوديع كلما احتدم النقاش وحميت وقدة الخلاف وتكلم من يتكلم ورد عليه من يرد واعترض عليهما من يعترض دفعة واحدة ، تختلط فيها الاصوات وتحار معها الاسماع

ويميل الرئيس الى اقرب الأعضاء اليه يسأله مستسلما هل آمنت معي بأننا في المجمع اللغوي ويتفق أن أكون الى جواره فأقول : بغير شكل يا استاذنا .. ويتسكين الغين في هذه الساعة ! .

ويعود النظام توا في لمحة عين ، وقبل أن يحوجه الأعضاء الى دق الجرس ، لانهم يفهمون من همسته في أذن جاره أو انطوائه على صمته أنه يدق لهم ابلغ الاجراس! .. وقد عرفناه من قبل ، ومن بعد ، على صورته التي لا تتغير ولا يختلف مظهر منها عن مخبر ، لانها صورة المفكر الذي تتجلى أعمق أفكاره في مسالك حياته ، والذي يعيش لفكره وبفكره وعلى وفاق فكره : نائرا محافظا على قدر، وديموقراطيا في قرارة طبعه ، يزيد من الديموقراطية ولا ينقصها عنده أنه لم ينسها قط وهو في سمت العلية وفي عزوف الحكيم الفيلسوف

كان لطفى . السيد من المرحبين بالظاهرة الادبية التى تمثلت فى فن المنفلوطى ، أو فى أسلوبه الانشائى ، عند ظهورها فى عالم الصحافة وبعد جمع المقالات فى كتاب « النظرات » ، لان المقالة الانشائية كانت « قالبا لفظيا » لا عناية فيه بالمعنى قبل المنفلوطى ، وقبل محمد المويلحى فى فصول عيسى بن هشام على التخصيص ، فكانت كتابة المنفلوطى على عهد « الجريدة » التى كان يحررها لطفى السيد ظاهرة ملحوظة بين المنشئين

وقد كتب فى تقریظ مقالات « النظرات » يقول :

« من الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى فى بيئة الكتاب ، لا يتكلف تقليد شيخ من اشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة .. بل لا يكتب الا اذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس فى الثوب الذى يناسبها على تفصيل مودة الاذواق الحاضرة وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار . وكتاب هذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل ، الا أن كتاباتهم على قلتها هى المربى الوحيد للأمم والعلل الاولى التى تدفعها الى الاخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح ، وهى خير اللغات وأبقاها .. »

ثم ينتقل من هذا التمهيد فيقول عن أسلوب المنفلوطى
بين هذه الأساليب :

« من اشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطى . .
أكاد لا أجد له فى طريقته مثيلا بين كتابنا ، فانه يمتاز
بالمساواة ، وقل من يعرف المساواة . يمتاز باستعمال
الفاظ الخصوص فلا يلبس معنى الالفاظ الذى لا يكاد
يشاركه فيه معنى آخر »

والمساواة والخصوص فى هذا السياق كلمتان من
تعبيرات لطفى السيد ، لم يكن معناه غنيا عن التفسير
عند استخدامهما للمعنى الذى أراد . . فقد أراد بالمساواة
أن تكون العبارة اللفظية مساوية للغرض الفكرى الذى
تؤديه ، وأراد بالخصوص أن يكون اللفظ على قدر معناه ،
أو يكون باصطلاح العرف الحديث كثوب « التفصيل »
وليس كالثوب المجهز لكل لابس على التقريب بعد القص
والتوسيع . . وقد يصح أن يقال عن أسلوب المساواة
والخصوص أنه هو أسلوب « القصة » بمعنييه : معنى
الاقتصاد ومعنى الإرادة ، لأن أسلوب القصة هو الأسلوب
المحكم الذى لا فضول فيه ، وهو الأسلوب الذى يؤدى به
الكاتب لفظه لأنه يقصده بذاته وفاقا لغرضه ولا يقصد
غرضا سواه ، ولولا أن كلمة القصد اقرب الى الأحكام
والتقدير منها الى التسوية والتنسيق لكان فيها الغنى
عن كلمتى المساواة والخصوص

والتفات لطفى السيد الى هذه « الخاصة » فى الأسلوب
الإنشائى لم يكن بالأمر الغريب من كاتب « القصد المحكم »
فى اللفظ والمعنى ، لأن تحديد ما يريد بالكلمة كان هو
طبيعة عقله الغالبة على تفكيره وتعبيره ، بل على تقديره
للأمور وتقديره للأعمال . . فلم يكن للعمل عنده شأن
أكبر من شأن المطابقة للكلمة والمطابقة للفكرة التى تدل

عليها ، وكانت حياته لفكرته هي الحياة الاولى التى تتلوها
بعد ذلك كل حياة عملية تعنيه ..

وكانت مراانة عقله على تحديد عباراته تشغله للتسلية
والرياضة كما تشغله للجهد والتدبير ، كأنه الجبار الرياضى
الذى يداعب صحبه بالضغط على أكفهم عند المصافحة
أو بالشد على ظهورهم عند المعانقة ، يوهمهم أنها ملاكمة
ومصارعة وليست بمصافحة وعناق .. وكذلك كان لطفى
السيد يصنع بتحديد معانى الالفاظ كلما طابت له الدعابة
مع صاحب أو زميل ، بين يدي عمل من أعمال الفكر
والنظر أو أعمال الادارة والتنفيذ

دخل الى مكتبه بوزارة الداخلية وكيل الوزارة يتأبط
ملفات الحركة الادارية فبادره قائلا :

— ماذا تتأبط يا حسن (١) .. خيرا ؟ !

قال حسن : نعم خير أن شاء الله .. الحركة
الادارية !

قال لطفى السيد متجاهلا : حركة ؟ .. وهل هذه
حركة فى الزمان أو فى المكان ؟

وربما كان الكلام على حركة الزمان والمكان أول كلام
من نوعه ورد على مسمع وكيل الداخلية الحائر فى أمره بين
يدى هذا الفيلسوف الوزير ، فعاد يقول : بل هى حركة
التنقلات بين المديرين ووكلاء المديرات والمأمورين وموظفى
الادارة على العموم

قال الفيلسوف : وهل هى حركة بغير مقتض ؟ ولماذا
يتحركون ؟ هل طلبوا منك أن تحركهم ؟ .

ثم انقضت هذه المحادثة كما شاء الوكيل أن يقضيها

(١) حسن رفعت « باشا » أقدم وكلاء الداخلية فى عهده

وكانت فكاهة الليلة في مجلس رئيس الوزارة محمد محمود !

وعاد الى مصر مع ثلاثة اعضاء من الوفد لمراجعة الامة في المقترحات البريطانية ، فقابله الصحفيون على الميناء وسأله أحدهم : هل انتم قادمون بمهمة سياسية ؟ فكان جواب الصحفي القديم على الصحفي الناشئ :
- ماذا تعنى بالسياسة : دبلوماسية او بوليتيكية؟
وحاول صاحبنا ان يخلص من الورطة بقوله :
- أعنى الاثنتين !

قال الفيلسوف : ليس لنا مهمتان ، ولسناسفراء فتكون لنا مهمة دبلوماسية ، ولا وزراء فتكون لنا مهمة بوليتيكية! ..
ولقد ذهب الصحفي الحائر فكتب هذا اللغز الفلسفى كما استطاع ، وبدل فيه وعدل كما أراد ..

ولما ألف أصدقاؤه الاحرار الدستوريون حزبهم كان هو معارضا لهذه التسمية ، وظل معارضا لها بعد تأليف الحزب بزمان طويل ، وانما كان اقتراحه أن يسمى الحزب باسم « الحريين الدستوريين » وحجته في تفضيل هذه التسمية أن كلمة الحريين هى التى تقابل كلمة « ليبرال » بالفرنسية والانجليزية .. والا فماذا نسمى المحافظين خصوم الاحرار ؟ هل نسميهم « بالعبيد » وهم لا يقنعون بالحرية وحدها دون السيادة على العالمين ؟ !

ولم يكن يكرثه أن يداعبه اخوانه من ظرفاء الحزب قائلين : أهلا بالحرى .. سلاما على الحرى .. ذهب الحرى .. جاء الحرى .. ولا لزوم للتسمية مع هذا التحديد

قال لطفى السيد فى قصة حياته :

« نشأت من الصفر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية . وقد لفت نظرى فى أرسطو انه اول من ابتدع علم المنطق واكبر مؤلف له اثر خالد فى العلوم والاداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض اصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الاوربية . . ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة ارسطو فلا جرم ان آراءه ومذهبه اشد المذاهب اتفقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الاقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء ان ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية . . »

والحق ان لطفى السيد كان « أرسطيا » قبل ان يعرف أرسطو او يفكر فى ترجمته ، لان تكوين عقله المنطقى هو الذى حبب اليه منطق أرسطو حين اطلع عليه ، وحبب اليه صاحب المنطق حتى كان يتحدث عنه متبسطا فيسميه « سيدنا أرسطو رضى الله عنه » . . وقد استفاد من أرسطو ما كان مستفيده من مراجعة عقله بغير اصطلاحات المنطق والفاظه « المخصوصة » على حد تعبيره ، فان الفكرة المحددة كانت ديدنا طبيعيا عنده ولم تكن من الدروس التى تكتسب بالتعلم ، وقد كان حرصه على حد الفكرة اشد وأكمل من حرصه على حد العمل ، لانه عرف بالتجربة ان نتائج الاعمال قد تختلط بينها وقد تتناقض المقدمات والنتائج فيها ، لكثرة العوامل المنطقية وغير المنطقية التى تحيط بها . ولكن حدود الفكرة فى ذهنه لم تكن تلتبس بين معنى ومعنى ، ولم تكن تخرج على حدود المساواة بين أغراضها وعباراتها ، وقد كانت كلمة « يجرى ايه » تجرى على لسانه - كما لاحظ صديقه عبد العزيز فهمى - عند التسوية بين نتائج الاعمال ولو كانت فى

ظاھرھا على أبعد ما تكون من التناقض والاختلاف ، ولكن « يجرى ایه » كانت تنقلب الى « يجرى كل شيء » اذا حدثت التسوية بين كلمة وكلمة لا تتساويان في النتيجة المنطقية ، لان حدود المنطق واضحة أمامه بمقياس الشعرة وبغير لبس ولا اختلاف بين أقرب النتائج واشدها شبيھا في ظاھرھا

وقد ذكرت في غير هذا المقال أن أستاذ الجيل كان يتجنب التصريح برأيه أثناء مناقشات المجمع اللغوي تورعا منه عن التحيز الى جانب من جوانب المناقشة، ولكنه كان في اللجان التي تعد القرارات للفصل فيها يشترك في المناقشة ولا يترخص في رأيه عند المعارضة بين اقتراحه واقتراحات غيره ، بل أذكر في جلسة من جلسات اللجان أننا قضينا نصف الوقت في الخلاف على كلمتي المفكرة والمذكرة ، أيهما أصح للترجمة عند التفرقة بين اليومية والقائمة والمدونة والمذكرة ، فكانت معارضته لكلمة « المفكرة » طويلة في غير هوادة ، واستغرقت نحو نصف الوقت كما تقدم . . لانه - كما قال - لا يفهم كيف ينسب التفكير الى المفكرة وكيف يكون الخلط بين مدلول التفكير ومدلول التذكير



في أوائل عهدي بالصحافة قرأت مقالات لبعض الرحالين السياسيين حكموا فيها على إحدى الأمم الشرقية حكمهم الذي يداخله الهوى كما يداخل أحكام الساسة على العموم . . ثم قرأت نقدا للرحلة ولامثالها من الرحلات يدور على فكرة واحدة ، وهي أن رحلة الاسابيع المحدودة في أمة من الأمم - كبيرة كانت أو صغيرة - لا تكفى للحكم عليها

وقرات النقد كما قرأت الرحلة فوافقت الناقد في

تخطئته لكثير من أحكام كاتب الرحلة ، ولكننى عدت الى
نفسى أسألها : أمن الحق أن الامم لا تعرف من سياحة
أسابيع بين ربوعها ؟ وهل اقامة السنين تكفى من ليس
لديه مقياس صحيح للعلم بأحوال الامة التى قام فيها ؟ .
وظلت هذه الخاطرة تشغلنى زمنا طويلا حتى انتهيت
منها الى البرأى الذى اعتقده اليوم وهو : ان العبرة بالمقياس
وبمن يقيس ، وليست العبرة بطول الوقت او قصره عند
فقدان المقياس الصحيح ، وصح عندى ان شيئين اثنين
قد يعينان الناظر على العلم بنصيب الامة والفرد فلا يصعب
الوصول الى تقدير هذا النصيب فى بضعة أيام ، فضلا عن
الاسابيع

هذان الشيئان هما : تقدير الكلمة وتقدير الوقت ،
فلا شك فى تقدم الامة التى تعرف للكلمة قيمتها
وتعرف للوقت قيمته ، ولين تكون الامة التى تستخف
بالكلمة أو تستخف بالوقت على نصيب من التقدم أو من
قوة الخلق وسلامة الفطرة ، ولو اعجبتنا جميع ظواهرها
الآخري

وليس من الصعب أن نعرف نصيب الامة من تقدير
الكلمة وتقدير الوقت بعد يومين نقضيهما بين أبنائها ، ففى
عناوين الدكاكين ونداءات الباعة ومواعيد المواصلات
ومواعيد الزيارات مادة كافية للمقياس الصحيح فى جميع
الحالات

وقد درجت - منذ وقرت فى نفسى هذه العقيدة - على
قياس العظماء وغير العظماء بهذين المقياسين : ما قيمة
الكلمة عند هذا العظيم أو عند هذا الاديب أو عند هذا
الإنسان كائننا من كان ؟ وما قيمة الوقت عنده فيما يعنيه ؟
.. ولا اعرف اننى أخطأت تقدير انسان امكننى أن أعرف
قدره بهذين المقياسين

وكذلك تعرف قيمة الكلمة على حسب معدنها المأثور عند من يقدرها ويحرص عليها ، فإذا كان هناك تفاوت بين عظيمين يقدران الكلمة ويحرصان عليها فمعدن الكلمة هو موضع التفاوت بين ذينك العظيمين

ولقد خطر لى يوما أن أقابل بين لطفى السيد وبين أناس ممن عرفتهم من ابتداء جيله وهم : سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود ، فظهر لى مرة أخرى أن الكلمة هى الرجل كما قيل . .

وكانت الكلمة عند سعد زغلول كائنا عضويا كادينضج بالدورة الدموية ، وكان هو يفهمها هكذا من كلام غيره كما كان يفوه بها من كلامه على غير تعمد منه ، فلا يسمعها السامع الا أحس أنه سيحضر معها أثرها « الحيوى » انفعالا نابضا فى نفس المخاطب بها فردا كان أو جماعة

وكانت الكلمة عند عبد العزيز فهمى « حيثة » فى حكم قضائى ، يعنيه منها قبل كل شيء ماذا تقرر من الحكم وماذا تدفع من وجوه الاشكال أو الاعتراض ، وقد يسمع الكلمة فلا يستريح اليها لانه يحس أن هناك اعتراضا قد يرد عليها وأن لم يتضح له هذا الاعتراض لاول وهلة ، ثم يعرف السبب فلا يلبث أن يبدل الكلمة المقبولة بالكلمة المعترضة عليها ، وله على ذلك قدرة المراتة على التمييز

بين النصوص وقدرة الاطلاع على كتب الادب والقانون . وكانت الكلمة عند محمد محمود ، بل كانت كلمات اللفه كلها ، تصريفا لكلمة واحدة هى كلمة « الكرامة » أو الوجاهة ، وربما التقى فى هذا التصريف قاموس السيد الصعبدى وقاموس « الجنتلمان »

أما لطفى السيد فالكلمة عنده « حد منطقى » فى قضية كاملة ، ولا التباس عنده بين حد وحد من الوجهة المنطقية الصميمة ، وإنما يعرض لها اللبس حين تتعرض للنزاع

بين المنطق العقلي والمنطق « السيكولوجي » أو منطق
الوعي الخفي والوجدان العاطفي ، لأنه — على تسليمه
الدائم بجوانب الضعف الانساني — لم يكن من طبيعة
عقله أن يسمح للضعف أن ينتقل الى كفة الميزان في موازنته
بين الحقائق الفكرية ، وربما جاء من هذا العزل بين منطق
الفكر ومنطق النفس أن روح الفكاهة في كتابته تختفي
وراء الرأي المحص والتقدير المحكم بالقياس الصحيح



ولقد كان يستطيب « القفش الحلو » كما سماه في بعض
مقالاته ، ولكنه لم يكن سريعا الى « لقط » النكتة ، ولم
تكن له تلك الضحكة العميقة التي تملأ الافواه كما تملأ
الصندوق . . . وقد يشترك المجلس كله في الضحك ولا
يشاركهم فيه ، فيحيل الخطأ على نفسه ويقول معتذرا :
« مؤاخذه ! اننى بطيء في فهم النكتة ! . . »

ومما أذكره نماذج شتى من النكات « البلدية » التي
كانت تضحك جلساءه ولا تضحكه ، ومنها حديث أطرفنا
به الاستاذ عبد الوهاب خلافاً — رحمه الله — عن صاحب
له ولنا من الشيوخ المعممين المتحفين الذين لا يعطون
المشيخة ولا المحبة كل حقهما من التزمّت والحشمة ،
وكالت مناسبة الحديث « دردشة » عارضة على حد تعبير
رئيسنا فيما يقال قبل انعقاد جلسات اللجان الخاصة
بالمباحث اللغوية في موضوع من الموضوعات ، وكان موضوع
الجلسة تعريب المصطلحات الموسيقية أو تهذيبها

قال الاستاذ عبد الوهاب عن ذلك الشيخ المرح انه
شاهد وهو يتأبط ذراع الموسيقى المعروف « سامي
الشوا » فسئل :

— ما الذي يجمع هذا على ذاك ؟ وما الذي يقرن بين

زمرة الاولياء وزمرة الطرب والفناء ؟

قال الشيخ غير متلعثم :

— ولم لا ؟ .. هذا شيخ « كمان » !

وشوهد الشيخ في احدى سهراته وامامه كأس من
الويسكى ، فسأله الزائر الطارئ مستنكرا :

— أما تستحى لهذه العمامة فوق هذه اللحية التى
وخطها الشيب

فقال كذلك غير متلعثم :

— وماله : هذه أيضا (بلاك آند هوايت !)

وكان يقول للمازحين من أصحابه كلما ذكروه بوقار
اللحية :

— انها لا تربينى .. أنا الذى أربيها !

وقد كان الرئيس — خلال هذه الدردشة — يبتسم
ولا يضحك ، ويعود فيلقى اللوم على تقصيره هو فى هذا
المجال ..

وعلىنا ان ننصفه من نفسه فى هذا اللوم ، لان النكتة
الجناسية فى الواقع ليست من أجود النكات ولا من أصدق
الوان الإنكاهة ، وليس بالمستغرب من العقل المنتقى ولا من
صاحب القلم الحريص على « الفاظ الخصوص » ألا يأنس
الى لعب الجناس « اللفظى » والا يشغل باله بعد استيفاء
شروط العقل بحواشى المشابهات فى الآذان ، وقد مرت
بنا فيهما تقلناهما من تقريظه لاسلوب المنفلوطى . كلمة من
الكلمات الجناسية يتحاشاها فى مكانها من يلقى باله الى
مشابهاتها ، ولكنها لم تكن مما يتحاشاه أرسطو المصرى
فى لغة الجد والتحقيق ..

انه يقول عن كتاب الخصوص :

«ان كتاباتهم - على قلتها - هي المربي الوحيد للامم والعلل
الاولى التى تدفعها الى الاخذ بكل نوع من انواع الرقى
والنجاح»

وكم من نكتة جناسية فى هذه «العلل» لمن يشاء ان
يحكم «القافية» فى لغة التفكير والتعبير؟

الا ان الانصاف الذى يعفى فيلسوفنا من اتهام نفسه
بالتقصير فى مجال النكتة ، لا يمنع المنصف ان يلاحظ
ان نصيب الروح الفكاهية فى كتاباته قليل يشكو الحرمان
من جور الجد المنطقى عليه



وبعد . . فان الكلمة عند لطفى السيد هى موضوع
مقالنا ، ولكننا ذكرنا فى عرض المقال مقياسا آخر للامم
والرجال غير مقياس الكلمة وهو مقياس الوقت . .
فلا ننسى ان نضيف هذا المقياس الى ذلك المقياس ،
ولا نرانا بحاجة الى كلمات كثيرة لنقول ان الكفة ستبقى
على رجحانها فى الحالتين :

لقد تولى لطفى السيد رئاسة مجمع اللغة وهو
يقارب التسعين ، فلم يتخلف عن المجمع يوما واحدا وهو
قادر على الخروج من داره ، ولم تأت الساعة الحادية
عشرة فى يوم من ايام حضوره وهو بعيد من كرسيه بقاعة
الجلسة ، ولا تتم الدقيقة التاسعة والخمسون ويده
بعيده من جرس التنبيه !





پیر محمد مہدی خان
زعیم الدولۃ و رئیس الحکما

نشرت في صحيفة « الدستور » سلسلة من الفصول
عن شعراء الفرس النابهن معتمدا فيها على قصائدهم
واخبارهم المترجمة الى اللغة الانجليزية . . وحدث في
صيف سنة ١٩٠٩ أن شاه الفرس أراد أن يلفي الحياة
النيابية فتشبت الثورة في البلاد ، واضطر الى النجاة
منها بنفسه فبايعت الامة ولي عهده . . وهو في نحو
الحادية عشرة من عمره . ونقلت الانباء البرقية عنه أنه
بكى حين بويع بالملك بين تلك الزعازع المرهوبة ، فكتبت
يومئذ مقالا في صحيفتي « الدستور » و « مصر الفتاة »
وجهت فيه الخطاب الى الشاه الصغير ، وقلت في مفتتحته :
« لانت في الشرق . . بين أمة الشعر والشعور » . . ثم
قلت : « انك ان لم تضمر لهم سوءا ولم تحمل عليهم
ضعفا ، فالعرش اوثر من المهد ، وحجر الامة ألين ملمسا
من حجر الام ، وانت مع ذلك أسعد أسلافك ، لانك أول
من رفعته ايران الى عرشها بيدها ، وأيمن شاه لانك
توليت الحكم في العهد الذي سيذكر التاريخ انه أول عهد
وافق نهضة الاسلام من جديد »
ولقيني غير واحد من صحبي بعد نشر هذا المقال وهم
يقولون لي : « ان مقالك قد اعجب الدكتور « مهدي خان »
وهو يحب أن يراك »

فمن هو هذا الدكتور « مهدي خان » ..

لقد كانت القاهرة يومئذ تموج بالتيارات السياسية ، بين ظاهرة وخفية .. كانت كأنها مرصد الحوادث في الشرق الاسلامي كله ، فكان فيها دعاة من العرب ، ودعاة من الترك ، ودعاة من الفرس ، ومن آسيا الوسطى على اختلاف شعوبها ، ومنهم من يعمل للحرية والتجديد ، ومنهم من يعمل في خدمة المستبدين ، بل في خدمة الاستعمار ..

وكان الدكتور « مهدي خان » في ذلك الحين علما من الاعلام المشهورة بين أولئك الدعاة ..

كان يعرف في بلاده باسم « الدكتور ميزرا محمد مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء » .. وكان مولده في أوائل القرن التاسع عشر ، وكان قد ناهز التسعين حين لقيته ، وكان نموذجا صادقا لثقافة القرن التاسع عشر في زمنه وفي وطنه ، لانه تعلم الطب في فارس ثم حضر دروسا مختلفة في علم الاديان المقارنة على أساتذة من الالمان ، وكان ينظم الشعر الفارسي أحيانا ، ويكتب العربية والتركية ، ويتكلم الالمانية مع أهلها ، وربما كان على معرفة بالفرنسية .. ومن مراجعه في الطب كتب ابن سينا والاطباء الاقدمين ، ولهذا كان يشترك في مباحث الفلسفة كما طرقها أولئك الفلاسفة الاطباء

ولست على يقين من تفاصيل برنامج السياسي ، ولكنني أعلم أن صحيفته « حكمت » كانت تصدر أحيانا في بلده ، وكان يرسلها سرا في كثير من الاوقات الى جهات من بلاد الدولة العثمانية تنقل منها الى ايران وبعض بلاد المسلمين الذين كانوا تابعين يومئذ للحكومة القيصريّة

وكان شديد السخط على الحركة البابية ، ويعتقد أنها

تخدم مآرب الاتجلىز والامرىكىين فى ايران ..

ولم ألقه على اثر كتابة مقالى الى الشاه الصغير ،
ولكننى لقيته بعد ذلك بفترة وجيزة .. وعرفنى اليه
صديقنا الشاعر المجيد الاستاذ على شوقى رئيس قلم
النظارة بوزارة الاوقاف

كان من أسباب ترحيبى بمعرفة الدكتور « مهدي » انه
مرجع موثوق به فى الشعر الفارسى خاصة ، وقد تحققت
منه مما كنت أرجحه ترجيحاً عن خطأ الترجمات الاوربية
لشعر الخيام وغيره من شعراء الفرس المترجمين ، فاذا
هى فى الواقع محشوة بالاغاليط ، عن جهل باللغة تارة ،
وعن رغبة من المترجمين فى التزييق تارة أخرى .

وكان للرجل فضل فى تمكننا من حضور ليلة عاشوراء
بالتكية الفارسية ، ولم يكن ذلك ميسوراً لكل راغب فيه
.. فلم يكن فى التكية ليلة شهدنا الحفلة احد من المصريين
غير حسين رشدى باشا وثلاثة من الزملاء والادباء هم :
الاستاذ المازنى ، والاستاذ على شوقى ، والاستاذ عبد
الرحمن البرقوقى رحمه الله ..

على أننى مدين له بالفضل فى الوقوف على أسرار مسألة
من اخطر مسائل السياسة الشرقية فى أيامها ، وهى
مسألة المطبعة العثمانية التى يتوقف على العلم بها تقدير
أناس يحسبون الان من أبطال الحرية والدعوة الوطنية

فقد كنت أرى الرجل كلما زرتة فى مكتبه شديد الحذر
على أوراق صحيفته ، وعلى أسماء المشتركين فيها من
المقيمين فى ايران وروسيا على الخصوص ..

وكنت أعيب عليه هذا الحذر ، وكان يقول لى : « انك
يا بنى لا تعلم انها مسألة خطيرة على حياة المئات .. ومن

يدري ؟ فقد تتعرض لما تعرض له أصحاب المطبعة
العثمانية من حيث لا نعلم وذلك غاية ما نخشاه

أما مسألة المطبعة العثمانية هذه فيستطيع من شاء ان
يراجعها في الصحف المصرية « ابريل سنة ١٩٠٢ » ..
وخلصتها كما سمعتها من هذا الرجل العليم بها - دون
ان نتوسع هنا في تفصيلاتها - ان احرار الترك نشطوا
يومئذ لنشر الدعوة الى الدستور والحكومة النيابية ،
واصندروا بالقاهرة صحيفة كانوا يرسلونها خفية الى
انصار هذه الحركة في أنحاء الدولة العثمانية .. وقلق
السلطان عبد الحميد ، واشتدت رغبته في الوقوف على
اسماء هؤلاء الاحرار من رعاياه المقيمين في بلاده وجزاؤهم
- لو انهم عرفوا - قضاء بالموت او بالمذاب في غيابات
السجون .. فاذا بقضية تدبر في القاهرة للحجز على
المطبعة العثمانية ، ظاهرها انها دعوى مدنية وباطنها انها
حيلة للاستيلاء على الاوراق التي فيها الاسماء والعناوين
ويفرع احرار الترك خذرا من سوء العاقبة على اخوانهم
الغافلين في بلادهم ، فيلجأون الى الوكالة البريطانية .. !

وتتخطى الوكالة البريطانية القانون ، فتأمر بكسر
الاختام وتسليم الاوراق الى اصحابها وترك ما في المطبعة
ما عدا ذلك محجوزا عليه ، وتكسب بذلك ولاء طائفة من
احرار الترك ، ومعاكسة السلطان عبد الحميد ..

وهنا يقرأ العجب من شاء الرجوع الى الصحف في تلك
الايام : بين الغيرة على الاختتام ، والغيرة على ارواح المئات
من طلاب الحرية والدستور



قواد الصلعة

إذا كان سبب من أسباب البسملة مانعاً للكتابة عن أحد ، فهذا الكاتب الصحفي أولى الناس بالسكوت عنه . . ولكنه أحق الصحفيين بالكتابة عنه إذا كان تاريخ « الادوار الكتابية » في حياة الصحافة عندنا موجياً للكتابة عن صاحب الدور . .

فقد كان « أحمد فؤاد » صاحب صحيفة الصناعة الأسبوعية أشهر الصحفيين من أبناء جيله في تمثيل ذلك الدور الذي عرفناه في صحافتنا بعد ظهور الصحف السيارة عندنا وانتشارها في أواسط القرن التاسع عشر . . فاذا وجب ان تختصر أسماء الصحف التي يصح ان نطلق عليها عنوان « صحافة الهجاء الاجتماعي » في اسم واحد - فاسم « فؤاد الصناعة » هو ذلك الاسم الذي لا يزاخمه شريك مثله في هذه الصناعة . .

كان الناس يعرفون اسم « فؤاد الصناعة » ولا يعرفون اسم « أحمد فؤاد » اذا انفرد بغير هذه القرينة . . وقد يكتفون باسم « الصناعة » ولا يزيدون ، فيعرف قراء الصحافة من يريدون . .

وقد كان « فؤاد الصناعة » ممثلاً في المجتمع المصري لدور واحد على صورتين : صورة تظهر في محيط الادب

الشعبي وهى صورة « الادباتى » المتجول بين بلاد الريف والحضر ..

وصورة «مفصحة» من هذا الادباتى وهى صورة الاديب «الاريب» المحتال لعيشه فى لغة المقامات ، واسم « أبو زيد السروجى » فى مقامات الحريري عنوان عليه

واذا أردنا أن نترجم هذه الصناعة بالاسلوب الاقتصادى لتفسير الادب والتاريخ ، فالصحفيون من طائفة أحمد فؤاد هم « محصلو ضريبة الوجاهة والهيبة » فى المجتمع الجديد ..

ولنا أن نتخيل أن هذا المجتمع سلطان من السلاطين الاقدمين كان له خدامه على طريقته ، وكان لهؤلاء الخدام نصيب من التزاماته وجباياته المقررة على رعاياه ، فان هؤلاء الادباتية « يخدمونه بالرقابة على اصحاب الجاه والهيبة فيحيلهم بتحصيل الضريبة لحسابه أو لحسابهم من جميع هؤلاء ، هربا من تكلف المغارم والوفاء بحق الجزاء الصريح .. لان المجتمع نفسه وأصحاب الجاه والهيبة فيه ، أولئك الجباة المسلطون عليهم ، كلهم جميعا غير صرحاء

على أن « الوظيفة » هذه لم تكن مخجلة لاصحابها ، ولا كان اصحابها يكتمونها ويدورون حولها ..

جلس أحدهم بين زمرة من الكتاب والفضلاء يتحدث عن صديقه السرى الذى يستدنيه منه ويسومه أن يجاريه بتعاطى المخدرات وشم « الكوكايين » وكان يومئذ بدعة « أولاد الذوات » المتبطلين من رواد السهرات

قال الادباتى السروجى الحديث : « ولكن من ذقنه فت له .. كان - بسلامته - يريد منى أن اشم له الكوكايين لاعينه على السهر ، ولكننى كنت أسهر بغير كوكايين

وأجمعه عندي الى ساعة الحاجة في آخر الليل . . تلك الساعة التي توصل فيها أبواب الصيدليات ومخابيء العقاقير الممنوعة ، وتحلو فيها الشمة الواحدة بأضعاف سعرها في جميع الاسواق السوداء ، وأبدى لصاحبنا الفيرة على خدمته والتحرق على شمة أو شميتين معه قبل انقضاء السهرة ، فلا يقنعني في الجرام الواحد أقل من ثمن عشرة جرامات ، وأخرج من هنا وفي جيبى حصيلة الاسبوع من الكوكايين المدخر لتلك الساعة ، ثم أعود اليه ببقية « العشرة الجنيهات » قروشاً معدودات . . ولم أصرف من الورقة نصف مليم !

وتحدث صحفي آخر عن كلمة غمز بها بعض الوجهاء وفهمها ذلك الوجيه وفهم المقصود منها ، فأرسل اليه خمسة جنيهات ولمح هو من الوسيط أن الحكاية قابلة للمساومة والزيادة جنيهين أو ثلاثة جنيهات . .

ثم اعتدل الصحفي الادبائي ، وهو يقول في زهو وخيلاء : ولكن فشر . ! محسوبكم « برى فكس » . . كلمته واحدة لا يقبل المساومة . . عشرون جنيهاً على دابر المليم ، والا فالذي قرأه الباشا غمزا يقرأه الناس جميعاً تصريحاً على المكشوف . . وعينك ما تشوف الا النور . . لقد جاءتنى الجنيهات العشرون قبل مغيب الشمس في ذلك المساء

كان هذا الصحفي يلقب بيننا « بالزبرا » أي حمار الوحش ، وكان بعضهم يتلطف فيسميه الفنان لانه من أسماء الحمر الوحشية . فلما سمعنا منه هذه القصة صاح الاستاذ أحمد صبرى المصور المعروف متهمكاً متبرماً وهو يلوح له بيديه في وجهه : لا والله . . من الان فصاعداً . . حمار وكفى . . ولا زابرا ، ولا فنان ، ولا يحزنون !

على هذا المثال كان « الصحفي الادبائي السروجي »

يؤدي وظيفته في بقايا المجتمع من القرن التاسع عشر ،
وكان محصوله من هذه الوظيفة ضريبة المجتمع على الوجاهة
والهيبة بحسب براعته في التحصيل

وكان قواد الصاعقة أبرع هؤلاء الجبابة في استغلال
وجاهة الوجيه وهيبة المهيب شفويا وتحريريا بغير عناء ،
وهو عالم بحدود العرف والقانون مع كل طبقة من تلك
الطبقات

كان له جعل من المصروفات السرية يصيبه حيناً ويفقده
حيناً ويتطلبه في جميع الاحيان ، وكان عبد الخالق ثروت
(باشا) وحسين رشدي (باشا) ممن عودوه المنحة بعد
المنحة من هذه المصروفات ..

وانقطعت عنه منحة ثروت باشا ، وهو لا يزال رئيسا
للويزة ، فتربص به الى ساعة اجتيازه ببار اللواء مشيا على
قدميه كعادته في أكثر الاوقات ، وتعهد ان يجلس ذلك
اليوم بين رهط من كبار رجال وزارتي العدل والداخلية،
فما هو الا ان عبر الباشا بهم وهو يعرفهم جميعا حتى
وثب قواد الصاعقة وراءه ، ووقف على قارعة الطريق
يناديه : يا سي عبد الخالق .. يا سي عبد الخالق !

فهرول اولئك العلية الى داخل البار ، وعاد اليهم
مقهقهة وهو يقول : ليس بيني وبينه تكليف ! ..
وقال أحدهم وهو يلطمه على فمه : ولا بيني وبينك
تكليف يا ابن ...

ولمح رشدي باشا عند محطة الرمل بالاسكندرية بعد
اعتزاله الوزارة ، فوضع ذراعنه تحت أبطه ونظر اليه في
غاية من الهدوء والتبسط وهو يمازحه قائلا : لا صاحب
دولة الآن ولا صاحب عطوفة .. ولا حجاب اعلى الباب ولا
جراس في الطريق .. كلانا سواء يا حسين ! .. فدفعه

الباشا عنه بتلك البساطة الطريفة التي عرفت عنه ، وقال له كأنه يرد المزاح بمثله : لكن أنا عندي فلوس يا ابن ... وكانت صحيفة « الصاعقة » أسبوعية كما تقول رخصتها أو يقول عنوانها ..

ولكنها في الواقع لم تكن أسبوعية ولا يومية ولا شهرية ولا سنوية ، إذا كان لابد من تحديد الموعد بوقت معلوم ..

وانما تصدر كلما وجدت « الضحية » التي تؤدي ضريبة الجاه والهيبة ، سواء من هذه الضريبة ثمن الشئ أو ثمن الهجاء أو ثمن النجاة من التهديد والوعيد

ويحدث كثيرا أن تقع المعاملة مع هؤلاء الضحايا بالجملة ، كما حدث في رثاء بعض الاعلام من المشاهير .. فان رثاء العلم المشهور لم يستغرق غير كلمات في بضعة أسطر ، ثم عقب « فؤاد » بعد هذه الكلمات متسائلا : أيجوز في شرمة القدر أن يموت مثل هذا ويعيش أمثال فلان وفلان وفلان .. الى آخر القائمة المطولة من أسماء المفضوب عليهم والمطالبين بسداد الاشتراك ، عن عديدين في السنة ، أو بضعة أعداد !

وقد يصدر العدد من أجل عنوان واحد يتكرر على الصفحة بجميع البنوط :

لا تبيعوا أقطانكم الا بمائتي ريال !

لا تبيعوا أقطانكم الا بمائتي ..

لا تبيعوا أقطانكم ..

لا تبيعوا ..

لا .. لا ..

ويبلغ من يعنيه الامر ان الاعلان سخييا ويعاد مع

مضاعفة الاجور في كل مرة . . فيسرع من يعنيه الامر الى
السداد . .

أما من كان يعنيه الامر في قصة بيع القطن ؛ فهو رجل
من أصحاب المزارع والمحاصيل كانت له مساهمة في
صناعة القطن على أسلوب المقامات وما جرى مجراها ،
وكانت منافسة « الصاعقة » له سببا مضافا الى سبب
الطمع في ماله ، او في ضريبة الجذاه والسمعة من يديه ،
فحسب عليه تلك النصيحة الفلاشلة التي ضيقت على
الفلاحين محصول العام زلة يهدده بها كلما تقم منه واحتاج
الى جدواه

وقد يؤجر « فؤاد الصاعقة » على التحرش بالادباء
والكتاب ممن لا مال لهم ولا جاه ، فيعرف قراء الصاعقة
ذلك كلما طلعت لهم الصحيفة بفصل من فصول الكاتب
المفضوب عليه . . . يتبعه تهديد للمشتركين المتخلفين
بمواصلة النشر والاعادة من امثال هذه الفصول !

وربما أخذ التوقيع الذي توقع به الكاتب مقسالاته
فترجمه من عنده على هوام . . فتوقيع « ك . ك » هو
توقيع « كامل كيلاني » بالحرفين الاولين من اسمه ،
ولكنه عند فؤاد الصاعقة اما « كلب كلب » . . واما كاهن
كذاب

ولم تبلغ الخجاجة بأحد مبلغ هذا « الادباني السروجي »
في مخاطبة الامراء والوزراء . . فقد انقطعت عنه المعونة
الشهزية من ديوان المعية الخديوية ، فكتب الى الامير ،
مباشرة ، خطابا يقول فيه : ان كان بعضهم يظفر بعطايا
الامير لانه ينظم فهو حقيق بهذه العطايا لانه ينثر . . وان
كان لعيب من العيوب ، فهو - اي فؤاد الصاعقة - يضم
ازاره بخمد الله على تلك العيوب ، وعلى شر منها ، وزيادة

عليها . . ثم يمضى فى تعداد عيوبه غير مقتصد فيها ،
كأنهما عيوب ضحية من ضحاياها . .

واسم « الصاعقة » نفسه مثل من أمثلة الشهادة على
نفسه فى مقام المقابلة بينه وبين غيره . .
كان فؤاد الصاعقة يدين بالاستاذية للمويلحين الكبير
والصغير . .

وكان المويلحيان أستاذين فى ذلك الجيل للكتاب من
مدرسة « النقد الاجتماعى » على الأسلوب المذهب فى لفظه
ومعناه . .

فأخذ تلميذهما اسم « المصباح » وحواله الى الصاعقة
وأخذ أسلوب « النقد » وحواله الى أسلوب « الهجاء »
وارتد على الأستاذين بالتهديد والوعيد ، وحاول أن
يتقاضى منهما ضريبة الابتزاز والأتاوة . . فعلمه المويلحى
درسا قال له فيما بعد أنه قد فاتته أن يتعلم منه مع الهجاء
. . هجاء الالف والباء . .

أرسله الى الآستانة برسالة يغتم فيها الهيل والهيلمان ،
من سلطان آل عثمان . .

فلما وصل الى الميناء كان فى استقباله مدير الشحنة
السهرية بدلا من مدير التشريفات بالمابين ، وقضى فى
السجن ما شاء المويلحى الكبير أن يقضيه هناك ، قبل أن
يشفع له ويدفع الشبهة عنه . .

ولقد سمعت من هذا « الادباتى السروجى » وصية
تدل على طريقته فى تقاليد هذه الصناعة . .

كان يقول لى كلما لقينى بدار البلاغ أو الاهرام : اتا
اعلم انك لا تخافنى كما يخافنى فلان وفلان . . وكل ما

الرجوه منك ألا تجهس بذلك أمام هؤلاء .. ردعنا نأكل
عيشنا معهم ، برزقنا الله وإياك ..

ومرة واحدة لقيني جالسا الى بعض زملائنا الصحفيين
على قهوة بجوار البنك الاهلى ، فهتف بى كالمعاتب
الناصح : كله الا هذا يا أستاذ .. ان الكاتب الذى يلقيه
سعد زغلول بالجبار لا يجلس على القهوات .. دعهم
يحسبونك من مرده الاساطير ، يتلو احدهم الطلسم كلما
خطر له أن يراك



فهرس

صفحة

تقديم	٨
على يوسف	١٢
مصطفى كامل	٣٩
محمد فريد	٥٣
مصطفى لطفى المنفلوطى	٦١
محمد المويلحى	٧٥
وراء التراجم والسير	٨٩
الدكتور يعقوب صروف	١١٥
جميل صدقى الزهاوى	١٢٩
محمد فريد وجدى	١٥٧
الشيخ رشيد رضا	١٦٩
عبد العزيز جاويش	١٧٥
ابراهيم الهلباوى	١٨١
جرجى زيدان	١٩٢
فرح أنطون	١٩٩
رجال حول « منى »	٢٠٧
أحمد لطفى السيد	٢٢٣
ميرزا محمد مهدى خان	٢٥٧
فؤاد «الصاغقة»	٢٦٣

وكلاء مجلات دار النهضة

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٤٩٢

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

البرازيل :

Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سيراليون :

1. Ahmed Bin Mohammad Bin Sani,
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

سنغافورة :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

أنجلترا :

Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Mamdi Azikiwe Street,
LAGOS NIGERIA

نيجيريا :

هذا الكتاب

هذا كتاب جديد لم يسبق نشره ، من مؤلفات الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ، تناول فيه عددا من الاعلام الذين عرفهم . ولم يكتب المؤلف عنهم بقصد استقصاء الحوادث أو تحليل شخصياتهم من وجهةها العامة ، ولكنه رسم لهم رسوما قريبة من الزاوية التي اتفقت له معرفتهم فيها . وقد توخى فيها - كما جاء في تقديم الكتاب () أن تكون تصور السياحة التي يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخصوس حيثما مرت به في رحلاته . . فليست هي أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان ، وليست هي شرحا تاريخيا للشخصوس والاعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المبوثة في الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة ، وان لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم ()